من مكتبة "المسلمون"

مع العارفين

عبقري

نفحات من سيرة السلف الصالح

دار "المسلمون" الأولى

جنيف - القاهرة

رقم الايداع ١٩٩٠/٣٧٠٤

دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
تليفون : ٩٠٨٣١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل رب زدني علما

الله

مقدمة

حين اخترنا لهذا الباب عنوان (مع العارفين) ، أردنا بذلك «المعرفة» فى مستواها الرفيع ، حيث لا يحدها علم بذاته ولا فن بذاته ، وحيث تحيط هى بكل علم وفن . المعرفة التى ينفك معها إسار العقول والنفوس فتشهد حقائق هذا الكون : «قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض» ، وتستشف عالم الغيب القائم وراء ادوات الحس ، ووراء كل ميت يموت ، ووراء هذه الدنيا المزخرفة يوم ينتهى زخرفها ويطمس الله معالمها : «فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية» !!

أردنا «المعرفة» فى مستواها الرفيع ، حيث ترتبط بالله فى كل آفاقها ، وحيث يصبح كل جهد يجلو غامضاً من غوامض الكون عبادة ، وكل جديد يجلوه دليل وموكب البشرية الى الله .

مالك هذا الكون ، قد تكلم فقال : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» أيبقى لديك بعد ذلك شك فى أن كل علم لا يؤدى الى عبادته علم جاهل فى حساب السماء ؟!

إن المعرفة فى هذا المستوى هى المعرفة ، وإن العارفين

بهذا المعنى أولو العلم الحق ، وهم الذين قال الله فيهم : «شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط» .

وقلنا «مع العارفين» ، ولم نقل «مع المعرفة» لأن سنة الله قضت ان يكون للمعرفة روّاد من بنى الانسان ، تهيئهم رحمة الله ليكونوا الأقباس المضيئة فى حياتهم ، والنماذج العليمة التى يحذون حذوها . وروّاد الانسانية الأول هم الأنبياء : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» ، وتمتد سنة الله من بعدهم فى كل من أخذ طريقهم واتبعهم باحسان ....

الفضيل بن عياض

حج أمير المؤمنين هارون الرشيد احدى حجاته ، فلما قضى اليوم الاول فى «منى» سهر عنده وزيره الفضل بن الربيع ، حتى اذا حان وقت النوم انصرف الى خيمته ، وبينما هو نائم بعد ان انقضى شطر من الليل سمع قرع الباب امام خيمته فقال :

– من هذا ؟

فخرج مسرعا فوجد أمير المؤمنين هارون بباب الخيمة فقال :

– ياأمير المؤمنين ، لو أرسلت الى اتيتك .

فقال هارون : ويحك ، قد حاك فى نفسى شىء لا يخرجه الا عالم ، فانظر لى رجلا أسأله عنه .

فقال الفضل : ها هنا سفيان بن عيينة الهلالى عالم مكة ومحدث الحرم .

قال هارون : امض بنا اليه .

قال الفضل : فأتينا خيمة سفيان ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب امير المؤمنين . فخرج مسرعا ، فلما وجد امير المؤمنين بباب الخيمة قال :

– ياأمير المؤمنين ، لو أرسلت الى اتيتك .

فقال : جدَّ لنا ما جئنا له – وحادثه ساعة ثم سأله : أعليك دَيْن ؟ قال : نعم .

فقال : ياأبا العباس اقض دينه (وانصرفنا) فقال لى أمير المؤمنين ونحن فى الطريق :

– ما اغنى عنى صاحبك شيئا ، فانظر لى رجلا أسأله .

فقلت : ها هنا عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعانى .

قال : امض بنا اليه .

فأتيناه فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب امير المؤمنين .

فخرج مسرعا ، فلما وجد نفسه بين يديه قال :

– ياأمير المؤمنين لو أرسلت الى اتيتك .

فقال : جد لنا ما جئنا له (وحادثه ساعه) ثم قال له :

– اعليك دين ؟ قال : نعم . فقال لى : ياأبا العباس اقض دينه .

ولما انصرف قال لى : ما أغنى عنى صاحبك شيئا فانظر لى رجلا أسأله .

فقلت : هنا الفضيل بن عياض التميمى ، شيخ الحرم ومن أئمة الهدى .

فقال : امض بنا اليه .

فأتيناه فاذا هو قائم يصلى فى خيمته يتلو آية من كتاب الله ويرددها فقرعت عليه ، فقال :

– من هذا ؟ فقلت : أجب امير المؤمنين . قال :

– مالى ولأمير المؤمنين !

فقلت : سبحان الله ، أما تجب عليك طاعته ؟

ففتح الباب ثم ارتقى الى السراج فأطفأه، ثم التجأ الى زاوية. فجعلنا نجول عليه بأيدينا. فسبقت كف الرشيد كفى اليه، فقال:

– اواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله.....

فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى.

فقال هارون: جد لنا ما جئنا له رحمك الله.

قال الفضيل: وفيم جئت؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم ان يتحملوا عنك شقصا (أى جزءا) من ذنب ما فعلوا؛ ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك.

وسكت الفضيل هنيهة، ثم استأنف كلامه فى سكينة الظلام ورهبته – وكانت ضربات قلب الرشيد تكاد تسمعها أذناه كأنها ضربات الساعة – فقال:

ان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضى عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم: «انى قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا على» فعد الخلافة بلاء وعددتها انت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله بن عمر: «ان النجاة غدا من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك اباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً. فبر اباك وارحم أخاك وتحنَّن على ولدك». وقال رجاء بن حيوة: «ان اردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. ثم مت متى شئت». وانى لأقول هذا وانى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام، فهل معك – رحمك الله – مثل هؤلاء القوم ومن يأمرك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه.

قال الفضل بن الربيع : فقلت للفضيل بن عياض : ارفق بأمير المؤمنين ؟ فأجابني : ياابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟!

فقال الفضيل : ياأمير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز رحمه الله شكا اليه سهرا ، فكتب له عمر يقول : «ياأخي اذكر سهر اهل النار في النار وخلود الابد ، فان ذلك يطّرد بك الى ربك نائما ويقظان . واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك» . فلما قرأ العامل كتاب ابن عبد العزيز طوى البلاد حتى قدم عليه . فقال له عمر : «ما أقدمَك ؟» فأجابه : «لقد خلعت قلبي بكتابك ، لا وليت ولاية ابدا حتى القى الله عز وجل» .

فبكى هارون بكاء شديدا ، ثم قال للفضيل : زدني !

فقال الفضيل : ياأمير المؤمنين ان العباس عم النبي ﷺ جاء اليه فقال : يارسول الله ، أمّرني امارة ، فقال له النبي ﷺ : «ياعباس ، نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ، أن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت ألاّ تكون أميرا فافعل» .

فبكى هارون بكاء شديدا ، ثم قال : زدني يرحمك الله .

فقال : ياحسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقي هذا الوجه من النار فافعل . واياك ان تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فان النبي ﷺ قال «من أصبح غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنة» .

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ...

ثم قال للفضيل : أعليك دين ؟

قال : نعم دين لربى يحاسبنى عليه فالويل لى ان ناقشنى والويل لى ان سألنى والويل لى ان لم يلهمنى حجتى!

قال هارون : انما اعنى دين العباد .

قال الفضيل : ربى لم يأمرنى بهذا وانما امرنى ان أصدق وعده وأطيع أمره ، قال الله تعالى : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين» .

فقال هارون : هذه الف دينار ، فخذها وأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادة ربك .

قال الفضيل : سبحان الله انا دللتك على سبيل الرشاد و تكافئنى أنت بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك .....

قال الفضل بن الربيع : ثم سكت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال لى أمير المؤمنين الرشيد : اذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا .

أبو عمرو الأوزاعى

عاده ابو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، فلبى دعوته....

- السلام عليكم ورحمة الله .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ما الذى أبطأ بك عنا ياأوزاعى ؟
- وما الذى تريد ياأمير المؤمنين ؟
- أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم .
- ياأمير المؤمنين ، انظر ولا تجهل شيئاً مما أقول .
- وكيف اجهله وأنا أسألك عنه ، وقد وجهت فيه اليك وأقدمتك له ؟
- أن تسمعه وتعمل به .

فصاح الربيع بالأوزاعى وأهوى بيده الى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا عقوبة ......

فطابت نفس الأوزاعى وانبسط فى الحديث :

ياأمير المؤمنين : حدثنى مكحول عن ابن بسر ، أن رسول الله ﷺ قال : «أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فهى نعمة من الله سيقت اليه ، فان قبلها يشكر والا كانت حجة عليه من الله ليزداد بها أثماً ويزداد الله بها عليه سخطا» .

ياأمير المؤمنين : من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين .

ياأمير المؤمنين : قد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس

الذين أصبحت تملكهم ، أحمرهم وأسودهم ، ومسلمهم وكافرهم ، فَكُلٌ له عليك نصيبه من العدل . فكيف اذا تبعك منهم وفد وراء وفد ، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها اليه ؟

ياأمير المؤمنين : لقد كان النبى ﷺ بالمؤمنين روءوفا رحيما ، مواسياً بنفسه لهم فى ذات يده وعند الناس ، وكان فيهم بالقسط قائماً ، ولعوراتهم ساتراً ، لم تغلق عليه دونهم الابواب ، ولم يقم عليه دونهم الحجاب ، يبتهج بالنعمة عندهم ، ويبتئس بما أصابهم .....

ياأمير المؤمنين : حدثنى مكحول عن زيادة بن جارية ، عن حبيب بن ملسمة ، أن رسول الله ﷺ دعا الى القصاص من نفسه فى خدشة خدشها اعرابياً لم يتعمدها . فأتاه جبريل فقال : يامحمد : أن الله لم يبعثك جبارا ولا مستكبراً . فدعا النبى ﷺ الاعرابى فقال : اقتص منى ، فقال الاعرابى : قد احللتك بأبى أنت وأمى . ما كنت لأفعل ذلك ابداً ولو أتت على نفسى ، فدعا له الرسول بخير ....

فكيف بمن شقق ابشار الناس ، وسفك دماءهم ، وخرب ديارهم ، واجلاهم عن بلادهم ، وغيبهم الخوف منه ؟!!

ياأمير المؤمنين : رض نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك ، وارغب فى جنة عرضها السماوات والارض ، قال فيها رسول الله ﷺ : «لقاب قوس احدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها» .

ياأمير المؤمنين . إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل اليك ، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

ياأمير المؤمنين · تدرى ما جاء عن جدك فى تأويل هذه الآية : «ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ؟» قال . الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك ... فكيف بما عملته الايدى ، وحدثته الألسن ؟!

ياأمير المؤمنين : بلغنى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انه قال : لو ماتت بغلة على شاطىء الفرات لخفت ان يسألنى الله عنها .... فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟

ياأمير المؤمنين : أتدرى ما جاء عن جدك فى تأويل هذه الآية : «ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى» ؟ قال : ياداود اذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك فى أحدهما هوى ، فلا تمنين فى نفسك ان يكون له الحق فيفلح على صاحبه ، فأمحوك من نبوتى ثم لا تكون خليفتى ولا كرامة ؛ ياداود إنما جعلت رسلى الى عبادى رعاء كرعاء الابل ، لعلمهم بالرعاية ، ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء .

ياأمير المؤمنين : إنك قد بليت بأمر عظيم لو عرض على السماوات والارض والجبال لأبين ان يحملنه وأشفقن منه . حدثى يزيد عن جابر عن عبد الرحمن عن ابى عمرة الأنصارى ، أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيما ، فقال له : ما منعك من الخروج الى عملك ؟ أما علمت ان لك مثل اجر المجاهدين فى سبيل الله ؟ قال : لا ! قال عمر : وكيف ذاك ؟ قال : لأنه بلغنى ان رسول الله ﷺ قال «ما من وال يلى من أمور الناس شيئا إلا أتى يوم القيامة فيوقف على جسر من نار فينتفض به الجسر انتفاضاً يزيل كل عضو منه عن موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فان كان محسناً نجا باحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فهوى به فى النار سبعين خريفاً» قال له عمر : ممن سمعت هذا ؟ قال من أبى ذر ، وسلمان ، فأرسل اليهما عمر ، فسألهما ، فقالا : نعم ! سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر : واعمراه ، من يتولاها بما فيها ؟ فقال ابو ذر : من سلت الله أنفه ، وألصق خده بالأرض !!

فأخذ أبو جعفر المنديل ، فوضعه على وجهه فبكى وانتحب حتى أبكى الأوزاعى ....

ثم مضى الاوزاعى يقول ودمعه ينهمر ·

ياأمير المؤمنين : قد سأل جدك العباس النبى ﷺ إمارة على مكة والطائف ، فقال له : «ياعباس ياعم النبى! نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها» هى نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه ، لأنه لا يغنى عنه من الله شيئاً : أوحى الله تعالى اليه «وأنذر عشيرتك الاقربين» فقال : ياعباس ، ياصفية عمة النبى ، أنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً . ألا لى عملى ولكم عملكم .

وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه : لا يقيم أمر الناس الا حصيف العقل ، أريب العقدة ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يحنو على حيوية ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم. وقال السلطان اربعة امراء: فأمير قوى ظَلَف[1] نفسه وعماله ، فذاك المجاهد فى سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله فضعف ، فهو على شفا هلاك الا ان يرحمه الله . وأمير ظلف عمله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذى قال رسول الله ﷺ فيه «شر الرعاء الحطمة»فهو الهالك وحده . وأمير أرتع نفسه وعماله ، فهلكوا جميعاً !!

وقد بلغنى ياأمير المؤمنين ان جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال : أتيتك حين أمر الله عز وجل بمنافيخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له : ياجبريل : صف لى النار . فقال : إن الله أمر بها فأوقدت ألف عام حتى احمرت ، ثم اوقد عليها الف عام حتى اصفرت ، ثم اوقد عليها الف عام حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة لا يضىء لهبها ولا جمرها . والذى بعثك بالحق لو ان ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً . ولو ان ذنوباً من شرابها صب فى ماء الأرض لقتل من ذاقه ، ولو ان ذراعاً من السلسلة التى ذكرها الله تعالى وضع على جبال الأرض لذابت وما استقرت . ولو ان رجلا دخل النار ثم أخرج منها لضج أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه ..... فبكى النبى ﷺ وبكى جبريل لبكائه .

---

(١) ظلف اى منع او كَفَ والظَلفَه فى العيشة الشدة (الصحاح للجوهرى)

وقد بلغنى ياأمير المؤمنين ان عمر بن الخطاب قال : اللهم ان كنت تعلم أنى أبالى اذا قعد الخصمان بين يدى على من قال الحق من قريب او بعيد فلا تمهلنى طرفة عين .

ياأمير المؤمنين : إن أشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى .... إنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه .

هذه نصيحتى ، والسلام عليك .....

ثم نهض ، فقال له ابو جعفر : إلى اين ؟

– الى البلد والوطن بأذن امير المؤمنين ، إن شاء الله .

– قد أذنت وشكرت لك نصيحتك ، والله الموفق للخير والمعين عليه . فلا تخلنى من مطالعتك اياى بمثلها ، فانك المقبول غير المتهم فى النصيحة .

– أفعل ان شاء الله .

قال محمد بن مصعب : وأمر أمير المؤمنين للأوزاعى بمال يستعين به على خروجه ، فلم يقبله الأوزاعى وقال : أنا فى غنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا كلها ..... وعرف المنصور مذهب الأوزاعى فلم يؤلمه أنه رد عطاءه .....

هكذا يكشف لك أبو عمرو عن حاله ، ويتبدى لك معدنه صريحاً من خلال كلامه .....

وأنك لتجد هذا شأنه مع كل من اتصل به ، أميراً كان – كما رأيته مع أبى جعفر – أو غير أمير ..... استوى الكل امام ميزانه ، وميزانه دائماً واحد لايختلف ، الميزان الحساس الرفيع ، الذى لا يثقل فيه إلا الحق ، والذى لا يزن

الناس إلا بما يقربهم من الله ويثقل موازينهم يوم يقفزون بين يديه «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين».

ألا ما أرهف هذا الميزان وما أعدله....

إنه ميزان لا يقدر عليه إلا الأقلون، سواء منهم فى ذلك الوازن والموزون... الوازن الذى أشرقت صفحة قلبه فلا يرى فى الأمر إلا حقيقته، والموزون الذى يجد نفسه دائما حاضره بين يديه فيلزمها حكم هذا الميزان!

أن اهل هذا الميزان هم «الأعصاب» التى تشيع الحياة فى كل مجتمع، الحياة الحقة المشرقة، وهم «الأسلاك» التى يسرى فيها النور......

وليس معنى ذلك ان يتألهوا على الناس، أو أن يحكموا على نواياهم، أو أن لهم احكاماً غير أحكام الله فى كتابه وسنة نبيه ﷺ، واستمع ان شئت الى كلمات الأوزاعى فى كتابه الى الحكم بن غيلان:

«وقد أحببت - رحمنا الله وإياك - أن تجعل لمعادك فى طرفى نهارك نصيباً، ولا يستفرغنك إيثار غيره، ودع امتحان من اتهمت، وضع أمره على ما قد ظهر لك منه، فان ستر عنك خلافا فاحمد الله على عافيته، وان عرض لك ببدعة فأعرض عن بدعته، ودع من الجدال ما يفتن النفس، وينبت الضغينة، ويجفى القلب، ويرق الورع فى المنطق والفعل، ولا تكن ممن يمتحن من لقى بالأوابد، وما عسى أن يفترى به أحد، وليكن ما كان منك على سكينة وتواضع تريد به الله، وليغنك ما عنى الصالحين قبلك، فانه قد اعظمهم ثقل الساعة، فجرت على خدودهم من الخشوع دموعهم، وطووا من خوف على ظمأ مناهلهم، عناؤهم على أنفسهم وراحتهم على الناس. نسأل الله ان يرزقنا وإياك علماً نافعاً، وخشوعاً يؤمننا به من الفزع الأكبر إنه أرحم الراحمين. والسلام عليك».

أرأيت الى هذا الفقه الرصين فى كتاب الأوزاعى ؟ أرأيت كيف دعا صاحبه الى أن يجعل نهاره فى سياج من ذكر الآخرة ، وحدد له فى التهمة الحدود التى لا يجوز تجاوزها الى اتهام السرائر ، وفسر له معنى الجدال بالتى هى احسن ، وأراده ان يلتزم فى كل ذلك السكينة التى ميز الله بها قلب المؤمن ، والتواضع الذى يراد به وجه الله ....

ولكن الجديد فى فقه الأوزاعى هو إشراقته التى تلازم كل وصاياه ، إشراقته التى أسالت مدامع أبى جعفر ، والتى تهدهد قلب سامعها .....

هذه الأشراقة هى التى يحتاجها اكثر الفقهاء وطلاب الفقه ، لأن الكتب لا تصنعها ، ومجرد العلم والحفظ لا يقدحاها ..... إنما تنقدح من الأعماق .... يقدحها الصدق مع الله ..... الصدق مع كل ما تقرأ وتحفظ .... ولعلك تستشف خبر ذلك فى أحوال الأوزاعى نفسه حين تقرأ قوله «من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن علم أن منطقه من عمله قل كلامه» .

ذكر الموت ......

منطقه من عمله ......

هكذا عاشت نفسه : أحياها ذكر الموت ، وهكذا كان منطقه : صدى نفسه الحية ، وصورة أخلاقه الرضية .....

واستزد من ذلك – إن شئت – بمثل قوله يخاطب موسى بن أعين «ياأبا سعيد كنا نمزح ونضحك ، فأما اذا صرنا يقتدى بنا ، ما أرى يسعنا التبسم» !

وبمثل ما روى عنه ، من أن نصرانياً أهدى اليه جرة من عسل ، ثم قال له : ياأبا عمرو : تكتب لى إلى والى (بعلبك[1] ؟ فقال له الأوزاعى : إن شئت

---

(١) بعلبك من مدن لبنان .

رددت الجرة وكتبت لك ، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك .... فرد الجرة وكتب له .

وبمثل قوله : «بلغنى انه ما وعظ رجل قوماً لايريد بوعظه وجه الله إلا زلت عنه القلوب كما زل الماء عن الصفا» .

ويمثل قوله «ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهى معروضة على العبد يوم القيامة يوماً فيوما ، وساعة فساعة ، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها الا تقطعت نفسه عليها حسرات ، فكيف اذا مرت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ، وليلة مع ليلة ...... ؟!

ألست تكاد تسمع أنفاسه الحارة تتردد فى كلماته ؟

☆☆☆

ومن أجمع ما قرأنا للأوزاعى قوله :

«كان يقال : خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون بإحسان : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد فى سبيل الله» .

رضى الله عنه وأرضاه .

شقيق البلخى

قال حاتم الأصم :

كنا مع شقيق البلخى فى المعركة ، فى يوم لا أرى فيه إلا رؤوساً تندر ، وسيوفاً تقطع ، ورماحاً تقصر ، فقال لى شقيق ونحن بين الصفين : كيف ترى نفسك ياحاتم ؟ تراها مثلها فى الليلة التى زفت اليك امراتك ؟ قلت : لا والله ! قال شقيق : لكنى والله ارى نفسى فى هذا اليوم مثلها فى الليلة التى زفت فيها امراتى . قال ذلك لك ثم نام بين الصفين ودرقته تحت رأسه ، حتى سمعت [illegible]

ذلك هو شقيق البلخى العابد الزاهد ، صنعته العبادة هذه الصناعة الممتازة ، وجعله الزهد جندى الحرب حين يجب الحرب .... جنديها المطمئن الذى يستقبلها هو لها كما يستقبل عروسه فى ليلة الزفاف ، وينام على درقته نوماً يغط فيه كأنها الفراش الناعم .

وإنك لتدخل من هذا الباب على شقيق ، ثم تطوف فى جوانب نفسه ، فتجده دائماً فى معركة ، لعل أهونها ما رواه حاتم .

يروى عنه أصحابه انه كان مرابياً ، فتاب الله عليه ، وثار معدن الخير فى نفسه فخرج عن كل ثروته ولبس الخشن من الثياب زمناً طويلاً ، قيل انه عشرون سنة ، حتى لقى عبد العزيز بن رواد فرآه على هيئته ، فقال له : ياشقيق ، ليس البيان فى أكل الشعير ولبس الصوف ، ولكنه فى ثلاث : فى

المعرفة : ان تعرف الله عز وجل ولا تشرك به شيئاً ، وفى الرضا عن الله ، وفى أن تكون بما فى يد الله اوثق منك بما فى ايدى المخلوقين ، ثم تلا قول الله : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احدا» .

ويبدو ان هذه الوصية جاءته على ميعاد ، وان السنوات العشرين التى انفقها كانت تجلية لبصيرته جعلته يبسط ذراعيه للوصية المزجاة ، ويرى فيها معالم الطريق التى آنست اليها نفسه بعد طول جهاد ...... يقول حاتم : سمعت شقيقاً يقول : علمت فى القرآن عشرين سنة ، حتى ميزت الدنيا من الاخرة فأصبت ذلك فى حرفين ، وهو قوله تعالى : «وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى» .

ما أكثر ما يقرأ الناس هذه الآية ، وما أقل ما يأخذون منها .

«أوتيتم» : إن هذه الكلمة وحدها حرية ان تلفت النفوس الى حقيقة بالغة : إلى المالك الأصيل الذى يُؤتى ، وحرية ان تدمغ كل ما يملك الناس وكل ما يستهويهم بطابع صريح لايمكنهم ان يغفلوه ، وهو انه عرض يؤتونه الى حين !

وليت شعرى اذا استقر فى النفس ان الذى فى يدها ليس ملكها ، وأنه لن يبقى لها ، ثم اذا قال لها المالك ان عنده ما هو خير من ذلك وأبقى ، ما الذى يقعدها بعد عن طلب ما عنده ، وكيف يمكن ان يفتها العرض الزائل عن صاحبه التى آتاها إياه ، والذى يملك وحده الأخذ والعطاء والموت والحياة ؟!

إنها الغفلة الكبرى ، فى ظلماتها تعبت النفوس ، وفى فتنتها تصطرع الاهواء وفى غمرتها يتأله الانسان ، فاذا بالنعم التى سخرها الله له تصبح ادوات معركة وأسباب شقاء ، وأول شقائه بها جحوده فضل الله عليه وحرمانه من مرضاته ، وآخره – الذى لا ينتهى – هو ما اعده الله للجاحدين من غضب وجحيم ، وبين هذين حياة لا يمكن ان تستقيم : «أرأيت من اتخذ إلهه هواه

أفأنت تكون عليه وكيلا» ؟! – ومن هنا كانت الثورة الكبرى التى بعث الله بها انبياءه وأنزل كتبه ليصلح امر الناس ، هى الثورة على هذه الغفلة الجاثمة على الضمائر ، والبدء من حيث بدأالهوى وبدر الطغيان : «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه انه لا إله الا أنا فاعبدون».

انه حين يستقبل الناس وجهاً واحدا : وجه الحق الذى لا يحابى احداً ، يمكنهم ان يستقبل بعضهم بعضاً فى صفاء وثقة ، وفى غير ذل ولا كبرياء : لا يذل احد منهم لأحد لأنهم جميعهم أمام الله أذلاء ، ولا يستعلى أحد منهم على أحد لأن الكبرياء لله وحده.

هذه هى الثورة الكبرى : ثورة الأنبياء .

وشقيق الذى نتحدث اليوم عنه كان ثائراً من هذا الطراز ، ومجاله الذى كان يجول فيه ويصول : هو النفوس التى جعلتها نواميس الله مبعث الخير ومصدر البلاء .

اسمعه يقول : من عمل بثلاث خصال اعطاه الله الجنة : أولها معرفة الله عز وجل : بقلبه ولسانه وسمعه وجميع جوارحه ، والثانية ان يكون بما فى يد الله اوثق مما فى يديه ، والثالثة ان يرضى بما قسم الله له وهو مستيقن ان الله تعالى مطلع عليه – ثم يقول فى حق المعرفة : ألا يحرك شيئاً من جوارحه الا باقامة حجته عند الله ، وفى حق الثقة بالله : ألا يسمع فى طمع ، ولا يتكلم فى طمع ، ولا يرجو دون الله سواه ، ولا يخاف دون الله سواه .

ويستحكم ميزان شقيق فيقول : من أراد ان يعرف معرفته بالله فلينظر الى ما وعده الله ووعده الناس : بأيهما قلبه أوثق .

وتدق نظرته فيفضح حركة النفس بميزانه المرهف حين يقول : من يستحيى من الحلال فهو متكبر !

وتنساب من فيه لطائف من إشراقة نفسه، فيقول «المؤمن مشغول بخصلتين، والمنافق مشغول بخصلتين، المؤمن مشغول بالاعتبار والتفكر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل» - ويقول «مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف ان تحمل شوكاً، ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكاً وهو يطمع ان يحصد تمرا .... هيهات هيهات، كل من عمل حسناً فان الله لا يجزيه إلا حسناً ولا ينزل الأبرار منازل الفجار» - ويقول : الدخول فى العلم بالعمل، والثبات فيه بالصبر.

ومن طريف وعظه : «إذا رأى العبد نفسه فى طاعه فليقل لنفسه : هذه طيبة من الله منّ بها علىّ، فذلك يكسر العُجب فى نفسه، فاذا وسوس له الشيطان فليقل : إنما عمله لثواب انتظره من الله عز وجل، فذلك يكسر الطمع فى الناس وطلب المحمدة والثناء ...... ان الطمع نسيان الرب، وإذ نسى العبد ربه طمع فى الخلق».

رضى الله عن شقيق وأرضاه.

مكحول

[العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبى بالكوفة ، والحسن بن أبى الحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام]
«الزهرى»

كان مجلساً طريفا فى أمسية من أماسّى الربيع فى دمشق ، وكان فى المجلس تميم بن عطية العنسى وإسماعيل بن عباس وعبد الرحمن بن يزيد ، وتنقلوا بين طوائف من العلم وأخبار الرجال أضفت على مجلسهم روحاً رقيقة ومزيجا من الجد والدعابة ، وبيناهم فى ذلك اذ بخالد بن جبلة يقول : «إن بركة العلم فى صدق العالم وطالب العلم ، وأعجب ما يعجبنى فى العالم ورعه فى علمه ، وقوله لا أدرى حين لا يدرى» ...... وكأن خالدا بهذه الكلمات قد أضاء مصباحاً فى مجلس القوم ، فان كلمة الصدق ما لبثت ان شغلتهم عن دعاباتهم ولفتتهم الى انفسهم لفتة بديعة ، وكلمة الصدق – ككل كلمة من كلمات الحق والخير – يسهل ترديدها وتسهل الغفلة عنها ، الا أن تخرج صادقة من فم قائلها ، فإنها حينئذ تصدر عامرة بحقيقتها ؛ «والحقائق» قوى قائمة لا يتخلف أثرها ، وإنما يتخلف الناس عنها حين يكذبون عليها ، وكذبهم حينئذ «حقيقة» أخرى لها أثرها اللازم الذى لا يتخلف ..... لا يمنع ذلك أن نزخرف مسوح الكذب ويتطاول بنيانه ، بل ان ذلك أحيانا من سنن الله مع الكاذبين «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدى متين» ، حتى اذا بلغت الموجة المزبدة الشاطىء الرابض لها – مهما استعلت – تكسّرت عليه «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» وربما دهمها وهى فى

عنفوانها إعصار قبل أن تبلغ الشاطيء «فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» . إن أمثال هذه الآيات فى القرآن لا يجوز ان يسمعها المؤمن كما يسمع سائر الكلام ؛ لأن الذى قالها هو الذى خلق الكون بكل ما فيه من قوّى وجوهر وعرض ، وهو الذى خلق نواميسه جميعاً ؛ فهو حين يتكلم يتكلم كلام الذى يخلق والذى يحيى والذى يميت ، وقد كان حسب الناس أن يسمعوا مثل قوله «وهو القاهر فوق عباده» لتقشعر جلودهم وليسارعوا الى تعرف ما يريد . وهو إنما أنزل الكتب وبعث الرسل ليعلن إرادته ، وليبين للناس احكامه ، وهى ارادة لا تنازع ، وأحكام لا تتخلف ......

هذه استطرادة نعود بعدها الى ما كان القوم فيه ، فإن كلمة خالد حركت نفوساً وأهاجت اشجانا ، ورفع تميم العنسى رأسه وفى عينيه دمعتان ساخنتان وقال : «رحم الله مكحولا الشامى ....

فقال رجل فى طرف المجلس : ذكرت عزيزاً ياتميم ... أولئك ياأخى العلماء ، لقد حدثنا عن مكحول انه كان من أعبد الناس ، وأنه لم يفته صوم الاثنين والخميس حتى لقى ربه رحمه الله ....» .

فقال آخر : أليس هو الذى قال . «من أحبَّ رجلا صالحا فإنما أحب الله ، ومن ذهب الى علم يتعلمه فهو فى طريق الجنة حتى يرجع» .

– بلى ، روى ذلك عنه ثوبان .

– ألا تحدثنا ياعبد الرحمن بن يزيد عم مكحول فإنك قد حضرته وسمعته .

– إى والله حضرته وسمعته ، ولقد كان يخشى على الناس علماء السوء بقدر ما كان يحب العلم ويحض عليه ..... كان يقول : «لا يأتى على الناس ما يوعدون حتى يكون عالمهم فيهم انتن من جيفة حمار» .

– لله دره ! حدّث ابو عبد الرحمن الدمشقى أنه سمعه يقول : بينا سليمان بن داود على بساط من شعر وأصحابه حوله اذا أمر الريح فاستقلته وسارت الجن والانس امامه والطير تظله ، إذا حراث يحرث على جانب الطريق ، فقال الحراث : لو ان سليمان بن داود عندى كلمته بثلاث كلمات ، فأوحى الله تعالى الى سليمان بن داود أن أئت الحراث ... فركب على فرس له حتى اتاه . قال ياحراث : أنا سليمان فقل ما أردت ان تقول . قال وما علّمك انى أردت ان أقول ؟ قال الله أعلمنى . قال أشهد له بذلك . قال والله إلا أنى رأيتك فيما أنت فيه فقلت والله ما سليمان فى لذة لذها أمس ولا فى نعيم نعمه وأنا فى تعب تعبته أمس وفى نصب نصبته إلا سواء ؛ لا سليمان يجد لذه ما مضى ولا أنا أجد تعب ما مضى . قال وأخرى قلتها – قال : وما هى ؟ قلت : سليمان يموت وأنا أموت – قال : صدقت ! – قال ولكنى ياسليمان قلت كلمة طيبت بها نفسى : قلت سليمان يسأل غداً عما أعطى وأنا أسأل . قال : فخر سليمان ساجداً يبكى وهو يقول : يارب لولا أنك جواد لا تبخل لسألتك . أن تنزع منى ما أعطيتنى ، قال فأوحى الله تعالى اليه : ياسليمان ارفع رأسك فإنى لم أنعم على عبد لى نعمة فتكون تلك النعمة رضاً فأحاسبه عليها .

وكان رحمه الله ذا بصيرة مع كتاب الله تكشف له أسراره وكنوزه ، وكان يقول : اقرأ القرآن ما نهاك ، فإذا لم ينهك فلست تقرأه . وروى عنه العلاء بن الحارث قوله «أربع من كن فيه كن له ، وثلاث من كن فيه كن عليه ؛ فأما الأربع اللاتى له : فالشكر ، والايمان ، والدعاء ، والاستغفار . قال الله تعالى : «ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم» وقال : «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» وقال : « ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم» وأما الثلاث اللاتى عليه :

فالمكر ، والبغى ، والنكث . قال تعالى : «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه» . وقال : «ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» وقال : «إنما بغيكم على أنفسكم» .

وروى عنه النعمان بن المنذر فى قوله تعالى «ليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما» قال : وضع عنهم الاثم فى الخطأ ووضع المغفرة على العمد .

وكان على علمه وفضله رحمه الله جميل الصورة حلو الهيئة ، وكان يقول : «من طابت ريحه زاد فى عقله ، ومن نظف ثوبه قل همه» ولعمرى إنها لكلمات بصير .

وكان كذلك شجاعا لا يخاف فى الله لومة لائم : حُدِّثنا ان يزيد بن عبد الملك بن مروان أقبل عليه وهو فى أصحابه ، فرآهم مكحول يهمون بالتوسعة له فقال : مكانكم دعوه يجلس حيث ادرك يتعلم التواضع .

وكان حكيما لبيباً ، يروى عنه النعمان بن المنذر «لا تعاهدوا السفيه ولا المنافق فما نقضوا من عهد الله اكبر من عهدكم» .

واسند رضى الله عنه عن أنس بن مالك وواثق بن الاسقع وأبى امامه الباهلى وأبى هند الدارى وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عمرو وأبى الدرداء وشداد بن موسى وأبى هريرة ، وله أحاديث غريبة تفرد بها رحمه الله - روى عن واثق ابن الاسقع عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يبعث الله عبداً يوم القيامة لا ذنب له ، فيقول الله : بأى الأمرين أحب إليك أن أجزيك ، بعملك أو بنعمتى عندك ؟ قال يارب إنك تعلم انى لم أعصك . قال خذوا عبدى بنعمة من نعمى - فما تبقى له حسنة إلا أستغرقتها تلك النعمة . فيقول رب بنعمتك ورحمتك . فيقول بنعمتى ورحمتى . ويؤتى بعبد محسن فى نفسه لا يرى ان له ذنبا . فيقول له هل كنت توالى اوليائى ؟ قال كنت من الناس سلما . قال فهل كنت تعادى اعدائى ؟ قال يارب لم يكن بينى وبين احد شىء . فيقول الله عز وجل . لا ينال رحمتى من لم يوال اوليائى ويعادى اعدائى» .

وروى عن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله ﷺ قال : أن أحبكم الى وأقربكم منى أحاسنكم اخلاقا ، وإن أبعدكم منى مساوئكم اخلافا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» .

وروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قوله : «حجة قبل غزوة أفضل من خمسين غزوة ، وغزوة بعد حجة أفضل من خمسين حجة ، ولموقف ساعة فى سبيل الله افضل من خمسين حجة» .

وروى عن شداد بن أوس «بينا رسول الله ﷺ يحدثنا على باب الحجرات اذ أقبل شيخ من بنى عامر هو مدره قومه وسيدهم مع شيخ كبير يتوكأ على عصاً ، فمثل بين يدى رسول الله ﷺ ونسبه الى جده فقال : ياابن عبد المطلب أخبرنى ماذا يزيد فى العلم ؟ قال : التعلم - قال : فما يزيد فى الشر ؟ قال : التمادى . فقال : هل ينفع البر بعد الفجور ؟ قال : نعم : التوبة تغسل الحوبة والحسنات يذهبن السيئات ، واذا ذكر العبد ربه فى الرخاء أجابه عند البلاء . قال : ياابن عبد المطلب وكيف ذلك ؟ قال : لأن الله عز وجل يقول : وعزتى وجلالى لا أجمع أبداً لعبدى أمنين ولا أجمع عليه ابداً خوفين . إن هو أمننى فى الدنيا خافنى يوم أجمع عبادي لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه . وإن هو خافنى فى الدنيا أمننى يوم أجمع عبادى فى حظيرة القدس فيدوم له امنه ولا أمحقه فيمن أمحق» .

وروى عن أبى أيوب الانصارى ان الرسول ﷺ قال : «كلّ صلاة تحط ما بين يديها من الخطيئة» .

وروى عن شر حبيل بن المسقط قال : مر بى سلمان فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأمن النفاق وجرى عليه رزقه» .

رحمه الله رحمه واسعة ، لقد أجزل الله له الفضل ولا أحسبه الا أجزل

له الاجر والمثوبة – حُدثت ان عبد ربه بن صالح دخل على مكحول فى مرضه الذى مات فيه فقال له : «أحسن الله عافيتك أبا عبد الله؟ فقال : الالحاق بمن يُرْجى عفوه خير من البقاء مع من لا يؤمن شره .....» .

☆☆☆

رضى الله عن مكحول وأرضاه .

فاطمــة

مَن مِن المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها لا يعرف فاطمة ؟!

ولكن اكثر المسلمين لا يعرف عنها إلا أنها بنت رسول الله ﷺ ، وزوجة على رضى الله عنه ، وقليل منهم من أدركه خبر عن حالها مع ربها ، أو ألم بطرف من شأنها مع نفسها ومع الناس .

يعرف الناس عنها أنها بنت النبى ، فماذا كانت تعرف هى عن نفسها ؟

تستطيع أن تقرأ خبر ذلك فى مثل ما أُثر عنها رضى الله عنها وأرضاها : قال على لابن أعبد : «يا ابن أعبد : الا أخبرك عنى وعن فاطمة ؟ كانت ابنة رسول الله ﷺ واكرم أهله عليه ، وكانت زوجتى ، فجرّت بالرحاء حتى أثر الرحاء بيدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها ، وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها ، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها ، وأصابها من ذلك ضر» .

هكذا قضت حياتها فاطمة : فى يديها أثر الرحى ، وفى نحرها أثر القربة ، وعلى ثيابها ما قد علمت .

بل إنها ليشتد الامر عليها ، وهى حامل ، فكانت اذا خبزت أصاب حرف التنور بطنها ، فأتت أباها ﷺ تسأله خادما ، فقال لها : «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع ، أوَلا أدلك على خير من ذلك . اذا أويت الى فراشك تسبحين الله تعالى ثلاثا وثلاثين ، وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين ،

وتكبرينه أربعاً وثلاثين» هكذا ردها أبوها النبى ، وأضاف الى شغلها الذى انهكها شغلا جديدا من الذكر والتسبيح . فهل كان ذلك عن قسوة من أبيها الذى اتسع قلبه حتى وسع الناس جميعا؟ ...كلا ... وحسبك فى ذلك أن تعلم مكان فاطمة فى قلبه ﷺ فى مثل قوله : «إنها فاطمة ابنتى بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها» – وإنما هو الحق الذى بعث به رحمة للناس كافة ، جعله يشتد على فاطمة وهى حبه وبضعة منه مادام أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع . وهو حين يدعوها الى مزيد من الذكر والتسبيح إنما يأخذها الى كنف الحق الذى لم يجعل لها حقا فى خادم ، ويسلم قلبها الى معانيه العلوية تسكب فيه نوراً يقدح سرها ، ويغمر نفسها ، ويشغلها عن شكاة جسدها المنهوك !

★ ★ ★

وإن هذا النسب الكريم من الحق من النبى وابنته – فضلا عن أنه برهان من براهين النبوة – أفق عال لا يزال يشرق منه كل حادثة نجم جديد ...

روى أنس ان رسول الله ﷺ سأل فى مجلس من أصحابه «ما خير للنساء ؟» فلم ندر ما نقول ، فسار على الى فاطمة فأخبرها بذلك . فقالت : فهلاً قلت له : خير لهن الأ يرين الرجال والا يرونهم ؟ – فرجع فأخبره بذلك . فقال له : «من علمك هذا» قال : فاطمة . قال ﷺ : «إنها بضعة منى !» .

★ ★ ★

وذكر جابر بن سمرة ان النبى ﷺ جاء فجلس وقال : «إن فاطمة وجعة» فقال القوم لو عدناها فقام فمشى حتى انتهى الى الباب – والباب عليها مصفق – فنادى شدى عليك ثيابك فان القوم جاءوا يعودونك . فقالت يا نبى الله ما علىّ إلا عباءة . فأخذ رداءه فرمى به اليها من وراء الباب وقال : شدى بهذا رأسك ، فدخل ودخل القوم وقعد معها ساعة فخرجوا ، فقال القوم : تالله

بنت نبينا ﷺ على هذه الحال! فالتفت اليهم وقال: «أما إنها سيدة النساء يوم القيامة».

وكانت رضى الله عنها عفة مطهرة تختار، الفضفاض من الثياب تخفى فيه جسدها، وقالت مرة لأسماء: «يا أسماء إنى قد استقبحت ما يصنع بالنساء: أن يطرح على المراة الثوب فيصفها».

★ ★ ★

وقالت عائشة: كنا عند النبى ﷺ فى مرضه الذى مات فيه ما تغادر منا واحدة، اذ جاءت فاطمة تمشى ما تخطىء مشيتها من مشية النبى ﷺ شيئا، فلما رآها قال: «مرحبا بابنتى» فاقعدها عن يمينه، ثم سارّها بشىء فبكت. فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك رسول الله ﷺ من بيننا بالسرار وأنت تبكين! ثم سارّها بشىء فضحكت. فقلت لها: أقسمت عليك لما أخبرتينى، قالت: ما كنت لأفشى على رسول الله سره، قالت عائشة فلما توفى النبى ﷺ سألتها فقالت: أما الآن فنعم! أما بكائى فان رسول الله قال لى: «إن جبريل عليه السلام كان يعرض علىّ القرآن كل عام مرة، فعرض العام مرتين ولا أرى إلا أجلى قد اقترب» فبكيت، فقال لى: «اتق الله واصبرى فأنى أنا نعم السلف لك» ثم قال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة» وقال: «أنت أول أهلى لحوقا بى» فضحكت.

وماتت فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر.

رضى الله عنها وأرضاها، وألحقنا بها فى الصالحين.

سعيد بن جبير

من الذى لا يعرف سعيد بن جبير ؟!

لسنا نريد هنا أن نؤرخ له ، أو أن نأتى على أطراف سيرته ، فذلك شأن نتركه لأهل التأريخ وعلماء السيَر ، وانما هى لمحات فى قصة رجل يعرفه المسلمون واحدا من المعدودين من رجال تاريخهم ، كوفىء على علمه وفضله بأن قطعت رقبته ظلماً وبغياً ، وكان قاطعها حاكماً من حكام المسلمين .... قطعها ، وهى الرقبة الطاهرة ، بالحجة القديمة الظالمة : وهى إخماد الفتنة وحماية الأمن فى ديار الاسلام!

كان المحدث الأمين الذى أسند عن جماعة من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ ، منهم على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو هريرة ...

وكان الفقيه الرصين الذى يُرجع اليه فى الفتوى بين أئمة العلم الكبار ، حتى إن ابن إبى المغيرة ليقول «كان ابن عباس اذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، يقول : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ - يعنى بذلك سعيد بن جبير» .

وكان الورع التقِّى الذى ترق القلوب لرؤيته ويذكر بالله من يتصل به ، وفى ذلك يقول هلال بن خباب : «خرجنا مع سعيد بن جبير فى جنازة ، فكان يحدثنا فى الطريق ويذكرنا بالله حتى بلغ ، فلما بلغ جلس ، فلم يزل يحدثنا حتى قمنا فرجعنا . وكان كثير الذكر لله عز وجل ...» وكان يقول : لو فارق

ذكر الموت قلبى، خشيت أن يفسد علىّ قلبى! وسئل: من أعبد الناس؟ فأجاب: رجل اجترح من الذنوب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله ... وروى عنه عطاء بن دينار قوله: إن الخشية أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك. والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وان أكثر التسبيح وقراءة القرآن! ومن دعائه الجميل الذى كان يردده: اللهم إنى أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك.

وكان ذا بصيرة نيرة كشف الله له بها لطائف من معانى القرآن لا تزال غضة مشرقة فى كثير مما أثر عنه... قرأ مرة قول الله عز وجل: «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرَض هذا الأدنى» فقال: يعملون بالذنوب ويقولون سيغفر لنا «وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه» قال: الذنوب! - وقال فى قوله تعالى: «يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة»: اذا عُمل فى أرض بالمعاصى فاخرجوا! وسمعه عطاء يقرأ قول الله «ونكتب ما قدَّموا وآثارهم» ثم يقول: ما سنُّوا! أى ما سنُّوه للناس من بعدهم بما قدموا من أعمال - وأثر عنه أنه ذكر فى تفسير قوله تعالى: «أمثلهم طريقة»: أوفاهم عقلا..

هذا المحدث الأمين، العالم الفقيه، الورع التقى، ذو البصيرة الملهم، لم يمنعه كل ما امتاز به وعرفه الناس عنه من أن تناله يد الطغيان وتقطع رقبته، بل لعل كل ذلك فيه هو الذى أعده للشهادة وجعله أهلا لها، وقد كان هو يتمناها ويسأل الله ان يكرمه بها، وما إن جاءه رسل الحجاج يطلبونه حتى قال: «ما أرانى إلا مقتولا، لقد كنت أنا وصاحبان لى دعونا الله حين وجدنا حلاوة الدعاء وسألناه الشهادة، فكلا صاحبى رزقها وأنا أنتظرها!» وبكى ابنه فقال له: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟!

وخرج به رسل الحجاج، فرأوا منه فى الطريق عجبا، ولم يلبثوا أن قالوا له: ياخير أهل الأرض: ليتنا لم نعرفك ولم نرسل اليك! الويل لنا ويلا

طويلا ، كيف ابتلينا بك ! اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر ، فانه القاضى الأكبر والعدل الذى لا يجور . فقال لهم سعيد : ما أعذرنى لكم وأرضانى لما سبق من علم الله تعالى فىّ ! فبكوا ، وناشدوه أن يعظهم وينصحهم قائلين : إنا لا نظن أن نلقى مثلك أبدا ... ففعل سعيد ، وأفاض عليهم من نور قلبه المطمئن ، ثم جاء الليل فناموا وتركوه خاليا الى ربه ، حتى اذا انشق عمود الصبح قرع عليهم الباب يوقظهم ، فقالوا : صاحبكم ورب الكعبة ! وخرجوا اليه يبكون(★) ..

ودخلوا على الحجاج ، فسألهم : أتيتمونى بسعيد بن جبير ؟ قالوا : نعم ، قال : أدخلوه ، فدخل ، فبادره الحجاج :

- ما اسمك ؟
- سعيد بن جبير .
- أنت الشقى بن كسير .
- بل كانت أمى أعلم باسمى منك .
- شقيت أنت وشقيت أمك !
- الغيب يعلمه غيرك .
- لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى .
- لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها .
- فما قولك فى محمد ؟

(★) عجيب امر هؤلاء الذين يستعملهم الطغاة فى اضطهاد عباد الله وفى تحقيق مآربهم ، انهم يعتذرون دائما بأن لا حول لهم ولا طول ، والحق أن الطغاة لا حول لهم ولا طول الا بهم ، واعجب من ذلك طيبة قلوب أهل الخير التى تجعلهم يقبلون عذر هؤلاء العملاء .

- تعنى النبى ﷺ ؟

- نعم !

- سيد ولد آدم النبى المصطفى خير من بقى وخير من مضى .

- فما قولك فى أبى بكر ؟

- الصديق ، مضى حميدا وعاش سعيدا ، مضى على منهاج نبيه ﷺ لم يغير ولم يبدل .

- فما تقول فى عمر ؟

- عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله ، مضى حميدا على منهاج صاحبيه لم يغير ولم يبدل .

- فما تقول فى عثمان ؟

- المقتول ظلما ، المجهز جيش العسرة ، الحافر بئر رومه ، المشترى بيته فى الجنة ، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه ، زوجه النبى بوحى من السماء !

- فما تقول فى على :

- ابن عم رسول الله ﷺ ، وأول من أسلم ، وزوج فاطمة ، وأبو الحسن والحسين !

- فما تقول فى معاوية ؟

- شغلتنى نفسى عن تصريف أمور هذه الأمة وتمييز أعمالها .

- فما تقول فىّ ؟

- أنت أعلم ونفسك !

- بت بعلمك

- اذاً يسوءك ولايسرك

- بت بعلمك

- أعفنى!

- لاعفا الله عنى إن أعفيتك

- إنى لأعلم انك مخالف لكتاب الله تعالى، ترى من نفسك أموراً تريد بها الهيبة وهى تقحمك الهلكة، وسترد غدا فتعلم!

- ويلك يا سعيد!

- الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار

فأمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدى سعيد، فقال:

- إن كنت جمعت هذه لتفتدى بها من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا فزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما ارضعت، لاخير فى شىء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

- مالك لاتضحك؟

- وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين والطين تأكله النار

- فما بالنا نضحك؟

- لم تستو القلوب!

- أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا قبلك ولا اقتلها احدا بعدك

- اذاً تفسد علىّ دنياى وأفسد عليك آخرتك

- اختر يا سعيد أى قتلة تريد أن أقتلك؟

- اختر لنفسك يا حجاج فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

– أفتريد أن عفو عنك ؟

– إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

– اذهبوا به فاقتلوه !

فلما خرج سعيد من الباب ضحك ، فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده وقال : ما أضحكك ؟ فأجابه : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك !! فأمر الحجاج بالنطع فبسط ثم قال : اقتلوه . فقال سعيد : «وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين» فقال الحجاج : شدوا به لغير القبلة ! قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله – قال الحجاج : كبوه على وجهه ! فقال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، فصاح الحجاج : اذبحوه فكان آخر ما قاله سعيد : أما أنى أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، خذها منى حتى تلقانى يوم القيامة : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى !!

وذبح الرجل الصالح على النطع ، ولم يعش الحجاج بعده إلا ليالى معدودات ، قضاها مذعورا تلاحقه الرؤى وأشباح الجريمة النكراء ، وما أكثر ما سمعه القريبون منه يحدث نفسه ويصيح : ما لى ولسعيد بن جبير ؟!

رضى الله عن سعيد وأرضاه فى الجنة

وأمر الحجاج الى الله !!

محمد بن مسلمة

للطفولة أماني وأحلام، لو عنى أصحابها بتدوينها لكان في بعضها ما يحفز الانسانية للتقدم نحو الخير بخفة الاطفال وسذاجتهم المحببة. وقد يراجع الرجل المسن ذكريات طفولته فيستعرض منها ما يتمنى ان يحققه لو استقبل من أمره ما استدبر ثم يقول في نفسه – ولماذا لا القى تلك البذور الآن في حقول الطفولة الخصبة بمروجها، اليانعة بثمارها، على أن ينبت بها غدا ما عجزنا عن استنباته في الامس؟

وعلى هذه النية اعرض الافكار الصبيانية التالية على انظار فتيان المسلمين من قرائي:

في أبلج مفضض من شتاء دمشق – قبل سنين عديدة – كان طلبة المدرسة الثانوية الاميرية يتمتعون في فسحة الظهر بالثلوج وهي تتطاير بين السماء والارض كالقطن المندوف فيجمعون منها اكرا يتراشقون بها ويتصارعون على بساطها الابيض الناصع الذي يملأ الساحة الكبرى فيتمرغون فيه. الا اربعة منهم كانوا فيما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من اعمارهم جالسين حول موقد الفصل – وكان يتلظى بالحطب الملتهب – فيتذاكرون ما يودون تحقيقه من أمانيهم. ثم أجمع رأيهم على ان ينشئوا في المستقبل ناديا يسمونه (نادي الكملة) يكون مشيدا من بضع طبقات، في كل طبقة عشرات من الغرف المتسعة. اما الطابق الارضي فينتقى له من كبار تلاميذ المدارس الابتدائية وصغار تلاميذ المدارس الثانوية أهل القابلية للخير ممن يغلب

عليهم الصدق والجد ومحبة الخير . فينضم النظراء الى نظرائهم، ويلتحق المتشابهون بأشباههم ، حتى تكون منهم حلقات ، تأوى كل حلقة منها الى غرفة من غرف الطابق الارضى فى نادى الكملة ، وكلما استوثق القائمون على النادى من تمكن خليقة الصدق فى افراد حلقة من حلقات الطابق الارضى ، ارتقوا بأعضائها الى الغرفة الاولى من الطابق الثانى وقد كتب على بابها هاتان الكلمتان (أهل الصدق). وفى هذه الغرفة يتمرن اعضاؤها على «الاعتدال والرفق» ويتثقفون بما فى القرآن الالهى والحديث النبوى والامثال البليغة وأقوال الحكماء من جوامع الكلم فى مزايا الاعتدال وأن الرفق ما كان فى شىء الازانه ، حتى يصبح الاعتدال والرفق سليقة لهم وخلقا طبيعيا فيهم ، وحتى يكون كل ما قيل فيهما من أهم محفوظاتهم ، وحينئذ ينقلون الى (غرفة أهل الاعتدال والرفق) وفيها يتمرنون على «الانصاف» و «الايثار» ويثقفون ألسنتهم وعقولهم بكل ما قيل فيهما ، حتى اذا حذقوا ذلك عملا وعلما انتقلوا الى (غرفة الانصاف والايثار) فيتمرنون فيها على خلق التضحية : التضحية بالنفائس وهو الكرم ، والتضحية بالنفوس وهو الجهاد ، والسخاء بالمعارف والتجارب وهو التعليم والتهذيب لوجه الله وبلا اجر يشوهون به جمالهما ، ثم ينتقلون الى غرفة (القناعة والاقتصاد) فيتعلمون فيها كيف يكون زهد الاغنياء وتواضع الملوك وبلوغ معارج العظمة الادبية باحتقار الانانيات والمتع المادية والشهوات الزائلة ، ثم يصيرون الى (غرفة الحياء) فغرفة التعاون على الحق والخير ... الخ . فيجدون الغرف فيه مسماة باسماء الممتازين بالفضائل السامية من اصحاب رسول الله ﷺ ، ولا يتأهل للالتحاق بغرفة منها الا من يستقصى كل ما حفظه التاريخ من فضائل الصحابى المكتوب اسمه على تلك الغرفة ، ويحاول التخلق باخلاقه ، وتمثيل حياته تمثيلا عمليا فى هذا العصر ، بذلك يكون لابناء الجيل طبقة من المعاصرين الممتازين الذين يمثلون الانسانية المنشودة باسمى كمالاتها ، فيرجع بهم الى الاسلاف غضا جميلا لا تصنع ولا متاجرة ببضاعته ولا مرآه بمظاهره

للاستغناء بها عن حقيقته. فاذا كثر أفراد هذه الطبقة فى جيل من اجيال المسلمين، كان سائر المسلمين تبعا لها ونزلت الدولة على سننها وكما تكونوا يولَّ عليكم؛ فرأت الامم ذلك بأعينها، ولا يلبث أن يكون الاسلام بعد ذلك دين الانسانية كلها.

★ ★ ★

محمد بن مسلمة الاوسى - حليف بنى عبد الاشهل، وأحد أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره الاولين، ولهذا الصحابى غرفة متفردة على اسمه فى الطابق الخاص بأصحاب رسول الله ﷺ بنادى الكملة كما كان يتصوره أولئك التلاميذ الاربعة فى مدرسة دمشق الثانوية قبل عدد من السنين وقد اخترته من بين عشرات من الصحابة الممتازين الذين لكل واحد منهم غرفة فى ذلك النادى، لانه مع امتيازه بما يرفعه الى الذروة فى الانسانية السامية لم يشتهر عند الجماهير كاشتهار عمر وعلى وخالد وعمرو وأبى عبيدة. وبذلك آثرت أن أعرض على فتيان المسلمين ما تتسع له هذه الصحيفة من سيرته.

قد يسبق الى ذهن القارىء أن محمد بن مسلمة ولد فى الاسلام فتسمى (محمدا) على اسم الهادى الاعظم ﷺ. وليس كذلك، فان اسم محمد وان كان قليل الذيوع قبل الاسلام لكنه كان متداولا. وابن مسلمة ولد فى يثرب بعد ولادة النبى ﷺ فى مكة بثمانية عشر عاما. فلما بُعث النبى ﷺ بدعوة الحق وبالرسالة العظمى الى الانسانية كان محمد بن مسلمة فى الثانية من عمره، ولو انه كان مكيا من قريش لكان من الرعيل فى الاسلام، لكنه، وهو من مواليد يثرب، كان أسبق الانصار الى دين الحق، فقد أسلم قديما على يدى مصعب بن عمير بن هاشم العبدرى عندما بعثه النبى ﷺ الى المدينة قبل الهجرة، فكان اسلام محمد بن مسلم أقدم من اسلام سعد بن معاذ واخوانه من الانصار. ونشأ محمد بن مسلمة أسمر طويلا معتدلا ممتلىء الجسم، اصلع، مقداماً فى العزائم، صداعا بالحق، سريعا الى الخير، مبغضا للفتن واهلها، وانجب للايسلام عشرة من الذكور كلهم من أهل الخير، وقد ادرك نصفهم صحبة رسول الله ﷺ وهم عبد الرحمن وعبدالله وجعفر وسعد وعمر.

ولما قدم النبى ﷺ المدينة وتبعه المهاجرون فآخى بين كل المهاجرين والانصار ، آخى بين محمد بن مسلمة وامين هذه الامة ابو عبيدة عامر بن عبدالله الجراح الفهرى أحد العشرة المبشرين بالجنة وصاحب الفتوح الخالدة بنتائجها فى سبيل الحق الى يوم القيامة .

شهد محمد بن مسلمة بدراً ، وجاهد مع رسول الله ﷺ فى جميع الميادين ولم يتخلف الا عن غزوة تبوك بأمر النبى ﷺ . وأغلب الظن أنه كان خليفة الرسول على المدينة فى غيبته الى ان عاد من تبوك .

وكان ثقة رسول الله ﷺ فى العظائم التى لا يصمد فيها الا أهل العزائم . من ذلك ان ابن اليهودية كعب بن الاشرف الطائى لما أسرف فى ايذاء المسلمين والكيد للاسلام بثروته وجاهه وشعره حتى تطاول الى التشبيب بالنساء المسلمات ، وحتى ذهب الى مكة فنزل فى بنى سهم فجعل ينظم ابلغ الشعر فى رثاء اهل القليب من قتلى بدر ليهيج قريشاً لثاراتها ، رأى النبى ﷺ من الخير للانسانية قتل هذا العضو الفاسد من اعضائها وانه ان لم يقتل فستسفك بشعره وتحريضه دماء لا ترقأ . فقال ﷺ يوماً لأصحابه : من لى بابن الاشرف ؟ . فقال محمد بن مسلمة : انا له يارسول الله ، انا أقتله .... قال : فافعل ان قدرت على ذلك . فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاث ليال لا يأكل ولا يشرب الا ما يعلق به نفسه لما اهمه هذا الامر . فلما علم النبى ﷺ دعاه وقال له : لِمَ تركت الطعام والشراب ؟ قال : يارسول الله قلت لك قولا لا ادرى هل أفيَنَّ لك به ام لا . فقال ﷺ : انما عليك الجهد . واختار محمد لمرافقته لهذه المهمة اربعة من الرجال هو خامسهم ، احدهم من أسرة بنى حارثة وهو ابو عبس بن جبر والآخرون من حلفائهم بنى عبد الاشهل اولهم أخ من الرضاعة لكعب بن الاشرف وهو أبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش وابن عمه عباد بن بشر بن وقش ثم الحارس بن اوس بن معاذ . ولما ازمعوا أمرهم مثلوا بين يدى النبى ﷺ وقالوا : يارسول الله ، انه لابد لنا من أن نقول (أى ان يتظاهروا بالعداوة للاسلام حتى يتمكنوا من الرجل) فقال : قولوا ما بدا لكم ، فانتم فى حل من ذلك .

فلما نهضوا ليقوموا بمهمتهم مشى معهم ﷺ الى بقيع الغرقد ثم وجههم

فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم اعنهم ... ثم رجع الى بيته وهو فى ليلة مقمرة . واقبلوا حتى انتهوا الى حصن كعب بن الاشرف فى ظاهر يثرب فاستنزلوه واعملوا فيه السيف فقتل وهو يصيح صيحة لم يبق حصن الا اوقدت عليه النيران لتعرف خبر ذلك الصوت .

ولما أصابت الاوس كعب بن الاشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلا علينا ابداً . فتذاكروا مَن رجل فى العداوة لرسول الله ﷺ كابن الاشرف .. فذكروا راس اليهود وطاغيتهم سلام بن أبى الحقيق فى خيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى قتله فى معقله فى خيبر ، ولما قتله الخررج قال حسان بن ثابت :

لله در عصابـــــة لاقيتهــــــم	يابن الحقيق وانت يابن الاشرف
يسرون بالبيض الخفاف اليكـم	مرحا كأسد فى عرين مغرف
حتى اتوكم فـى محل بيوتكـم	فسقوكـمُ حتفـاً ببيض دفــف
مستنصرين بنصر دين نبيهـم	مستصغرين بكل امر مجحـف

ويوم تآمرت يهود بنى النضير على النبى ﷺ فى السنة الرابعة للهجرة وارادت أن تلقى عليه الصخرة وهو مستظل بجدار من جدران بيوتها ، اعتبر ﷺ هذا الغدر نقضاً من اليهود لعهودها ، فندب محمد بن مسلمة ليبلغ أمره لهم بالجلاء عن الحجاز الى جنوب سوريا على ألا يحملوا معهم شيئاً من أسلحتهم ولامتهم . وكانت الأوس قوم محمد بن مسلمة حلفاء قدماء لبنى النضير فقالوا لابن مسلمة : يا محمد ، ما كنا نظن ان يجيئنا بهذا الامر رجل من الأوس ... فقال محمد بن مسلمة : تغيرت القلوب ، ومحا الاسلام العهود ... فقال اليهود : نتحمل .

وخرجوا بلا سلاح ولا ذخيرة لكل ثلاثة منهم بعير وسقاء .

ثم لما نزلت يهود بنى قريظة على حكم النبى ﷺ فى السنة الخامسة للهجرة ، كان محمد بن مسلمة قائد حرس رسول الله ﷺ ، وقد تصرف فى هذه المهمة تصرف القائد الحكيم المطلق اليد ، وأقره النبى ﷺ على تصرفه .

وشهد محمد بن مسلمة حرب المسلمين مع اليهود فى خيبر فى السنة السابعة للهجرة فابلى فيها بلاء حسناً ، واستشهد فى تلك المعركة اخوه محمود بن مسلمة ، فحاول أن يثأر لأخيه من بطل اليهود (مرحب) وأثخن فيه اثخاناً كوفىء عليه بأخذ سلبه بعد قتله ، ثم كان ثأره لأخيه بقتله كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وصار يقال بعد ذلك لمحمد بن مسلمة (فارس رسول الله) .

★ ★ ★

سعيد بن المسيب

شريف من أشراف بنى مخزوم من قريش رهط خالد بن الوليد ، وأم سَلَمَة زوج النبى ﷺ ، وأبى جهل عمرو بن هاشم بن المغيرة .

ولد فى المدينة المنورة فى السنة الثانية لخلافة عمر بن الخطاب ، وكان أبوه وجده من أصحاب رسول الله ﷺ ، أسلما عام فتح مكة . وهو : سعيد بن المسيب بن حزْن بن أبى وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى .

كان مثال النباهة والاستقامة فى طفولته . لزم مجالس امير المؤمنين عمر وهو صغير وسمع منه ومن عثمان وعلى وسعد بن ابى وقاص وابن عباس وابن عمر وكثير من الصحابة . وهو الحجة فى الاحاديث التى رواها أبو هريرة عن النبى ﷺ ، لان سعيد بن المسيب كان صهره زوج ابنته .

عاش حريصا على فهم أحكام القرآن وتبين مقاصده ، كما كان يفهمها الصحابة . وعلى تلقى أحاديث الرسول وسماعها من أفواه الذين سمعوها من النبى عليه السلام ، حتى انه كان يسافر الايام والليالى ليسمع حديثا واحدا من فم صحابى لا يحفظ غيرُه ذلك الحديث ، وبذلك صار رأس أهل المدينة المقدَّم عليهم فى الفتوى وعلوم الشريعة . ويعد من تلاميذه أمثال عطاء بن رباح ، ومحمد الباقر بن على زين العابدين ، وعمرو بن دينار ، وابن شهاب الزهرى .

جاء رجل الى عبدالله بن عمر بن الخطاب ليسأله مسألة ، فقال له عبدالله بن عمر : ائت ذاك (وأشار الى سعيد بن المسيب) فاسأله ثم ارجع الى فأخبرنى : ففعل الرجل وأخبره فقال عبدالله بن عمر لمن حوله : ألم أخبركم أنه أحد العلماء ؟ وقال فيه عبدالله بن عمر ايضا : لو رأى هذا رسول الله ﷺ لسرَّه .

وسعيد بن المسيب أحد الفقهاء السبعة فى عصر التابعين وهم : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعبيدالله بن عتبة بن مسعود ، وخارجة بن زيد بن ثابت الانصارى ، وسليمان بن يسار الهلالى ، وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب .

ووافقت خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٧٦ هـ) زمن النضوج من حياة سعيد بن المسيب، وكانت شهرة سعيد فى العلم والتقوى قد ملأت أرجاء العالم الاسلامى ، وكان عبد الملك لا يرى نفسه أقل فقها من سعيد فى علوم الشريعة ولا أقل حرصا منه ومن أمثاله فى اقامة أحكامها واعزاز كلمة الله وتوسيع دائرة الفتوح . وجميع المشتغلين يومئذ بعلوم الشريعة كانوا يعلمون ان عبد الملك كان قبل ولايته الخلافة من رؤوسهم النابهين ، الا ان أهل الصلابة فى العلم والفقه كانوا يؤاخذون أمثال عبد الملك بن مروان بأنهم وان تمسكوا بالشريعة فى كل الاحوال وأقاموا أحكامها كما يجب الا انهم تساهلوا فى الأمور التى تتصل بالملك والسياسة ، وكان يجب عليهم أن لا يتساهلوا فى ذلك اقتداء بسيرة الأربعة الراشدين . وأمثال عبد الملك كانوا يرون ان ما كان عليه الخلفاء الراشدون انما هو حالة فوق مستوى البشر . وان من يلى الملك بعدهم اما ان يتساهل من الناحية التى تتصل بالملك والسياسة فقط أو أن يعم تساهله جميع النواحى ، فهم يرون أنفسهم من أهل الخير والصلاح لانهم لم يتساهلوا الا من الناحية السياسية ، فاذا أمنوا على ملكهم ولم ينازعوهم فيه فانهم مستقيمون على طريق الشرع فى جميع الاحوال الاخرى .

فهذه النقطة كانت موضع الخلاف بين أمثال عبد الملك بن مروان وأمثال سعيد بن المسيب . سعيد يريد أن يكون أئمة المسلمين من الخلفاء المعاصرين كالخلفاء الراشدين ، وعبد الملك يريد أن يكتفى الناس منه بالاستقامة على الشرع فى كل شيء بشرط أن يتسامحوا معه فيما يتخذه من الوسائل لاستبقاء الملك وتسييره فى اسرته وبنيه .

وأراد عبد الملك أن يرفع من قدر كبير أولاده (الوليد) فعقد له البيعة بولاية العهد بعده ثم لأخيه سليمان ، وخطب للوليد بنت سعيد بن المسيب لما بلغه من علمها وفضلها وجمالها مضافا الى ذلك نسبها فى قريش. وكان سعيد يومئذ فى وطنه مدينة الرسول ، وعبد الملك فى عاصمة ملكه دمشق . وكان أمير المدينة لعبد الملك صهرا له من وجهاء بنى مخزوم وهو هشام بن اسماعيل بن هشام (أخى خالد) بن الوليد ، وهشام بن اسماعيل خال هشام بن عبد الملك ، وباسمه سمى هشام بن عبد الملك ، فاجتمع هشام بن اسماعيل المخزومى أمير المدينة بابن عمه سعيد بن المسيب المخزومى فقيهها وقال له : ان أمير المؤمنين عبد الملك عقد البيعة بعده لابنيه الوليد وسليمان ، وقد بايعهما على ذلك وجوه أهل الحل والعقد فى جميع الامصار ، وأراد أن يزيد ابنه الوليد تكريما فخطب له ابنتك ليجعله صهرك . فكان جواب سعيد بن المسيب على ذلك ان رفض قبول الوليد بن عبد الملك صهرا له ، وأبى أن يشترك فى البيعة بولاية العهد . وقد حاول هشام بن اسماعيل أمير المدينة أن يتلافى هذا الموقف بكل وجوه الحكمة ففشل . من ذلك انه وسَّط بينه وبين سعيد طائفة من كبار أصحاب سعيد وفيهم من هم بمنزلته فى العلم والصلاح مثل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبدالله بن عمر (وهؤلاء الثلاثة من الفقهاء السبعة) وعرضوا على سعيد بن المسيب أن يقرأ عليه أمير المدينة كتاب أمير المؤمنين بولاية العهد لابنيه وأن يسكت سعيد فلا يقول لا أو نعم ، أو أن يجلس فى بيته يوم البيعة العامة فلا يشترك فيها ، أو أن يغير مجلسه المعتاد فيكتفى الامير بأن يرسل من يبحث عنه فى مجلسه

المعتاد فلا يجده فيه . فأبى أن يجيب الى شيء من ذلك وجلس فى مجلسه المعتاد ودعى للبيعة فرفض فعوقب بالجلد . وأبى أن يصاهر ولى العهد .

وكان له عطاء سنوى من بيت المال مثل الذى يعطى لمن هم فى طبقته من أبناء الصحابة ، ولم يكن يتناوله قط ، ويعيش من تجارة له فى الزيت يستعمل فيها نقودا له تبلغ أربعمائة دينار .

وعُرض عليه مرة عطاء من بيت المال يبلغ نيفا وثلاثين الفا فقال : لا حاجة لى فيها .

وقال تلميذه أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب فى مسجد المدينة ، فافتقدنى أياما ثم جئته فقال لى : أين كنت ؟

قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها .

فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟

قال أبو وداعة : ثم أردت أن أقوم فقالى لى :

– هل أحدثت امرأة غيرها ؟

فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجنى ؟ وما أملك الا درهمين أو ثلاثة !

فقال : ان أنا فعلت تفعل ؟

قلت : نعم .

فحمد الله ، وصلى على رسوله ﷺ ، وزوَّجنى بنته على درهمين (أو قال ثلاثة) . قال أبو وداعة : فقمت وما أدرى ما اصنع من الفرح ، فصرت الى منزلى ، وجعلت أتفكر ممن آخذ أو استدين ، وصليت المغرب وكنت صائما ، فقدمت عشاى لأفطر (وكان خبزا وزيتا) فاذا بالباب يقرع فقلت : من هذا ؟

قال : سعيد !

ففكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب فانه لم يُرَ منذ أربعين سنة الا ما بين بيته ومسجد رسول الله ، فظننت ان قد بدا له (أى ندم على تزويجى).

فقلت : يا أبا محمد ، هلا أرسلت الى فأتيتك ؟

قال : لا ، أنت أحق أن تؤتى.

قلت : فما تأمرنى ؟

قال : رأيتك رجلا عزبا قد تزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك (فاذا هى قائمة خلفه ، فى طوله).

ثم دفعها فى الباب ، وردَّ الباب ، فسقطت الفتاة من الحياء. قال أبو وداعة : فاستوثقت من الباب. ثم صعدت السطح فناديت الجيران فجاءونى وقالوا :

– ما شأنك ؟

فقلت : زوَّجنى سعيد بن المسيب اليوم ابنته ، وقد جاء بها على غفلة ، وها هى فى الدار !

فنزلوا إليها ، وبلغ أمى الخبر فجاءت وقالت :

– وجهى من وجهك حرام ان مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام.

فأقمت ثلاثا ثم دخلت بها ، فاذا هى من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج.

قال أبو وداعة : فمكث سعيد شهرا لا يأتينى ولا آتيه. ثم أتيته بعد شهر

وهو فى حلقته ، فسلمت عليه فرد علي ولم يكلمنى حتى انفض المجلس ، فلما لم يبق غيرى قال :

- ما حال ذلك الانسان ؟

قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو .

قال : ان رابك شىء فالقضاء .

فانصرفت الى منزلي .

★ ★ ★

ميمون بن أبى شبيب

قال ميمون : أردت الجمعة زمن الحجاج ، فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أذهب وأصلى خلف هذا (الحجاج) ؟ ، فقلت مرة أذهب ، وقلت مرة لا أذهب ، فأجمعت رأيى على الذهاب ، فنادانى مناد من جانب البيت : «يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله» .. فذهبت ! وجلست مرة اكتب كتابا ، فعرض لى شيء ان أنا كتبته فى كتابى وكنت قد كذبت ، وان أنا تركته كان فى كتابى بعض القبح وكنت قد صدقت ، فقلت مرة أكتبه ، وقلت مرة لا اكتبه ، فأجمعت رأيى على تركه ، فنادانى مناد من جانب البيت : «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» .. فتركته !

هذا كل ما ذكره الاصبهانى من كلام أبى نصر ميمون بن أبى شبيب ، الفقيه المحدث الشهيد ، وفيه يتكشف جانب من نفسه الطيبة ، هو الجانب المبارك الذى يتميز به السالكون لهذا الطريق المشرق الى الله ، فهم دائما حتى فى دقائق أعمالهم ، يسيرون بهذا الشعاع الهادى من قلوبهم الحية العامرة ، ويستوحون المنطقة القدسية الرائقة فى نفوسهم الكبيرة : انهم ينشدون السكينة والرضا فى كل عمل ، وفى كل حركة ، ويتقدم هذا «النشدان» فى حياتهم الروحية حتى يكون الرائد الذى يسبق حدود الفقه ويطبعها بطابعه ، وليس معنى ذلك أن يهمل أحدهم هذه الحدود أو أن يستغنى عن علمها وعن الرجوع اليها ، لا ، فأبو نصر مثلا فقيه محدث ، ولكن معنى ذلك ان فقه الفقيه منهم لم يكن حملا لأثقال من العلم يجعلها فى رأسه مبوبة مفصلة ثم يمد

يده فى كل مسألة ليبحث عن حكمها ... بل كان أمرا أكبر من ذلك ، وأعمق من ذلك ، كان فقها عن الله ... يلتقى فيه الحلال المشروع بالشعور برضاء الله ، والحرام الممنوع بالشعور بغضب الله ، والمشتبه بينهما بالورع الصادق الذى نصح به رسول الله ، وحين يكون الفقه هكذا فقها عن الله : يصبح مركزه الاصيل فى قلب الفقيه الحى وفى مشاعره الأمينة المرهفة ، وتصبح «اشارة المرور» لسالك هذا الدرب المضىء هى الاشارة التى قررها لسان النبوّة «استفت قلبك وان أفتاك الناس وأفتوك وأفتوك» !! انه مقام جليل يستوى لاصحابه بقدر استواء نفوسهم ورسوخ ما بينهم وبين الله ... ونُجهد نحن أنفسنا لبلوغه على قدر ما نطيق ، معتمدين فى كل مراحل طريقنا اليه على شريعة الله الواضحة فى السراجين الخالدين : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ !!

واذا استبان ذلك وأنست النفس اليه ، فلا بأس أن يكون مراد أبى نصر من قوله : «فنادانى مناد من جانب البيت» أنه تلقى الهاتف من نفسه المؤمنة الموصولة ببيت الله الحرام ... أليس هذا البيت هو المركز الذى اختاره الله من كل جوانب الارض ليتجه اليه العابدون ركعا سجدا ؟ أو ليس عنده يطوف الطائفون ولا يحل لهم طواف عند سواه ؟ أو ليس هو البيت الذى خصه الله — فى القرآن بالنسبة اليه : «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» ؟ أو من عجب اذاً أن ينسب أبو نصر هاتف ايمانه بالله الى جهة البيت الحرام الذى يتجه اليه ويتمثله كلما وجه وجهه لله وقال : «الله أكبر» !

★ ★ ★

وقد أسند ميمون عن على بن ابى طالب ، وعبدالله بن مسعود ، ومعاذ ، والمقداد ، وأبى ذر ، وابن عباس ، وعمار ، والمغيرة بن شعبة ، وسمرة بن جندب ، وعائشة ، رضى الله عنهم جميعا .

ومما رواه عن معاذ : «بعثني رسول الله ﷺ الى اليمن ، فلم يزل يوصيني حتى آخر ما أوصاني قال : عليك بحسن الخلق ، فان أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا» .

★ ★ ★

ومما رواه كذلك عن معاذ : «خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فرأيت منه خلوة فاغتنمتها ، فأوضعت بعيرى نحوه حتى سايرته ، فقلت يا رسول الله : علمنى عملا يدخلنى الجنة ! قال : «قد سألت عظيما وانه ليسير على من يسره الله : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان» ، ثم سار وسرت ، فقال : «وان شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جُنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل» ثم قرأ «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» ثم سار وسرت ، ثم قال : «ألا أنبئتك برأس الامر كله وعموده وذروة سنامه : الجهاد فى سبيل الله ، ثم سار وسرت فقال : «ان شئت أنبأتك بما هو أملك على الناس من ذلك كله !» فكانت منه سكتة ، وكانت منى التفاته ، فرأيت راكبا يوضع نحوه ، فخشيت أن يأتيه فيشغله عنى ، فأومأ الى لسانه وفيه ، قلت : يارسول الله : وانا لنؤاخذ بما نتكلم ؟! قال : «ثكلتك أمك ياابن جبل ! ما تقول الا لك او عليك ! وهل يُكبُّ الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد ألسنتهم ؟!» .

ومما رواه عن المقداد ، قال : «جاء رجل يثنى على عامل لعثمان عند المقداد ، فحثا المقداد فى وجهه التراب وقال : «ان رسول الله ﷺ قال : «اذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب» .

★ ★ ★

ومما رواه عن عمار بن ياسر قال: «قال رسول الله ﷺ: من ضرب مملوكه ظالما أقيد منه يوم القيامة».

ومما رواه عن عائشة: «أنها كانت فى سفر، فأمرت لناس من قريش بغذاء، فمر رجل غنى ذو هيئة، فقال: ادعوه! فنزل فأكل ومضى. وجاء سائل فأمرت له بكسرة، فقالوا لها أمرتينا أن ندعو هذا الغنى وأمرت لهذا السائل بكسرة؟! فقال: ان هذا الغنى لم يجمل بنا الا ماصنعنا به، وان هذا السائل سأل فأمرت له بما ارضاه، وان رسول الله ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم».

رضى الله عن أبى نصر وأرضاه

ابن السماك

دخل ابن السماك على هارون الرشيد، فقال له الخليفة : عظنى يا ابن السماك وأوجز!

فقال ابن السماك : كفى بالقرآن واعظا يا امير المؤمنين، قال الله تعالى : «بسم الله الرحمن الرحيم. ويل للمطففين. الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون. واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين».

هذا يا امير المؤمنين وعيد لمن طفف الكيل، فما ظنك بمن اخذه كله؟

وقال له الخليفة مرة اخرى : عظنى – وقد أتى بماء ليشربه –

فقال : ياامير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟

قال : نعم.

قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟

قال : نعم.

قال : فما خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة؟!

قال : يا ابن السماك، ما احسن ما بلغنى عنك!

قال : يا امير المؤمنين ، ان لى عيوبا لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبت لى فى قلب أحد مودة ، وانى لخائف فى الكلام الفتنة ، وفى السر الغرة وانى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها ...

★ ★ ★

داوُد الطائى

روى ان عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : «حدثنى الحسن بن عيسى أنه سمع عبدالله بن المبارك يقول : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائى ؟!»

هكذا أخذ داود مكانه عند الذين عرفوه، واستبان لهم من أمره ما جعل مثل عبدالله بن المبارك يرى فيه نموذج الحياة الخيِّرة التى ترقّ بها أشواق الصالحين، بل إنك تستشف من عبارة عبدالله أن أمر «داود» كان تحليقاً فى أفق عزيز قصَّر عنه الأكثرون.

فاذا سألت : وما هو مبلغ ما امتاز به داود ؟ أجابتك روايات شتى تكاد تصوّره رحمه الله فى صورة الزاهد المبالغ فى الزهد، والمنقطع للعبادة انقطاع العاجز الهارب من تكاليف الحياة، على أنك اذا صبرت على هذه الروايات وقابلت بينها فى رفق وأناة، تكشفت لك من بينها صورة رائعة لرجل كان أقوى من سلطان بيئته وزمانه، فلا عجب وقد انقطع شأنهم عن شأنه أن تتعدد نظراتهم الى مايرون من أمره، ولا عجب وقد شغله غير ما يشغلهم أن تغلب على روايات بعضهم لغة فيها اثر الدهشة أو استرسال الخيال!

تقرأ عن صمته قصصاً لا تنتهى، منها أنه دأب على حضور مجالس أبى حنيفة وما اشتهرت به من مناقشات وأخذ وردّ، واستمر على ذلك عاماً كاملا لم يتكلم فى مجلس منها كلمة واحدة!

وتقرأ عن اعتزاله الناس طرائف ونوادر تحار فى الحكم لها أو عليها ، حين يزوره رجلان مرموقان ذوا فضل فى قومه فلا يتردد فى أن يكون استقباله لهما بهذه الكلمات الصريحة القاسية : جئتمانى مرة فلا تعاودا !

وتقرأ عن زهده أشياء وأشياء فيتردد من بعضها فى صدرك شك فى الراوى أو قلق فى التجاوب مع هذا الإغراب فى الحرمان مما أحل الله من الطيبات ! يروون انه ورث عن أمه أربعمائه درهم ، فمكث يتقوّتها ثلاثين عاماً ، فلما نفدت جعل ينقض سقوف الدويرة فيبيعها حتى باع الخشب والبوارى واللبن ، حتى بقى نصف سقف ، وباب مربوع قصير لو ان غلاماً وثب من فوقه لصار فى صحن الدار ، فجاء صديق له فقال : يا أبا سليمان لو أعطيتنى هذه فبعتها لك ، لعلنا نستفضل لك فيها شيئا تنتفع به ، فما زال به حتى دفعها اليه ، ثم فكر فى الامر فلقيه بعد صلاة العشاء الآخرة فقال : ارددها علىّ ، قال : ولمَ ياأخى ! قال : أخاف أن يدخل فيها شىء غير طيب فآخذها ! – ثم ذهب فجاءه بعض أصحابه يقولون : أنت فى دار وحشة ، فلو اتخذت لبيتك هذا باباً ... أما تستوحش ؟ فأجابهم : حالت وحشة القبر بينى وبين وحشة الدنيا ! –

وقالت له أمه ذات يوم : لو اشتهيت شيئاً اتخذه لك ؟ فقال : أجيدى يا أماه فانى أريد أن أدعو إخواناً لى ، فاتخذت وأجادت وأعدّت ما تعلم أنه يشتهيه ، فاذا هو آخذ مقعده عند مدخل الدار لا يمر سائل إلا ادخله ... ثم قدم لهم ما أعدته أمه له من طعام ! – وتقول له العجوز وقد آلمها أن تراه لا يكاد يطعم إلا القديد بعد أن يفتته بالماء : يا أبا سليمان أما تشتهى الخبز ؟ فيجيبها : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية !!

تقرأ عنه كل هذا وهو قليل من كثير فتحار ، ولكنك لا تلبث ان تقرأ أخباراً أخرى عن أحواله وأقواله تكشف بأضوائها الصافية اطاراً جديداً للصورة الكاملة عن داود ...

يروى عدد من أصحابه ان أول صمته واعتزاله إنما كان بعد كلمة سمعها من أبى حنيفة هزت نفسه وملكت عليه أمره ، فقد حدث أن كان يحضر مجلساً لأبى حنيفة فالتفت اليه هذا لفتة فراسة حاسمة وقل : يا أبا سليمان ، أما الأداة فقد احكمناها ! فقال داود : فأى شيء بقى ؟ قال ابو حنيفة : بقى العمل بهذا العلم يا أبا سليمان !

فاذا داود ، تنازعه نفسه الى الصمت والعزلة ، واذا هو يلفت نفسه عن المشغلة (الفنية) بالعلم الى الورع الشديد فى العمل به ، ويدخل بهذا التحول فى امتحان عسير طيلة عام كامل يقول هو عنه : فكانت المسألة تجيء وأنا اشد شهوة للجواب فيها من العطشان الى الماء فلا أجيب عليها !

ويذهب اليه حَفص بن حميد فى مسألة فيجيبه بما يكشف عن اتجاه نفسه فى تحولها الحاسم الجديد ، أليس يجمع لها آلتها ؟ فاذا أفنى العمر فى جمع الآلة فمتى يحارب ؟ إن العلم آلة العمل ، فاذا أفنى عمره فيه فمتى يعمل ؟!

ويحدّث عنه بعض أصحابه : كان دواد شديد الانقباض يعالج نفسه بالصمت ، وكان قبل ذلك كثير الكلام ، وكانت معالجته نفسه فى ترك الكلام . فأخرجته تلك المعالجة الى التفكر ، فبالتفكر ملك نفسه ، ولقد جئته يوماً فى وقت الصلاة فانتظرته حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب ، فسلك به غير طريقه ، فقلت : أين تريد ؟ فسلك بى سككاً خالية حتى خرج على المسجد ، فقلت الطريق ثمة أقرب عليك ! فقال : يا سعيد ، فرّ من الناس فرارك من السبع ، إنه ما خالط الناس أحد إلا نسى العهد ...

على ان الفِرار الذى عناه داود ليس فرار المتطير أو الناشز عن جماعة المؤمنين ، بل هو كما يقول صاحبه الأعرج : أتيت داود الطائى وكان لا يخرج من منزله حتى يقول المؤذن حى على الصلاة ، فيخرج فيصلى فاذا سلم الإمام أخذ نعله وذهب الى منزله ، فلما طال ذلك على أدركته يوماً فقلت له :

يا أبا سليمان ، على رسلك ! فوقف لى ، فقلت : أوصنى يا أبا سليمان ، فقال ، اتق الله ، وإن كان لك والدان فبرّهما - ثلاث مرات - ثم قال فى الرابعة : ويحك ، صم عن الدنيا واجعل الفطر موتك ، واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم !

ويزيد معنى هذا الفرار عنده وضوحاً فيما رواه صديقه عمر بن صدقة إذ ذهب اليه يعاتبه بعد اعتزاله وقال له : يا أبا سليمان جفوتنا ! فكان جواب داود : يا أبا محمد ، ليس مجلسكم ذاك من أمر الآخرة فى شيء . ثم قال : استغفر الله ، وقام وتركنى .

ويروى ابن السماك : كلمات داود الطائى فقلت له : لو جالست الناس . قال : إنما أصبحت بين اثنين : بين صغير لا يوقرك ، وبين كبير يحصى عليك عيوبك !!

ويقول صالح بن موسى : قال رجل لداود : أوصنى ، فقال : أصحب أهل التقوى ، فانهم أيسر أهل الدنيا مئونة عليك ، وأكثرهم لك معونة ...

هذا عن صمته واعتزاله ، أما عن زهده وتحرّزه حتى من الطيبات التى أحلها الله ، فانك تطالع حقيقة حالته النفسية من وراء ذلك فى مثل كلماته الصادقة الرقيقة التى أجاب بها بعض أقربائه اذ سأله يوماً : يا أبا سليمان ، قد عرفت الرحم بيننا فأوصنى ، فدمعت عيناه ثم قال : يا أخى : إنما الليل والنهار مراحل ، تنزل بالناس مرحلة مرحلة ، حتى تنتهى بهم الى آخر سفرهم ، فان استطعت أن تقدم فى كل يوم زاداً لما بين يديه فافعل ، فان انقطاع السفر قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك ، واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك ... انى لأقول هذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً له منى ، ثم قام !

وداود في زهده متجرد يرد حاله الى فقره لا الى فضل يرى لنفسه حقاً فيه !

يروى اسحاق بن منصور أنه دخل وصاحباً له على داود وهو جالس على التراب ، فقال اسحق لصاحبه : هذا رجل زاهد ! فيسرع داود الى الاجابة وكأنما لدغته عقرب : إنما الزاهد من قَدَرَ فترك !!!

وهو في زهادته صاحب نفس كبيرة استغرقها هيام صادق بما عند الله ، واتصلت حبالها بالمنبع الغزير من إشراقة الحق بين جنبيه ، فهو كما روى ابراهيم بن أدهم : كان داود الطائي يقول : إن للخوف تحركات تُعرف في الخائفين ، ومقامات يعرفها المحبون ، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون ، وأين أولئك ؟ ... أولئك هم الفائزون . وقال مرة لسفيان بن عيينة : اذا كنت تشرب الماء المبرّد ، وتأكل اللذيذ المطيَّب – وتمشي في الظل الظليل ، فمتى تحب الموت والقدوم على الله ؟! – فبكى سفيان .

ويذكر حماد بن خليفة ان مولاة لداود قالت له يوماً : لو طبخت لك دسماً؟ فقال لها فافعلي . فطبخت له شحماً ، ثم جاءته به ، فقال لها : ما فعل أيتام بني فلان ؟ قالت : على حالهم ، قال : اذهبي به اليهم ، فقالت له : فديتك ! ليس هنا إلا الخبز المبلول بالماء ! فأجابها : اذا أكلت هذا كان في الحشا ، واذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخوراً !!

ويعيش داود في غمرة هذا التعلق الخالص بما عند الله ، فلا يرى في زحمة الحياة ومشاكلها إلا ميزاناً واحداً توزن به أحوال الناس ، وليس أبلغ في تصوير ذلك من كلماته المليئة الحاسمة : «كل نفس تُردّ الى همتها ؛ فمهموم بخير ومهموم بشر !» .

واذا أخذته غمرة الحال الى حيث يرى الراءون أنه اشتد وبالغ ، فان في طرف ما ورد عنه ما قد يفسر كثيراً مما أخذ نفسه به : يروى سويد بن عمرو

ان بعض أصحاب داود جاءه بألفى درهم هدية مزجاة ، فلم يقبلها واعتذر عن أخذها ، فقال له : يا أبا سليمان هذا شىء جاءك الله به لم تطلبه ولم تتحرك لطلبه نفسك ! فأجاب : إنه لمن أمثل ما يأخذون ! قال : فما يمنعك منه ؟ قال : لعل تركه أن يكون أنجى ...

على ان داود فى كل ما أخذ نفسه به ، وفى بيته الذى باع أكثر حيطانه من داخل وانخلع بابه القصير من خارج ، وبقديد الخبز المغموس بالماء يكاد لا يأكل غيره أكثر أيامه ، لم يكن يعانى فى حياته معنى من الحرمان الذى يراه غيره فيه ويشفق عليه منه .... بل لعل سعادته بحاله لا تدانيها مسرات أهل الدنيا بمتاع دنياهم ... تقول أم سعيد الطائية : كان بيننا وبين داود جدار قصير ، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ ، ولربما سمعته فى جوف الليل يقول : اللهم ان همك عطّل على الهموم ، ولربما ترنم فى السحر بشىء من القرآن فأرى ان جميع نعيم الدنيا جمع فى ترنمه تلك الساعة ، وكان يكون فى الدار وحده لا يوقد طيلة الليل سراجاً !

لقد كان داود يعبّر عن حال ذاق حلاوتها حين قال : ما أخرج الله عبداً من تلك المعاصى الى عز التقوى إلا أغناه بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس !

★ ★ ★

ثم بلغ الكتاب أجله ، وآذنت رحلة داود فى هذه الحياة الدنيا بنهاية ، وأطلق داود نفسه المبارك الأخير ليبدأ سفرته الكبرى التى أعد لها واشتاق اليها ، وعلم الناس بموته فماتت فيهم شوارد العجب والعتب والنقد والغفلة عن فضل الراحل الصالح ! وتدافعوا الى جنازته حشوداً خاشعة النفس أمام الحقيقة الحية فى جثمان الميت الذى كان يأكل القديد ... حتى ليقول يونس

ابن عروة : زحموني في جنازة داود الطائي حتى قطعوا نعلي فذهبت ، وسلُّوا ردائي عن منكبي فذهب !

ودفن داود .... ثم قام ابن السماك على قبره بعد ان أهيل عليه التراب يقول : «يا أيها الناس ، إن أهل الدنيا تعجلوا غموم القلب وهموم النفس وتعب الأبدان مع شدة الحساب ، فالرغبة متعبة لأهلها في الدنيا والآخرة ، والزهادة راحة لأهلها في الدنيا والآخرة ، وإن داود نظر بقلبه الى ما بين يديه ، فأعشى بصر قلبه بصر العيون ، فكأنه لم يبصر ما اليه تنظرون ، وكأنكم لا تبصرون ما اليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يتعجب ، فلما نظر اليكم راغبين مغرورين ، وقد ذهبت على الدنيا عقولكم ، وماتت من حبها قلوبكم ، وعشقتها أنفسكم ، وامتدت اليها أبصاركم ، استوحش الزاهد منكم ، فكنت اذا نظرت اليه عرفت أنه من أهل الدنيا مستوحش ، وذلك أنه كان حياً وسط موتى !!

يا دواد ما أعجب شأنك ! وقد يزيد في العجب أنك من أهل زمانك ألزمت نفسك الصمت حتى قوّمتها على العدل ، أهنتها وانما تريد كرامتها ، وأذللتها وانما تريد إعزازها ، واتعبتها وانما تريد راحتها ، وأجعتها وانما تريد شبعها ، وأظمأتها وانما تريد ريَّها ، وخشّنت الملبس وانما تريد لينه ، وخشنت المطعم وانما تريد طيبه ، ورغبت بنفسك عن الدنيا فلم تر لها قدراً ولا خطراً ، الى الآخرة وما فيها ، فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت . وكان سيماك في عملك وسرك ، ولم تكن سيماؤك في وجهك ولا إظهارك ، فقهت في دينك ثم تركت الناس يفتون ويُفقهون ، وسمعت الاحاديث ثم تركت الناس يتحدثون ويروون ، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون ، لا تحسد الأخيار ولا تعيب الاشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الأمراء هدية ، ولا تدنيك المطامع ، ولا ترغب الى الناس في الصنائع ، آنس ما تكون اذا كنت بالله خالياً ، وأوحش ما تكون اذا كنت مع الناس جالساً ، فأوحش ما تكون

آنس ما يكون الناس ، وآنس ما تكون أوحش ما يكون الناس ، جاوزت حد المسافرين فى أسفارهم ، وجاوزت حد المسجونين فى سجونهم ، فأما المسافرون فيحملون من الطعام والحلوى ما يأكلون ، وأما المسجون فيكون مع الناس محبوساً بهم ، وأما أنت فسجنت نفسك فى بيتك وحدك فلا محدث ولا جليس ، فلا أدرى أى الأمرين أشد عليك ؟ الخلوة فى بيتك تمر بها الشهور والسنون ؟ أم تركك المطاعم والمشارب لا تأكل منها ولا تريح الى شىء يريح ، لا ستر على بابك ، ولا فراش تحتك ، ولا قُلة يبرد فيها ماؤك ، ولا قصعة فيها غذاؤك وعشاؤك ، وكل أمرك يا داود عجب ؟ أما كنت تشتهى من الماء بارده ، ولا من الطعام طيبه ، ولا من اللباس لينه ؟ بلى ، ولكنك زهدت فيه لما بين يديك مما دُعيت اليه ، ورغبت فيه ، فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت ، وما أيسر ما فعلت فى جنب ما أملت وطلبت ، عزلت الشهوة عنك فى حياتك لكيلا يدخلك عجبها ، ولا تلحقك فتنتها ، فلما مت شهرك ربك بموتك وألبسك رداء عملك ، ولم تنتثر ما عملت فى سرك أظهر الله اليوم ذلك وأكثر نفعك ، فلو رأيت اليوم كثرة تبعك عرفت ان ربك أكرمك وشرفك ، إن ربك لا يضيع مطيعاً ، ولا ينسى صنيعاً ، يشكر لخلقه ما صنعوا فيما أنعم عليهم أكثر من شكرهم إياه ، فسبحانه شاكراً مجازياً مثيباً» .

فلما فرغ ابن السماك من كلامه ، والناس يبكون ، قام ابو بكر النهشلى فحمد الله ثم قال : «يا رب ، إن الناس قد قالوا ما عندهم وهو مبلغ ما علموا ، اللهم فاغفر له برحمتك ، ولا تكله الى عمله» .

فطابت نفوس الناس بما قاله أبو بكر كما اعتصرها وأبكاها حديث ابن السماك .

رضى الله عن داود الطائى وأرضاه فى الجنة .

أيوب السختيانى

«أيوب سيد شباب اهل البصرة»

الحسن

الناس فى مكة يوم الحج الأكبر ، تتوارد وفودهم من كل فج عميق ، ويموج موجهم طائفين محرمين ، وساعين ملبين . والحج صفاء للروح وسكن للنفس فى كل زمان ولكل جيل ، فكيف به فى الصدر الاول إذ يزدان بالتابعين الذين رأوا من رأى عياناً حبيب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ؟ ! ......

وفى الحجيج عبيد الله بن عمر يسير مع أيوب بن سليمان بن بلال يسأل الوفود عن بلادهم ، ويطيل الوقوف عند اهل العراق ، ثم يتابع سيره يتصفح وجوه الناس ، ويبدو عبيد الله لابن سليمان كأنه فى ذهول فيسأله :

– أراك تتحرى لقاء العراقيين فى الموسم ؟

– والله ما أفرح فى سنتى إلا أيام الموسم . القى اقواماً قد نور الله قلوبهم بالايمان ، فاذا رايتهم ارتاح قلبى ، منهم السختيانى أيوب بن كيسان ....

كذا كان موسم الحج عندهم – على ما فيه من طاعة وعبادة – فرصة للقاء الاحبة ؛ يحول الحول يتربصون ايامه المعلومات ، فإذا جاءت لاقوا فيه على الشوق احبابهم فى الله ، أو من يحمل لهم سلام احبابهم ، فينعمون بلذة تنعش الفؤاد ، ونشوة تمس جوهر الروح ، كأنها نفحة من نعيم الجنة حيث اللقاء ليس بعده فراق «اخواناً على سرر متقابلين ......» .

لقد كان أيوب السختيانى فى العارفين بمنزلة لا يستغرب مع مثلها ان

يمشى عبيد الله بن عمر بين وفود الحجيج يتصفح وجوه الناس ، ويسأل عن العراقيين ، قاصداً احباباً له فى الله ، منهم أيوب سيد الفتيان .....

كان ، رضى الله عنه ، دائم البشر طلق المحيا ، حتى قال حماد بن زيد : ما رأيت رجلاً قط أشد تبسماً فى وجوه الرجال من أيوب ؛ وكان نظيفاً حسن البزة ، له شعر وافر ، وشارب وافر ، وقميص هروى يَسِمُ الأرض ، وقلنسوة جيدة وطيلسان كردى ورداء عدنى . عاد مرة من حجة فخرج الى الجمعة وعليه كمة افواق (من قطن) فقيل له فيها فقال : قدمت ولم يكن عندى غيرها ، فلم ار بأساً بها ، وكرهت ان ادعها لأعين الناس ! .....

وكان زاهداً ذا رأى فى الزهد يدل على حسنّ مرهف وذوق سليم . الزهد فى حلال الله عنده أحسن الزهد ، وكان يقول : ليتق الله عز وجل رجل وإن زهد فلا يجعلن زهده عذاباً على الناس ، فلأن يخفى الرجل زهده خير من ان يعلنه ! .... صدق أيوب ، فالزاهد الحق ازهد الخلق فى حمل شارات الزهد على مرأى من الناس : ثياب فى منتهى الخشونة او غاية فى البلى ، ورغبة عما أخل الله من الطيبات .....

فاذا عدا بعضهم ذلك الى التنطع فهجر النظافة زجره رضى الله عنه قائلاً : لا اعلم القذر من الدين !!

وإذا اهمل امر عياله قال : لو احتاج اهلى الى دستجة بقل لبدأت بها قبلكم ! واذا قعد بعضهم عن السعى عنّفه : الزم السوق فان الغنى من العافية ، وإنك لا تزال كريماً على اخوانك ما لم تحتج إليهم .....

واذ اعتزل احدهم الناس قال له : إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره .... جالس الناس !

أما نفس أيوب السختيانى المشرقة ، وفقهه العميق فتجد ملامحهما من خلال كلامه : «لا يستوى العبد حتى يكون فيه خصلتان اليأس مما فى أيدى الناس ، والتغافل عما يكون منهم» .

«لا خبيث اخبث من قارىء فاجر .

وفى قوله حين سئل مرة عن أمر : «لم يبلغنى فيه شىء» فقيل له : قل فيه برايك . فقال : «لا يبلغه رأيى» .

وقد اسند فى حديث رسول الله ﷺ عن انس بن مالك وعمر بن سلمة الجرمى رضى الله عنهما ، ومن قدماء التابعين اسند عن ابى عثمان النهدى وابى رجاء العطاردى وابى العالية والحسن وابن سيرين وابى قلابة .

روى ايوب عن محمد بن سيرين عن ابى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ما عرض له أمران الا كان احبهما اليه ايسرهما .»

وعن عكرمة عن ابن عباس ان النبى ﷺ : «لو كنت متخذاً خليلاً لا تخذت ابا بكر خليلاً .»

☆☆☆

وفى أصيل يوم رائق من ايام البصرة ، تنادى اصحاب ايوب السختيانى ، وقد هاج بهم الحنين ، ودعاهم الشوق ، وكان أيوب قد توفاه الله ، فذهبوا الى دار حماد بن زيد ، وكان الزمهم صحبة لايوب واعرفهم باخباره واحواله ، ليتمتعوا بالحديث عنه ، ويحيوا سويعة فى ذكراه .

ودخل الصحب فاذا عند حماد آخرون قد جاءوا لمثل ما جاءوا له ، منهم عارم ابو النعمان ، وسليمان بن حرب ، وحامد بن خداش ، وشعبة ، وابو بكر بن المفضل ، وايوب بن سلام ، وغيرهم .... فلما استوى بهم المجلس قال احدهم : رحم الله أيوب ، فقد افتقدنا فيه عزيزاً غالباً ، وانى لاشعر لموته بمثل ما كان يقول : انه ليبلغنى موت الرجل من اهل السنّة فكانما يسقط عضو من اعضائى !

وقال آخر : طيب الله ثراه ، لقد كان نقى الزهد انيساً دائم البشر ، هلا حدثتنا عنه ياحمّاد ؟

فقال حماد : صدق والله عبد الله بن بشر ، ان الرجل ربما جلس الى ايوب السختيانى فيكون لما يرى منه اشد اتباعاً منه لو سمع حديثه .

فقال شعبة : هو الله كما قال ابن بشر ، وربما ذهبت مع أيوب اريد ان امشى معه فلا يدعنى فيخرج فيأخذ ههنا وههنا لكى لا يفطن له وهو يقول : ذَكرت وما احب ان اذُكر .

وقال ابو بكر بن المفضل : يؤيد هذا ما سمعته منه : «والله ما صدق عبد إلا سرّه ألاّ يشعر بمكانه .» .

فعاد حماد يقول : رأيته وقد غلب عليه البكاء يوماً فجمع يديه الى وجهه وقال «الزكمة ربما عرضت» يستر بكاءه متعللاً بالزكام !

وقال ابن سلام : قد كان يقوم الليل كله فيخفى ذلك ، فاذا كان عند الصبح رفع صوته كانه قام تلك الساعة .

واخذ احد الجالسين القلة فشرب ووضعها وحمد الله تعالى ثم قال : سمعت ايوب يقول : انما يحمد الناس على عافية الله اياهم وستره ، وما يبلغ عملنا كله جزاء شربة ماء باردة شربها احدنا وهو عطشان ، فكيف بالنعم بعد ؟ !

وبعد صمت قليل تمكنت فيه من قلوب الحاضرين نشوة الذكرى ، قال شعبة : من أجمل شمائله انى ما وعدته موعداً الا وجدته قد سبقنى اليه .

فقل حماد : شمائله الحلوة اكثر من ان تعد ..... كان اذا قدم من مكة امر بجرادق فخبزت وطبخ لحماً سكباجاً فكان كل من جاء يسلم عليه وضع بين يديه واكل معه .... وانى ما رأيته ينصرف من السوق الامعه شىء يحمله لعياله حتى رأيت قارورة الدهن بيده يحملها .... واطرق حماد برهة ثم قال . الا أخبركم عن اشد ما كان يعروه من ذكر ؟ .... لقد رايته يضع يده على رأسه ويقول «الحمد لله الذى عافانا من الشرك ، ليس بينى وبينه الا ابو تمية» (يعنى

أباه) .... ان ذلك اثر واضح فى نفسه للحديث الذى رواه ايوب نفسه عن عكرمة عن ابن عباس ان النبى ﷺ : «لا تفخروا بآبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية ، فوالذى نفسى بيده لما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية !» .....

ثم شخص حماد ببصره كمن يحاول ببصيرته الانطلاق من حدود الدنيا ، فقال : اللهم ارحم ايوب رحمتك الواسعة ، واجزه عنا خيرا الجزاء . لقد كان مجلسنا هذا فى ذكراه غسولاً لقلوبنا وطهورا لأرواحنا .... ثم التفت الى جلاسه فقال : ايها الاحباب ، هلمَّ فلندع بمثل ما كان يدعو به ايوب : «اللهم انا نسألك الايمان وحقائقه ووثائقه ، وكريم ما مننت به علينا من الاعمال التى ينال بها منك حسن الثواب ، واجعلنا ممن يتقيك ويخافك ويرجوك ويستحييك . اللهم استرنا بالعافية !» .

فقال الحاضرون كلهم فى خشوع : اللهم آمين .

رضى الله عن ايوب وارضاه فى الصالحين !

عبد الرحمن بن ابى ليلى

نشأ عبد الرحمن فى خلافة أبى بكر ، وأكرمه الله بصحبة صفوة من الابرار ، تقلب فيهم بين أشعة هادية باقية من نور النبوة ، وأسند عن عدد منهم فى ورع وأمانة ..... منهم عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلى ، وسعد بن ابى وقاص ، وبلال ، وحذيفة ، وأبو ذر ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأُبى بن كعب ، وكعب بن عجرة ، والبراء بن عازب ، وأبو الدرداء ، وأ بو أيوب ، وأبوه ابو ليلى ، وزيد بن ارقم ، وثوبان ، وسمرة بن جندب ، وأبو حجيفة !

كان صدّاعا بالحق لا يهاب فيه احدا ..... دخل على الحجاج ، فقال الحجاج : اذا أردتم رجلا يشتم عثمان بن عفان فها هو ذا ! فقال عبد الرحمن : انه يمنعنى من ذلك آيات فى كتاب الله ثلاث . قال الله عز وجل «للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون» فكان عثمان منهم ، «الذين تبوءا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» فكان منهم ، «الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم» فكان منهم ! - فقال الحجاج : صدقت .

وكان فى صدعه بالحق لا يحقر احدا ..... لما ولى القضاء وتسامع بذلك الناس اصطفوا لينظروا اليه ، فقام مجنون من مجانين أهل الكوفة يصيح .

«انظروا الى من جمع الله له سرور الدنيا بخزى الآخرة» فهزه ذلك وزلزل كيانه، وقال: «لو قد سمعتها قبل ان ألى ما وليت لهم شيئا».

وصفت نفسه حتى لم يعد تجاوبه مع الناس الا بمقدار ما يبدو من صدقهم مع الله ..... وفى ذلك روى عنه ثابت البنانى قوله: «طفت على هذه الامصار فلم ار مصرا أبكر على ذكر الله، ولا اكثر تهجدا فى الليل من اهل البصرة»! وانها لشهادة اية شهادة فى اهل البصرة، وانها كذلك تنكرة عارضة تلفت النفس الى هذا النوع المشرق من سياسة الحكم – وقد كان عبد الرحمن حاكما وقاضيا – وكيف ينبع رقراقا من نفس الحاكم الموصولة بالله.

ومن رقائقه القرآنية التى تتحدث بنفسها عن عذوبة روحه ورهف صلته بآيات الكتاب، ما رواه عنه عمرو بن مرة فى قول الله: «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد» قال· ما على احدكم اذا خلا ان يقول: اكتب رحمك الله، فيماترى خيرا!

☆☆☆

ومما أسنده عن على بن ابى طالب قوله كرم الله وجهه:

«ان فاطمة رضى الله عنها اشتكت ما تلقى من أثر الرحى فى يدها، فأتى النبى ﷺ بسبى فانطلقت فلم تجده، ولقيت عائشة رضى الله عنها فأخبرتها، فلما جاء النبى ﷺ اخبرته عائشة بمجىء فاطمة اليها، فجاء النبى، وقد اخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم فقال· «مكانكما» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى، فقال. «ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى، اذا اخذتما مضاجعكما ان تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحا له ثلاثا وثلاثين، وتحمداه ثلاثا وثلاثين، فهى خير لكما من خادم» قال على: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ، فقالوا له· ولا ليلة صفين؟ قال ولا ليلة صفين»!

ان هذا الحديث – المتفق عليه – جدير بتأكيد كثير! إنه شهادة للنبوة التى

تسامت فى صفائها على عاطفة الابوة حتى فى بر البنية الحبيبة بما احل الله من راحة الحياة الدنيا بعد ان اثرت الرحى القاسية فى يدها الناعمة .... تساميا الى الافق الارحب الذى تحلق فيه النبوة ، وتستمد من غمراته المرسلة طاقات تعين اليد الناعمة على الرحى القاسية ، ومن اولى من بنت النبى وزوجها من نشدان هذا العون فى التكبير والتسبيح والحمد !

☆☆☆

ومما رواه عن كعب بن عجرة ، قال :

(جلسنا يوما امام بيوت رسول الله ﷺ فى المسجد ، فى رهط منا معشر الانصار ورهط من المهاجرين ورهط من بنى هاشم ، فاختصمنا فى رسول الله ﷺ : أينا اولى به وأحب اليه . قلنا : نحن معاشر الانصار آمنا به واتبعناه وقاتلنا معه وكنا كتيبته فى نحر عدوه ، فنحن اولى برسول الله ﷺ واحب اليه . وقال اخواننا المهاجرون : نحن الذين هاجرنا الى الله ورسوله وفارقنا العشائر والاهلين والاموال قد حضرنا ما حضرتم وشهدنا ما شهدتم فنحن اولى برسول الله واحب اليه . فخرج علينا رسول الله ﷺ فأقبل علينا ، فقال : «انكم لتقولون شيئا !» فقلنا مثل مقالتنا ، فقال للانصار : «صدقتم ، من يرد هذا عليكم ؟!» وأخبرناه بما قال اخواننا المهاجرون ، فقال : «صدقوا وبروا ، من يرد هذا عليهم ؟!» واخبرناه بما قال بنو هاشم ، فقال : «صدقوا وبروا ، من يرد هذا عليهم ؟!» ثم قال : «ألا أقضى بينكم ؟» قلنا : بلى بأبينا أنت وأمنا يارسول الله فقال : «أما أنتم معشر الانصار فانما انا أخوكم !» فقالوا : الله أكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ، «وأما انتم معشر المهاجرين ، فانما انا منكم !» فقالوا الله اكبر ، ذهبنا به ورب الكعبة ! «وأما أنتم بنى هاشم فأنتم منى والى !» .... فقمنا وكلنا راض مغتبط برسول الله ﷺ)

رضى الله عن عبد الرحمن بن ابى ليلى ، وأرضاه فى الجنه !

عون بن عبد الله بن عتبة

هل هو من الزاهدين ، فالزهد مفتاح شخصيته ؟

أو هو من العابدين ....

أو هل خص بنفحة من فقه ، فهو يقيم بها عمله ، وعبادته ، وزهده ، ويستخرج بها من دقائق القرآن ما لا يلتفت اليه سواه ؟

لقد تعددت نواحى الجمال فى حياة عون بن عبد الله بن عتبه . فهو زاهد ، ولكن ليس فيه عزلة الزهاد .

وفقيه ولكن من طراز رقيق رفيق .

وتواب ولكن من غير خطيئة .

وطروب ولكن فى غير رفث .

وإجتماعى ولكن فى غير غفلة .

ومثالى ولكن لا يحلِّق فى الخيال .

وواقعى ولكن فى جانب الحق وكريم الفعال .

ولا يطول بك البحث عن مفتاح شخصيته ، أو عن الصفة الغالبة التى كست جوانبه كلها بسناها ، وغذتها برحيقها فغدت حية وضيئة ، سخية .

كان شديد الذكر لله تعالى ، أو قل كان دائم الذكر له سبحانه ...

وانقضاء حياتها على هذه الأرض ، بل هو الهلاك الروحى الذى يحل بالمرء حين يُحجب عن سر ما فى الكون من رحمة وبركة ونعيم ، وتنقطع به الشقوة الى ظلام الآبالسة وجحيم الاكتفاء بلذائذ الحس المادى المحض .....

وقرأنا فى بعض احاديث رسول الله ﷺ أن ذاكر الله فى الغافلين ، كالعود الأخضر فى الهشيم ، وتفسيره واضح على ما قدمنا .... والذاكر فوق هذا قد يعود على من حوله من الغافلين بشىء من الخير الذى حجبوا عنه ، ويدفع عنهم : «ذاكر الله فى الغافلين ، كالمقاتل بين الفارين ، والغافل فى الذاكرين كالفار فى المقاتلين» .....

ويصفو طبعه ، ويرق حجابه ، وتشف الكائنات أمام بصيرته ، حتى يبدو الجماد له حقيقةً حية ، تسمع ، وتبصر وتتكلم .... تسمع ما حولها من خير وشر ؛ وتبصر ما هنالك من حق وباطل ؛ وتردد أثر ما ترى وما تسمع كلاما يسرى فى ضمير الوجود دون ان تسمعه أذن احد من البشر .... يقول عون فى هذا : إن الجبل لينادى الجبل باسمه : يافلان ، هل مر بك اليوم ذاكر الله عز وجل ؟ فيقول : نعم ..... فيستبشر به ...

والقرآن الكريم ، وهو جامع الحقائق الدقيقة التى تحيط بنا ، قد قرر للجماد هذا الذى نذكره ويذكره عون بن عبد الله ، فى مثل قوله سبحانه : «تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا ، ان دعو للرحمن ولدا» فالجبال تكاد تخر هدًّا من هول ما تسمع من إفك أهل الضلال حين يقولون : اتخذ الرحمن ولدا .

ويعقب عون على كلامه السابق عن الجبال بقوله : إنهن للخير أسمع ، ويتلو قول الله تعالى : «تكاد السموات يتفطرون منه وتنشق الأرض ..... الآية» ويقول : أفيسمعن منا الزور والباطل ولا يسمعن ما هو حق ؟

فالجبل جماد فى رأى العين ، ولكنه فى رأى البصيرة الكاشفة حقيقة روحية حية ، تحس من أسرار الوجود مالا تحسه المدارك العادية ، وتتجاوب

مع حقائقه الأصيلة بما لا يدركه الغافلون ... وحين يسمو المرء فى منازل الذكر الى هذا الأفق العالى يبدو له الكون كله حقائق حية سعيدة قائمة بنور الله، شادية بذكره جل شأنه، مترنمة بقداسته، خاشعة لجلاله، فى وحدة نورانية متسقة، تنتظمها جميعاً فى قوله سبحانه: «وإن من شىء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا».

وهذا كله فضل حضور نور الله فى القلب، وهو من تفسير ما قلناه فيما مضى ان عونا رضى الله عنه كان يرى الكون بنور الله، ولا يرى نور الله عن طريق الكون. وإن هذه الرؤية، هى رؤية الحقيقة الحية والسر الخفى لا رؤية الصفحة الجامدة والمادة العجماء.

وحين يشرف عون على الكون من أفقه هذا الرفيع، لا يرى الكائنات الحسية فحسب، بل يرى الحسية والمعنوية جميعا؛ الروحية والمادية معا، واستمع الى حديثه عما يرى من نفحات الله المرسلة فى ضمير الوجود وهى سر يحمل السعادة والجمال لكل ذى بصيرة، غير متعلق بحبل او مشجب: الخير من الله كثير، ولكن لا يبصره من الناس الا اليسير .... من الله معروض، ولكن لا يبصره من الناس من لا ينظر اليه!. ولا يجده من لا يبتغيه، ولا يستوجبه من لا يعلم به ... ألم تروا الى كثرة نجوم السماء فإنه لا يهتدى بها الا العلماء؟.

وليس فى هذا الكلام غلو او مجاوزة للمعلوم من أسرار الكون؛ فإن رسول الله ﷺ يقول «ان لربكم فى ايام دهركم نفحات ... ألا فتعرضوا لها ....»

ففكر عون على هذا انما هو تعبير عن مشاهدة قلبية رأى فيها بنور الله ذلك السر عين اليقين، وهو فضل الله سبحانه يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .....

وليس الذكر عنده تحرك الشفتين بأسماء الله فحسب ، بل الذكر كل الذكر حضور هيبة الله فى القلب ، ورؤيته سبحانه فى كل شىء ، وتحرك الخاطر بسر صفاته مع كل حال دون كيف ولا تشبيه .

وله صفاء فى الطبع ، وشفافية فى المزاج ، فقام ذلك الصفاء كالمرآة المجلوة ، يستقبل من أسرار الله ما يستقبل ، ويتراءى فيه من أسباب الذكر ما يتراءى ، فكان ذكره لله ضرورة من ضرورات الطبع كما أنه أثر الرغبة فى عبادته سبحانه .

ولقد اشتد به حب الذكر وتقديره لمكانه فى الحياة حتى قال : «ان لكل رجل سيداً من عمل وإن سيد عملى الذكر» .

والله حى ، قوى ، قادر ، عزيز ، غنى ، عليم الى غير ذلك مما أثنى به على نفسه ، فإذا حلت أسرار تلك الصفات القدسية بقلب الذاكر ، فقد حل سر الحياة ، والقوة ، والقدرة ، والعزة ، والغنى ، والعلم ، وهكذا .

وكل ما حولك موجب لذكر الله .

فالشمس والقمر والكواكب والنجوم ، والشهب والجبال والبحار والشجر والدواب والأنعام والطير والرياح المسخر بين السماء والأرض ؛ بذلك ونحوه من آيات الله موجب للذكر لا محالة ، إذ لا صنعة بلا صانع ، ولا أثر بدون مؤثر ، فإذا ذكر الانسان ربه بتلك الآثار ، فهو المنطق الطبيعى والنتيجة المترتبة على ما يرى ؛ وإذا لم يذكر الصانع بآثار صنعته ، فمنطقه الفطرى معطل وقلبه غافل أو ميت .

وإذا تركت صحيفة المشاهدات والآيات الكونية الى ما يتصل بك مباشرة من طعام وشراب ولباس ونوم وصحو و ..... ألفيت كل شىء من ذلك موجباً لذكره جل شأنه اذ هو فضله سبحانه ونعمته التى أسداها اليك بلا حول منك ولا قوة . ولو تأمل الانسان بعين عقله ما أودعه الله من سننه فى كوب الماء

الفرات لحضره من المشاعر ما يهز قلبه هزاً عميقاً. ولرأى على ضوئه ما للغفلة من بلادة وجمود وآفات وأمراض.

فالناس رجلان:

رجل يرى ما لله فى السموات والأرض من آيات ونعمة، فلا يلقى بالا الى ما يرى ولا يتأثر بما بين يديه من فضل، فهو ميت، وإن عد فى عرف الحياة الظاهرة بين الاحياء؛ ميت لأنه مقطوع الصلة بسر الوجود وباطن الحياة.... ميت القلب لا ميت البدن، وفى مثل هؤلاء يقول الله سبحانه: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون».

ورجل يرى فسرعان ما يربط الصنعة بالصانع والخلق بالخالق فى منطق فطرى كامل ينظم الفكر والشعور جميعاً، ويستخرج من هذا الربط ما شاء له الله من عبرة وحكمة وحياة. أولئك هم أولو الألباب، وأولئك هم الأحياء وقليل ما هم.

ذلك هو معنى الذكر الذى كان يحيى فى قلب عون بن عتبة، ويحيا عون بن عتبة فيه، حتى رأى ان الذكر هو الحياة، والحياة هى الذكر فقال: «لو يأتى على الناس ساعة لا يذكر فيها الله عز وجل لهلك من فى الأرض جميعاً».

والذكر عدة المرء فى الحياة وهو عزيمته وصلاحه، ولا طاقة بالحياة وأهوالها لمن عاش فى ظلمة نفسه وغفلة قلبه. وفى ذلك يقول: «ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين؛ والغافل فى الذاكرين، كالفار فى المقاتلين».

ويستفيض به هذا اليقين حتى يرى فى الذكر بشرى وحياة للجماد لا للأحياء فحسب، وما أحسن ما يستخرج ذلك من كلام الله عز وجل، فيقول:

إن الجبل لينادى الجبل باسمه : يافلان ، هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فيقول : نعم ! فيستبشر به . ويستطرد عون فيقول : هن للخير أسمع ، ويتلو قول الله تعالى : «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعو للرحمن ولداً»ويعلق على هذا بقوله : «أفيسمعن منا الزور والباطل من القول ولا يسمعن ما هو حق ؟» .

وكان من ذكره لله وقوة صلته بضمير الوجود يحس ما فى الحياة من خير روحى ، ويذوق ما هنا لك من نفحات ربانية مرسلة ، يذوقها بقلبه لا بفمه ، ويحسها بجنانه لا ببنانه ، وفي ذلك يقول : «الخير من الله كثير ، ولكن لا يبصره من الناس الا اليسير وهو للناس من الله معروض ، ولكن لا يبصره من الناس من لا ينظر اليه ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يستوجبه من لا يعلم به ..... ألم تروا الى كثرة نجوم السماء فإنه لا يهتدى بها الا العلماء» .

وما أجمل ما يرى ان خير زاد المرء من هذه الدنيا هو ذكر الله وتقواه ، وأن ذلك هو نصيبه منها وحسبه من نصيب ، وما أجمل ما يذهب الى ذلك فى تفسير قوله تعالى : «ولا تنس نصيبك من الدنيا» فيقول : «إن ناساً يضعونها على غير موضعه ، إنما هى إقبال على طاعة ربك وذكره وعبادته» .

وبعد فمن هو عون هذا ؟ وما أثر ذكره فى اختيار نهجه فى الحياة ؟ إن سألت عن نسبه فهو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى .....

وعتبة بن مسعود هذا صحابى جليل ، أسلم قديماً ، وهاجر الى الحبشة ، وأقام بها دهراً حتى قدم منها على رسول الله ﷺ مع جعفر بن أبى طالب وشهد غزوة أحد وما بعدها .. وهو أخو عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه لأبويه ..... قال الزهرى : ما كان عبد الله بن مسعود بأقدم هجرة من أخيه عتبه ، ولكن عتبة مات قبله .... وقال الطبرانى : لما مات عتبة بن مسعود بكى عليه اخوه عبد الله ؛ فقيل له : أتبكى ؟ .. قال : نعم ... أخى فى النسب ، وصاحبى مع رسول الله ﷺ ، وأحب الناس الى ... ذلك هو نسب آخر غير

هذا النسب، هو نسبه الى الاسلام وصلته بالله سبحانه .... أو هو شخصيته الروحية التى لا تمت الى انساب اللحم والدم بصلة ... وقد وضع عون مفتاح تلك الشخصية بين ايدينا إذ قال : إن لكل رجل سيداً من عمله ، وإن سيد عملى ذكر الله عز وجل .

فإذا فسرت السيادة فى هذه الكلمة بأن اعمال كل رجل تتفاوت فيما بين بعضها وبعض بحسب قيمة كل منها من الفضل والاحسان، حتى ينتهى. التفاوت والتفاضل الى عمل رفيع منها ، يبدو بين سائر اخوانه كأنه القمة العليا بين ما حولها من القمم – كان معنى هذا ان احسن اعمال عون واجلها شرفاً ورفعة هو ذكر الله عز وجل ...

وإذا فسرت تلك السيادة بأن المرء قد يعتاد الواناً من أعمال البر ، فيألفها ..... ويحبها ... ويعمل بوحيها ... حتى تصير آمرة على وجدانه ، مهيمنة على سلوكه ... وقد تتفاوت تلك الالوان من حيث الهيمنة بحسب ما لكل منها من تجاوب فى النفس ، وملاءمة للطبع ، حتى ينتهى التفاوت الى استئثار لون منها بأوفر حظ من السيادة والسلطان على هوى صاحبه وإرادته – كان معنى هذا ان ذكر الله سبحانه قام من نفس عون بن عبد الله مقام الأمير او مقام السيد الآمر الذى يهيمن على كل تصرفه ومشيئته فلا يستطيع له خلافا .

وأيًا كان المعنى فإن قول عون بن عبد الله : «إن لكل رجل سيداً من عمله ، وأن سيد عملى ذكر الله عز وجل» يدل على صدق تقديره للذكر ، وقوة تمكنه من نفسه ، ودوام ملازمته له فى كل حال .

☆☆☆

ومن الذكر ما يكون بتحريك اللسان والشفتين بأسمائه الحسنى سبحانه .

ومن ما تنبعث إليه خوالج النفس كلما رأى الانسان آية من صنع ربه ، أو شبه نفحة من فواضل كرمه ؛ فكل آية وكل نعمة لها مع نفسه المرهفة حديث يذكرها الله ، كما يذكر الصانع بصنعه ، وكما يذكر صاحب الآثار الجميلة عند رؤية أثر من آثاره .

أما الذكر عند عون بن عبد الله فهو حضور نور الله فى قلبه على الدوام ،

كأنه لازمة من لوازم طبعه ، أو ضرورة أصيلة لا تستغنى عنها النفس ....
فهو يرى الأشياء بهذا النور الحاضر معه ، ولا يرى النور بهذه الأشياء ! ....
وما ابعد الفرق بين المنزلتين ! ...

ما أبعد الفرق بين قلب متنبه الى الله ، وقلب دائم التنبه اليه بدون حاجة الى واسطة ، فهو لا يذكر الصانع بصنعه ، ولا الخالق بخلقه ، ولا يذكره سبحانه بأى سبب طارئ ، لأنه حاضر فى ضميره لا يغيب ، ماثل فى سره لا يتحول !

وإذا قلنا إن عون بن عبد الله كان يرى الأشياء بهذا النور ، فليس مرادنا انه كان يرى مادتها واحجامها على النحو الذى نعهده حين يرى الانسان أشياء كانت خافية عنه ، بل نريد لونا آخر من الرؤية .

نريد ان يكون كل شئ مما نراه حولنا مؤلف من مادة ظاهرة مملوسة ، وحقيقة روحية خافية لا سبيل للحس إليها .

وسبيل رؤية المادة الظاهرة هو نور العين العادية .

وسبيل رؤية الحقيقة الباطنة هو نور الله فى قلوب الذاكرين .

فإذا نظر هذا الذاكر الصادق الى شئ ما ، ابصره بنور عينه ونور قلبه ؛ وأبصر مادته الظاهرة وحقيقته الباطنة ... وبدت له الظاهرة الى جنب الحقيقة الباطنة كالعدم الى جنب الوجود .... وكالموت الى جنب الحياة ....

ونقول كالعدم إلى جنب الوجود ، لأن الذى لا ينظر من الشئ إلا إلى مادته الظاهرة يكون فى الحقيقة قد رأى لا شئ ! . أليست الأشياء لا توجد الا اذا وهب لها الله سرا من أمره ....فهى بدون هذا السر عدم ، وهى به حقيقة ذات وجود ؟ ! فلكل شئ ، واذا لم ير الا صفحته الظاهرة ، فقد رأى صفحة العدم التى لا تهب شيئا !!

ونقول تبدو هذه المادة الظاهرة الى جنب الحقيقة الباطنة كما يبدو الموت الى جنب الحياة .... فإذا اقتصر المرء على رؤية الجانب المادى فهو يعيش بين أطلال الموت الكالح الخرب ، واذا رأى جانب الحياة ، فكل شئ حوله حى سعيد .

واذا عاش الانسان فى عالم الموت بين اطلاله الخربة ، فلسنا نعنى انه يعيش بين مقابر الموتى ، أو بين أطلال مدينة خربة مهجورة ، بل نعنى انه يعيش مكتفيا برؤية الناحية الخرساء فى الأشياء ، محجوباً عما وراء ذلك من أسرار الحياة .... !

وما قيمة الحياة التى حجب عنها ؟!

أنها ليست حياة النمو للأعضاء ولا حياة الحركات للأبدان ... بل حياة من لون لا يخطر على البال ، ولا يستطيع الذهن ان يصل الى كنه ما هى عليه .... لأنها من أمر الله الذى استأثر سبحانه بعلمه .

إنها حياة تحل فى الكائن لا ليتحرك ولا لينمو ، بل ليحل فيه الخير والبركة والرحمة والطهر والجمال والنعيم ، فالجانب الحى فيه هو هذا الجانب الميمون ، والجانب المادى المحض ليس له بذاته شىء من سر هذه الصفات ، فإذا حجب الانسان بهذا الجانب عما وراءه ، فقد حجب عن الخير ، والبركة ، والرحمة ، والطهر ، والجمال ، والنعيم ؛ ومشى بين شخوص المادة المظلمة فى عالم لا خير فيه ولا رحمة ، وماذا بعد الخير والرحمة الا الشر والجحيم ، وما الى ذلك من ألوان عذاب الله ؟!

فإن كان للذاكر نور فى بصيرته امحت ظلمات ذلك الشر من أمامه ، وأبصر الخير والجمال والرحمة تفيض من كل ما حوله ؛ وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، ومعلم او متعلم» .

وهذا النوع الرفيع من الذكر هو الذى كان يضىء فى قلب عون بن عبد الله ، وهو الذى كان يبصر به الأشياء فيرى مادتها ويرى حقائقها معا ، وبضوء هذا الذكر يقول : «اذا اتى على الناس ساعة لا يذكرون فيها الله عز وجل لهلك من فى الأرض جميعاً» . والهلاك فى هذا المقام ليس هلاك الأبدان ،

ثور بن يزيد

«كان قلب ثور بين عينيه»

«محيى بن سعيد»

تكاد لا تجد فيما ورد عن ثور خبراً عنه هو : كيف كان ، وكيف عاش ، ولكنك تقرأ له أشياء رواها ، بعضها مما قرأ ، وكان واسع القراءة ، وبعضها مما أسند إلى رسول الله ﷺ .... وكلها يعطيك صورة عن نفسه ، وعن المعانى العالية التى شغلته فيما يقرأ ، والتى اهتم بروايتها والتذكير بها ....

قال : «مكتوب فى بعض الكتب : إن سرّك أن تعلم علم اليقين فأحب كل حين ان تغلب شهوات الدنيا .... – وقرأت فى بعضها «قل للذين يتطامأون ويتجوعون للبر ، أولئك الذين يأوون الى حظيرة القدس عندى» .

وفى التوراة : «الذين يصلحون من الناس اذا تفاسدوا اولئك خصائص الله من خلقه» وفيها «ان الزناة والسراق اذا سمعوا بثواب الله للأبرار طمعوا ان يكونوا معهم بلا تعب ولا نصب ولا مشقة على ابدانهم ، ولا مخالفة لاهوائهم ، وهذا مالا يكون»

وروى عن عيسى عليه السلام : «يامعشر الحواريين كلموا الله كثيراً وكلموا الناس قليلا – قالوا وكيف نكلم الله ؟ قال : اخلوا بمناجاته ... اخلوا بدعائه .....»

وفى الانجيل : الحجر فى البنيان من غير حلّ عربون خرابه !

وروى عن بشر الشامى قوله «لكل العبادهم ، فهموم خير وهموم شر» .

وقال هو : إذا وقف السائل على الباب وقفت الرحمة معه ، قبلها من قبلها ، وردها من ردها ، ومن نظر الى مسكين نظر رحمة نظر الله اليه نظر رحمة ، ومن أطال الصلاة خفف الله عنه القيام يوم القيامة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ، ومن أكثر الدعاء قالت الملائكة : صوت معروف ، ودعاء مستجاب ، وحاجة مقضية ! .

☆☆☆

وقد أسند ثور عن خالد بن معدان ، وعن مكحول ، وعن عبد الرحمن بن جبير ، وعن يحيى بن الحارث وغيرهم – ومن الحجازيين عن سعيد بن المسيب ، وعطاء ، ونافع ، غيرهم .... ؛ وأكثرها احاديث غريبة انفرد بعض الرواة برواياتها عنه .

روى عن خالد عن ابى أمامة ان الرسول ﷺ قال : «إن لله فى الأرض آنية ، وأحب آنية الله اليه ما رق منها وصفا ، وآنية الله فى الأرض قلوب العباد الصالحين» .

وعن خالد عن أبى الدرداء أن الرسول ﷺ قال : «من سبق الى الصلاة مخافة ان تسبقه اوجب الله له الجنة ، ومن تركها مأثرة عليها لم يدركها بعمل الى الحلول» .

وعن مكحول عن شداد بن أوس عن الرسول ﷺ «قال الله عز وجل : وعزتى لا أجمع لعبدى امنين ولا خوفين ؛ إن هو امننى فى الدنيا أخفته يوم اجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا امنته يوم أجمع عبادى» .

وعن خالد عن مجاهد عن عمر بن الخطاب عن الرسول ﷺ «ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك . ابن آدم لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع .

ابن آدم : إذا أصبحت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء» .

وعن جبير بن نقير عن النواس بن سمعان عنه ﷺ «كبرت خيانة ان تحدث اخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب» .

وعن حبيب بن عبيد عم المقداد بن معد يكرب ان الرسول لله ﷺ قال : «اذا أحب احدكم اخاه فليُعلمه» .

وروى أن رجلا مدح ابن عمر رضى الله عنه فى وجهه فقال له : سمعت رسول الله يقول : «احثوا فى وجوه المداحين التراب» .... ثم أخذ ابن عمر التراب فرمى به فى وجه المادح .

وروى عن أبى المنيب ، قال : رأى ابن عمر فتى يصلى قد اطال الصلاة وأطنب فيها ، فقال : أيكم يعرف هذا ؟ فقال رجل : أنا أعرفه ، فقال : أما إنى لو عرفته لأمرته ان يكثر الركوع والسجود ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن العبد إذا قام الى الصلاة أتى بذنوبه كلها فوضعت على عاتقيه فكلما ركع او سجد تساقطت عنه» .

عمر بن ذر الهمدانى

مات ولده «ذر بن عمر» فجاءه أهل بيته يبكون، فما كان الا ان قال لهم: مالكم؟! إنا والله ما ظُلمنا ولا قهرنا، ولا ذهب لنا بحق، ولا اخطىء بنا، ولا اريد غيرنا، ومالنا على الله معتب!

وسمع اصحابه بموت ولده، فقالوا: الآن يضيع الشيخ، فقد كان ابنه باراً بوالديه أشد البر، فسمعها الشيخ فبقى متعجبا يتمم: أنا اضيع؟، حتى اذا واراه التراب وقف على قبرة يقول:

«رحمك الله يابنى! والله لقد كنت بى باراً، ولقد كنت عليك حدباً، ومابى اليك من وحشة، وما الى احد بعد الله فاقة، ولا ذهبت لنا بعز، ولا ابقيت علينا من ذل، ولقد شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك.....

«ياذر: لولا هول المطلع ومحشره لتمنيت ما صرت اليه، فليت شعرى ياذر، ما قيل لك وماذا فعلت؟!

«اللهم انك وعدتنى الثواب بالصبر على ذر اللهم فعلى ذر صلواتك ورحمتك، اللهم انى قد وهبت ما جعلت لى من أجر على ذر لذر صلة منى، فتجاوز عنه فانك أرحم به منى، اللهم وانى قد وهبت لذر اساءته الىّ فهب له اساءته اليك فانك أجود منى واكرم».

فلما ذهب لينصرف قال: ياذر، قد انصرفنا وتركناك، ولو اقمنا ما نفعناك!!

يقول عمرو بن جرير : فبقي القوم متعجبين مما ظنوا بالشيخ ، ومما رأوا من رضاه عن الله وتسليمه له .

☆☆☆

تعال معى نستمع الى عمر بن ذر :

يقول سفيان بن عيينه ، كان عمر اذا قرأ هذه الآية : «مالك يوم الدين»قال : يالك من يوم ، ما أملأ ذكرك لقلوب الصادقين !

ويروى محمد بن الحسين ، عن بعض اصحابه ، انه كان اذا نظر الى الليل قد اقبل قال : جاء الليل وللليل مهابه ، والله أحق ان يهاب ....

وسمعه عبد الرحمن بن عبيد الله ، يقول فى دعائه : أسألك اللهم خيراً يبلغنا ثواب الصابرين لديك ، وأسالك اللهم شكراً يبلغنا مزيد الشاكرين لك ، وأسألك اللهم توبة تطهرنا بها من دنس الآثام حتى نحل بها عندك محل المنيبين اليك ، فأنت ولى جميع النعم والخير ، وأنت المرغوب اليك فى كل شدة وكرب وضر ، اللهم وهب لنا الصبر على ما كرهنا من قضائك ، والرضا بذلك طائعين ، وهب لنا الشكر على ماجرى به قضاؤك من محبتنا والاستكانه لحسن قضائك متذللين لك خاضعين ، رجاء المزيد والزلفى لديك يا كريم ، اللهم فلا شيء انفع لنا عندك من الايمان بك ، وقد مننت به علينا فلا تنزعه منا ، ولا تنزعنا منه حتى تتوفانا عليه موقنين بثوابك ، خائفين لعقابك ، صابرين على بلائك ، راجين لرحمتك يا كريم ...

وروى ابو نعيم ، انه سمع عمر بن ذر يقرأ هذه الآيه : «أولى لك فأولى» فجعل يقول : يارب ماهذا الوعيد؟ ! .

وسمعه عمار بن عمرو البجلى يقول : «لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا الى أهل السآمة والغفلة وقد سكنوا الى فرشهم ، ورجعوا الى

ملاذهم من الضجعة والنوم ، قاموا الى الله فرحين مستبشرين بما قد وهب لهم من حسن العبادة وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وباشروا ظلمته بصفاح وجوهم ، فانقضى عنهم الليل وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملّت ابدانهم من طول العبادة فأصبح الفريقان وقد ولى عنهم الليل ، بربح وغنين ، اصبح هؤلاء قد ملوا الراحة والنوم ، واصبح هؤلاء متطلعين الى مجيء الليل للعبادة .... شتان ما بين الفريقين !! فاعملوا لانفكسم رحمكم الله فى هذا الليل وسواده ، فان المغبون من غبن خير الليل والنهار ، والمحروم من حرم خيرهما ، انهما انما جعلا سبيلا للمؤمنين الى طاعة ربهم ، ووبالا للآخرين للغفلة عن انفسهم ، فأحيوا لله أنفسكم بذكره ، فانما تحيا القلوب بذكر الله ! كم من قائم فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى ظلمة قبره ، وكم من نائم فى هذا الليل قد ندم على طول نومه ، عندما يرى من كرامة الله للعابدين غدا ، فاغتنموا ممر الساعات والليالى والايام رحمكم الله !

وقال النضر بن اسماعيل ، شهدت عمر بن ذر فى جنازة وحوله الناس ، فلما وضع الميت على شفير القبر بكى عمر ، ثم قال : أيها الميت ، اما انت فقد قطعت سفر الدنيا فطوبى لك ان توسدت فى قبرك خيراً .

★ ★ ★

وانك لتجد من خلق عمر الاجتماعى مصداق ما وجدته فى حاله مع نفسه ، وذلك شأن الصدق ، فللمرء نفس واحدة ، هى التى يحيا بها فى خلوته ، وهى التى يحيا بها مع الناس !

كان ابن عياش يقع فيه ويشتمه ، فلقيه عمر فقال له · ياهذا ، لا تفرط فى شتمنا وأبق للصلح موضعا ، فانا لا نكافىء من عصى الله فينا باكثر من ان نطيع الله فيه !!

وروى خلاد بن يحيى عن عمر انه قال ذكرت لعطاء بن ابى رباح الكف عن تناول اصحاب رسول الله ﷺ إلا ذكرهم بصالح ما ذكرهم الله به ، وان

لا يتناولهم بنقص احدهم ولا طعن عليه ، وان لا يشهد على احد من أهل شهادة ان لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وصدق رسول الله وأقر بما جاء به من الله أنه كافر . وانهم مؤمنون : من عمل منهم حسنة رجونا له ثواب الله وأحببنا ذلك منه ، ومن تناول منهم معصية الله كرهنا ما عمل به من معصية الله ، وكان ذلك ذنباً يغفره الله او يعاقب عليه ان شاء ، فان الله عز وجل يقول.«ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» فذلك الى الله – هذا الذى احببت أباك عليه ياعطاء ، وهو الذى تفرق عنه اصحاب رسول الله ﷺ ، يرحمهم الله ويغفر لنا ولهم .

★ ★ ★

واسند عمر عن عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطاوس ، وعكرمه ، وأبى الزبير ، واسحاق بن عبد الله بن ابى طلحة ، ونافع ، وعن ابيه ذر ، والشعبى ، وشفيق ابى وائل ، وغيرهم من التابعين .

ومما رواه عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ان رسول الله ﷺ قال لجبريل «ياجبريل : ما يمنعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا؟» فنزلت الآية «وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا» .

ومما رواه عن مجاهد ، قال رسول الله ﷺ لابى ذر «أعطيت خمس خصال لم يعطهم احد قبلى : أرسل كل نبى الى امته بلسانها ، وارسلت الى كل احمر وأسود من خلقه ، ونصرت بالرعب ولم ينصر به احد قبلى ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا!» [أذكر اربع خصال فقط والخامسة : وأعطيت الشفاعة – (رواه البخارى)] .

ومما رواه عن مجاهد عن ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن رواحة وهو يذكر اصحابه ، فقال رسول الله ﷺ . أما إنكم الملا الذى أمرنى

ربى أن اصبر نفسى معهم ، ثم تلا «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا» . أما إنه ما جلس عدتكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة . إن سبحوا الله سبحوه ، وان حمدوا الله حمدوه ، وإن كبروا الله كبروه ، ثم يصعدون الى الرب تعالى وهو أعلم منهم فيقولون : ياربنا عبادك سبحوك فسبحنا ، وكبروك فكبرنا ، وحمدوك فحمدنا ، فيقول ربنا : ياملائكى اشهدكم انى قد غفرت لهم ، فيقولون فيهم فلان وفلان الخطاء ! فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» .

ومما رواه عن مجاهد عن ابى هريرة وأبى سعيد ، قالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول «مجالس الذكر تنزل عليهم السكينة ، وتحف بهم الملائكة ، وتغشاهم الرحمة ، ويذكرهم الله على عرشه .

اللهم اجعلنا من الذاكرين ، وارض عن عمر ، وألحقنا به فى الصالحين .

بلال بن سعد

«سمعت بلال بن سعد ، ولم أسمع واعظاً خيراً منه»

«الأوزاعى»

ومن العارفين .. بلال بن سعد .

يقول : أمّا ما وكلكم به فتضيعون ، وأما ما تكفل لكم به فتطلبون ، ما هكذا نعت الله عباده المؤمنين ! أذَوُو عقول فى طلب الدنيا ، وبُلْه عما خُلقتم له ؟!

ويتحدث عن ذكر الله فيقول : الذكر ذكران ، ذكر باللسان حسن جميل ، وذكر الله عما أحل وحرّم أفضل .

ويروى عنه عبد الرحمن بن أبى حوشب ، قال سمعت بلال بن سعد يقول : عباد الرحمن : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله وقوله حتى ينظر فى علمه ، فان كان قوله مؤمن وعمله عمل مؤمن لم يدعه حتى ينظر فى ورعه فان كان قوله قول مؤمن وعمله عمل مؤمن وورعه ورع مؤمن لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى !

ويسمعه الضحاك بن عبد الرحمن يقول : عباد الرحمن :يقال لأحدنا أتحب ان تموت ؟ فيقول لا فيقال لَمِ ؟ فيقول حتى أعمل ، ويقول سوف اعمل ، فلا يحب ان يموت ولا يحب ان يعمل ، وأحب شىء اليه ان يؤخر عمل الله ولا يحب ان يؤخر عنه عرض الدنيا !

ويقف ليعظ الناس فيقول : أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم انفكسم وخطاياكم ، أما رزقه فدار عليكم ، وأما رحمته فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فسابغ عليكم ، وأما عقابه فلم يعجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على إلهكم . إنكم تتكلمون ويوشك الله تعالى ان يتكلم وتسكتوا ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود منه الوجوه «فاتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» – عباد الرحمن ! لوْ غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو عملتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقاً !

ويعظ مرة أخرى : عباد الرحمن : إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد اضاع ما سواها فما زال الشيطان يمنيه فيها ويزين له حتى يغتر . فقبل ان تعملوا أعمالكم فانظروا ما تريدون بها ، فان كانت خالصة لله فأمضوها ، وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ولا شيء لكم ، فان الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً ، فانه تعالى قال : «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» عباد الرحمن ! ما يزال لأحدكم حاجة الى ربه تعالى إما مسئلته وإما رغبة اليه ، وأما عهد الله وأمره ووصيته فعندك ضائع ، أفكل ساعة تريدون ان يتم عليكم احسان ربكم عندكم ولا تتفقدون انفسكم فى حق ربكم عندكم ؟ ما هذا بالنصف فيما بينكم وبين ربكم . عباد الرحمن !! اشفقوا من الله ولا تأمنوا مكره ولا تقنطوا من رحمته ، واعلموا ان لنعم الله عندكم ثمناً فلا تشقوا على انفسكم . أتعملون عمل الله لثواب الدنيا؟ فمن كان كذلك فوالله لقد رضى بقليل وما ارضى ربه !

وله من وعظه جمل قصار ولكنها قوارع ؟

روى الأوزاعى عنه قوله . لكأنا قوم لا يعقلون ! لكأنا قوم لا يؤمنون !

وروى قوله : تنادَى النار يوم القيامة · يانار احرقى ، يانار اشتفى ، يانار انضجى ، يانار كلى ولا تقتلى !

وقوله : أيها الناس : أتقوا الله فيمن لا ناصر له إلا الله !

وقوله : إن الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب !

وقوله : إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته !

وقوله : لا تكن ولياً لله فى العلانية عدواً له فى السر !

وقوله : إن الخطيئة اذا اخفيت لم تضر الا اهلها ، واذا اظهرت فلم تغير ضرَّت العامة .

وقوله : أن احدكم اذا لم تنهه صلاته عن ظلمه لم تزده صلاته عند الله الا مقتاً ، وكان يتأول هذه الآية «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» .

وقوله : كفى بنا ذنباً ان الله يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها .

وقوله : ياأهل الخلود ، ياأهل البقاء ، أنتم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم تنقلون من دار الى دار .... كما نقلتم من الأصلاب الى الأرحام ، ومن الأرحام الى الدنيا ، ومن الدنيا الى القبور ، ومن القبور الى الموقف ، ثم الى الخلود فى الجنة أو النار !

وقوله : رب مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له فى كتاب الله انه من وقود النار ...... فياويلاً له روحاً ، وياويلاً له جسداً !

وسمعه الأوزاعى يقول : لا تنظر الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر الى من عصيت !

ولكنه مع قوارعه لم يكن يفوته ان يعالج الأنفس بأسلوب القرآن الذى يجعل الترغيب مع الترهيب ، والتبشير برحمة الله مع الانذار من غضبه ، ومن

ذلك قوله : «ان ربكم ليس الى عقاب احدكم بسريع : يقبل العثرة ، ويقبل التوبة ، ويقبل من المقبل ، ويعطف على المدبر» . ويحاول دائماً ان يحفظ هذا الميزان فى انفس أصحابه فيقول «ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرة» .

★ ★ ★

وكان لعاطفة الأخوة فى الله فى نفس بلال وفى وعظه منزلة عالية . قال مرة للأوزاعى «أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله ، خير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً» .

ودعا مرة أخرى عبد الرحمن بن يزيد فقال له «بلغنى ان المسلم مرآة اخيه فهل تستريب من أمرى شيئاً ؟» ولكنه يرد هذه الأخوة الى اصولها العميقة فيقول : «ادركت الناس يتحابون على الأعمال الصالحة ، الصلاة والصيام والزكاة وفعل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وانهم اليوم يتحابون على الرأى» ثم تجد تفسيره للرأى فى كلماته حين يقول «ثلاث لا يُقبل معهن عمل ، الشرك ، والكفر ، والرأى» قيل وما الرأى ؟ قال : «يترك كتاب الله وسنة رسوله ويعمل برأيه» .

وسمعه خالد بن محمد الثقفى يقول لأهل دمشق : «إنما المؤمنون اخوة» ، فكيف بايمان قوم متباغضين ؟!

★ ★ ★

ومن القليل الذى رواه الأوزاعى عن نظرات بلال بن سعد فى القرآن ، أنه سمعه يقول فى قوله تعالى «ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة» : عند وقوع الفتنة أرضى واسعة ففروا اليها – وفى قوله تعالى . «ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت» – قال : ذلك قوله تعالى «يقول الانسان يومئذ اين المفر» ؟!

وإنك لتلمس آية الصدق من دعائه الذى كان يدعو به لنفسه . «اللهم انى اعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ومضلات

الفتن» . ولعمرى ان النسب لوثيق بين دعائه هذا ودعاء ابيه له ..... فقد ذكر بلال ان اباه حين حضرته الوفاة قال له : يابنى ادع بنيك ، فأمر أهله فحضروا ، فقال سعد «اللهم انى اعيذهم من الكفر وضلال العمل ومن الفقر الى بنى آدم» – ولقد روى ابن المبارك ان النبى ﷺ مسح رأس سعد ودعا له .

★ ★ ★

وأسند بلال عن ابيه سعد بن تمي السكونى ، وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعن جابر بن عبدالله .

فمما رواه عن عبدالله بن عمر : قال رسول الله ﷺ «أول ما افترض الله على أمتى الصلوات الخمس ، وأول ما يرفع من اعمالهم الصلوات الخمس ، وأول ما يسألون عنه الصلوات الخمس» .

ومما رواه عن جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال «من ستر عورة فكأنما احيا موءودة» .

ومما رواه عن ابيه «قيل يارسول الله : ما للخليفة بعدك ؟ قال : مثل الذى لى ما عدل فى الحكم ، وأقسط فى القسم ، ورحم ذا الرحم ، فمن فعل غير ذلك فليس منى ولست منه» .....!

رضى الله عن بلال بن سعد وأرضاه .

الرميصاء أم سليم

«رأيتنى دخلت الجنة فإذا انا بالرميصاء امراة ابى طلحة»

(حديث شريف)

كان المجلس جميلاً ندياً ، وكان الجالسون نفراً من الصحابة والتابعين ، يراهم الداخل الى مسجد المدينة عن عينه ، وقد انتحوا ناحية يحدث بعضهم بعضاً بما سمعه من رسول الله ﷺ ، وتلاحقت مع أحاديثهم ذكريات عذاب ، وجاء كل حديث منها صورة مشرقة للحظات سعيدة قضاها كل منهم فى حجر النبوة .. فكأنما كل حديث جديد شرارة من النور تنقدح فى أنفسهم جميعاً .... أو يد حانية ناعمة تمسح صدورا هائجة الشوق الى النبى الحبيب ... ﷺ .

وإذ هم فى حلقتهم يرشفون من هذا النور .... مرّ بهم عبد الله بن أبى طلحة فسلم عليهم ثم قصد الى الروضة ليصلى ركعتين ....

– لله دره ... إنه ابن الليلة المباركة .

– كيف ؟

– تسأل كيف ... ألم تسمع بخبر ليلة ابى طلحه ؟ إنها والله لليلة ....

– كيف ؟ حدثنا ياأخى عنها .

– يحدثنا عنها ثابت ؛ فهو راوى خبرها عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

ومرت لحظات صامتة أرهفت فيها الأسماع لثابت .... فقال :

صلى الناس المغرب خلف رسول الله ﷺ ، ثم انصرف ابو طلحة الى بيته ، وكان له غلام مريض من الرميصاء أم سليم ، فلما دخل وجدها قد لفته فجعلته فى ناحية من بينها ، فسألها كيف الصبى ؟

فقالت : لم يكن منذ اشتكى خيراً منه الليلة – وقربت اليه عشاءه وشرابه فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع له قبل ذلك ، فلما شبع وروى وقع بها ، فلما عرفت أنه قد شبع وروى وقضى حاجته منها قالت : ألا أعجبك من جيراننا ؟ قال وما لهم ؟ قالت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم جزعوا ! فقال : بئس ما صنعوا قالت : فان ابنك كان عارية من الله عز وجل وإن الله تعالى قد قبضه . فحمد الله واسترجع ثم غدا الى رسول الله ﷺ فقال له الرسول : «ياأبا طلحة بارك الله لكما فى ليلتكما» فحملت الرميصاء بعبد الله بن طلحة .

هكذا روى ثابت قصة الرميصاء ، فطربوا بها جميعاً وانتشوا .....

– رضى الله عن الرميصاء .

– هكذا يصنع الايمان اهله .

– زدنا من خبر أم سليم ياثابت .

قال ثابت : إن خبرها كان عجباً .... أتدرون كيف تزوجت ابا طلحة ؟ لقد جاء يخطبها قبل ان يسلم ، وهى مسلمة ، فقالت له : ياأبا طلحة ألست تعلم ان الهك الذى تعبده خشبة تنبت من الأرض نجرها حبشى بن فلان ؟ قال بلى ! قالت افلا تستحى ان تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشى بن فلان ! أما انى فيك لراغبة وما مثلك يرد ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة فإن تسلم فذلك مهرى لا أسألك غيره ؛ لا أريد منك صفراء ولا بيضاء ! انما اريد منك الاسلام .

– قال : لا حتى أنظر فى أمرى ، فذهب يفكر فى الخشبه التى نجرها

حبشى بن فلان حتى شرح الله صدره وذهب الى النبى ﷺ وهو جالس فى أصحابه فلما رآه قال : «جاءكم ابو طلحة غرة الاسلام فى عينيه» . ثم ذهب الى الرميصاء يشهد الا إله إلا وأن محمداً رسول الله ..... فقالت ياأخى انس ... زوج ابا طلحة .

وسكت ثابت ثم عاد يقول :

– لله درها ..... كانت سباقة الى كل صالحة .... حدَّث انس بن مالك بعض اصحابنا انه رآها يوم احد مع عائشة مستمرتين تنقلان القرب ، ثم تفرغانها فى أفواه القوم وترجعان فتملانها ثم تجئيان فتفرغانها فى افواه القوم ..... وحدثنى انس ان ابا طلحة رأى عليها خنجراً يوم حنين فقال ما تصنعين بهذا ؟ قالت : أريد ان دنا أحد من المشركين ان ابعج بطنه !! فقال ابو طلحة : يارسول الله اما تسمع ما تقول ام سليم تقول كذا وكذا ، فقال ﷺ : «ياأم سليم ان الله تعالى قد كفّر وأحسن» .

وفيما هم يستمعون الى ثابت نظر احدهم فرأى عبد الله بن ابى طلحة قد جاوز الروضة إلى قبر الرسول ﷺ ، ووقف يسلم على الرسول وطال موقفه .

– انظروا الى أبنها هناك لا يريد ان يبرح مكانه .

قال ثابت : كذلك كانت أمة تحب رسول الله ﷺ ؛ حدثنى انس ان الرسول اتاهم فنام القيلولة عندهم فعرق ، وجاءت ام سليم بقارورة تسلت العرق فيها ، فاستيقظ النبى ﷺ فقال : «ياأم سليم ما الذى تصنعين ؟» قالت . هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو أطيب الطيب .

...... وهنا هبت عليهم نسمة حلوة باردة فكأنما شموا فيها جميعاً طيب رسول الله ﷺ – طيب الله ذكر الرميصاء .

خالد بن معدان

فرغ الناس من صلاة العشاء ، وكانت صلاة وضيئة ترف بالنور ؛ فإن امام الناس كان التقى العابد ايمن بن سعيد ، وقد فتح الله له الليلة مغاليق سورة القتال فى الركعة الاولى وسورة الفتح فى الركعة الثانية فلكأنهما نزلتا الآن من رحاب قدس الله ، ولكأن فى صوت أيمن كهرباء قاهرة سرت رعدتها فى مئات المصلين خلفه وملأت المسجد كله نوراً ورهبة ...

وخرج المصلون من المسجد فى نشوة عالية ، وانتشروا فى سكك المدينة يؤمنون بيوتهم ، إلا ثور بن يزيد فقد سلك الطريق المؤدية الى المقابر ثقيل الخطى شارد الفكر يكاد يترنح مما يجد .... وما لبث ان ادركه سفيان بن عيينه .

– السلام عليك ورحمة الله ياثور .

– وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ياسفيان .

– الى اين ؟

– الى الدار الآخرة اشم ريحها يابن عيينه ، وأزور عند اعتابها الاحبة .

– وما حملك على ذلك الليلة واهلك المرضى ينتظرون أوبتك ؟

– وماذا افعل لهم ... هيه .... جزى الله خيراً أيمن بن سعيد ، لقد أذهب عنا هَّم الدنيا بهم الآخرة ، وذكَّرنا بأخ عزيز حبيب كنا فى صحبته سنوات

طويلة فى مثل ما كنا من هذه السورة الوضيئة ، وكأنما القى الله على لسان ايمن سورة القتال ، حتى تكمل نضارة الذكرى .

- كيف ؟

- هذه الآية الكبيرة ياسفيان : «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها» . ما أكثر ما كنت أسمعها من «خالد بن معدان» رحمة الله عليه ، كان يعيش بها فى حقائق كبيرة يمسى بها ويصبح ، وكان يكررها فتخرج من فيه العذاب مشرقة مقَّرة مليئة بالأسرار .. ما أكثر ما سمعته يقول : «ما من عبد الا وله اربع اعين : عينان فى وجهه يبصر بهما امور الدنيا ، وعينان فى قلبه يبصر بهما امور الآخرة ؛ فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين فى قلبه فيبصر بهما ما وعد بالغيب ، وهما غيب ، فآمن الغيب بالغيب ، وإذا اراد الله بعبد غير ذلك تركه على ما هو عليه» ثم قرأ : «أم على قلوب اقفالها» .

- لله هؤلاء الصالحون يذكرون بذكر الله ، ويذكر الله بذكرهم .

- لو انك صحبته ياسفيان ! لقد كان سماءتعج بالملائكة والنور . كانت الكلمة تخرج من بين شفتيه ، فأحسن بها احياناً كالنجم الدرى اشرق فجأة على سار مكدود ضل طريقه فى صحراء شاسعة ... وأحس فيها احياناً بمثل ومض البرق وزمجرة الرعد فينخلع لها قلبى ... لا أزال اذكره - رحمه الله - وهو جالس بيننا بجلبابه الأبيض مشرق الاسارير ندى الصفحة يسكب فى قلوبنا النور وهو يقول : قال الله تعالى : «إن أحب عبادى الىّ المتحابون بحبى ، المعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار اولئك الذين اذا أردت اهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم» ..... ولا أزال اذكر غضبته فى الحق يوماً ثم عظته لنا بعدها يربينا تربيته العالية .... قال : «من التمس المحامد فى مخالفة الحق رد الله تلك المحامد عليه ذما ، ومن اجترأ على الملاوم فى مواقفه الحق رد الله تلك الملاوم عليه حمداً» . لقد كانت كل

كلمة من هذه الكلمات كأنما السهم الرائش يسدده الى معانى الضعف فى كل واحد منا ، فيرديها معنى ... معنى ....

– ومن اين له كل ذلك ياثور ؟

– ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..... ثم هى بركة صحبة الأبرار يا سفيان ، فقد صحب خالد معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا عبيدة بن الجراح وأبا ذر ، وروى عنهم .... رضى الله عنهم وأرضاهم .

إن أمثال خالد ياأخي قلاع هداية تنصبها رحمة الله للناس ، وتأبى عزة الله مع احدهم ان يعرف الناس كيف صنع ..... إلا أنهم يرونه قائماً شامخاً بسر الله فيه ، فلا يملكون بين يديه إلا أن يخشعوا لله الذى صنعه .

لقد كان خالد ياأخي يتحدث عن الشيطان ؛ فكأنما هو ممسك به يعصره ويحطم ضلوعه ... سمعته مرة يقول : «ما من عبد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره، لاوٍ عنقه على عاتقه، فاغراً فاه على قلبه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس» ..... فكأن الشيطان والله تكشف امامى بكل عوراته ، وكأنى اوتيت بهذه الكلمات اسلحة النصر جميعاً فى مغالبته .....

وكان خالد يحبب الينا فعل الخير ، فيأخذنا الى آفاق عالية ، ويصوره لنا فى الصورة التى يرق بها القلب ويخفق ... أقسم لكأنى لاازال اسمعه يقول : «من قال سبحان الله وبحمده صادقا بها قلبه جعل الله لها عينين وجناحين ثم طارت تسبح مع المسبحين» . وتطرب ياسفيان حين تراه فى هذه الآفاق العالية قريب رحيما ، يقدر الحقيقة فى الثوب الناعم كما يقدرها فى الثوب المرقع .... سمعته مرة يقول : «ان الله ليشكر للعبد اذا قال الحمد لله ، وإن كان على فراش وطيء وعنده شابة حسناء» .

★ ★ ★

وكانا قد أدركا المقابر وسلما على أهلها ، وجعل ثور يدور بسفيان بينها

حتى وصلا الى قبر خالد بن معدان فوقفا ما شاءالله أن يقفا ، وذرفا من الدمع ما شاء الله ان يذرفا ، ثم عادا ادراجهما وثور يتمتم :

- هنيئا لك يا خالد محياك ومماتك ... لقد كنْتَ دائما شديد الشوق الى الرحيل رائع الصدق فى ذكر احبابك الذين سبقوك الى ربك ... لا ازال اسمع صوتك الحلو يتردد فى اذنى وأنت تستقبل فراشك كل ليلة فتسميهم واحداً واحداً وتقول : «هم اصلى وفصلى ، واليهم يحن قلبى ، طال شوقى اليهم فعجل ربى قبضى اليك» ....

هيه ياسفيان .... متى الرحيل ؟!!

ميمون بن مهران

«اذا ذهب «ميمون» وأمثاله ، لم يبق من الناس إلا رجاج»

عمر بن عبد العزيز

خرج يقوده ابنه عمرو فى سكك البصرة حتى ادركا منزل الحسن البصرى ، فطرق عمرو الباب ، فخرجت اليهما جارية تسأل : من هذا ؟ قال عمرو : هذا ميمون بن مهران اراد لقاء الحسن . فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قال : نعم . قالت ياشقى ، ما بقاؤك الى هذا الزمان السوء ؟! فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج اليه فاعتنقا ثم دخلا . فقال ميمون : ياأبا سعيد قد آنست من قلبى غلظة فاستلن لى منه . فقرأ الحسن «بسم الله الرحمن الرحيم ، أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون؟ ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون» فاهتز ميمون اهتزازا شديداً ، ولبث كذلك وقتاً ، ثم خرج وابنه آخذ بيده ، حتى اذا كانا فى الطريق قال عمرو : ياأبتاه ، هذا الحسن ؟ قد كنت احسب انه اكبر من هذا ! فوكزه ابوه ثم قال : يابنّى ، لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لبقى لها فيك كلوم !

هذه الآية التى قد تمر على لسان احدنا فى ورده مر الهواء ، لو انه التفت لها قلبه لغمره منها فيض من النور ، ولو جدت عبرتها فى اعماقه سكناً لا تدركه كل كتب التاريخ ... ولهذا انزل القرآن ، ولهذا يتلى ، حتى يجلو القلب بكلمات الذى يعلم السر وأخفى : «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة» ، وحتى يربى اهله بالعبرة المزجاة من لدن الحكيم العليم .

وبذلك استطاع النبى ﷺ ان ينقل الجزيرة من جاهليتها العارمة الى اصالتها الوارفة فى بضع سنين ، وجاء انقلابها على غير ما عهده أهل التاريخ ، وقامت الامة الجديدة على أساسين جديدين : على قلوب ينسكب فيها الوحى النازل نوراً وحياة : «او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس» وعلى عقول اجتمع لها فى قرآنها موازين الحق ومعالم طريقه «أنزل الكتاب بالحق والميزان» !

حين كان القرآن هكذا ، كان المسلمون به خير امة ، فلما التفتت عنه قلوبهم وجدت لذتها فى غير كلام الله ، وتفرقت عنه عقولهم تتلمس الهداية فى غير هدى الله نزل بها ما قد نزل ، وصدق الله : «قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم انك اذاً لمن الظالمين» !

وفى هذا يقول ميمون «إن هذا القرآن قد خلق فى صدور كثير من الناس ، والتمسوا ما سواه من الاحاديث ، وأن فيمن يبتغى هذا العلم من يتخذه بضاعه يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد ان يشار اليه ، ومنهم من يريد ان يمارى به ، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عز وجل به» .

وفيه كذلك يقول : من تبع القرآن قاده القرآن حتى يحل به فى الجنة ، ومن ترك القرآن ، إنه يتبعه حتى يقذفه فى النار .

ليس القرآن رجلاً يمسك ويدفعك الى جنة او الى نار ، وانما هو قوانين شرعها الحق سبحانه ، بسلطانها يفلح المهتدون : لأنهم اهتدوا ، وبسلطانها يشقى الضالون : لأنهم ضلوا !

كان ميمون من اهل القرآن ، وانك لتقرأ له كلمات يردف بها بعض الآيات فتراها على قلتها كأنها المفاتيح ... قرأ مرة قول الله : «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» ثم قال . وعيد للظالمين وتعزية للمظلوم ! وسمعه ابو المليح يتلو · «إن جهنم كانت مرصاداً» و «ان ربك لبالمرصاد» ثم يقول

فالتمسوا لهذين الرصدين جوازاً!! وسمعه مرة اخرى يتلو : «خافضة رافعة» ثم يقول : تخفض أقواماً وترفع آخرين !، وقرأ يوما «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» فرق حتى بكى ، ثم قال : ماسمع الخلائق بعتب أشد منه قط.

وكان ميمون فقيهاً ورعاً شديد الحساب لنفسه ، روى جعفر بن برقان انه سمعه يقول : ما عرضت قولى على عملى الا وجدت من نفسى اعتراضا — واستعمله عمر بن عبد العزيز على قضاء الجزيرة وخراجها فكتب اليه ميمون يستعفيه ، وقال : كلفتنى ما لا أطيق ، أقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق . فكتب عمر إليه «اجب من الخراج الطيب ، واقض ما استبان لك ، فاذا التبس عليك أمر فارفعه الّى ، فان الناس لو كانوا اذا كبر عليهم امرتركوه ، ما قام دين ولا دنيا» .

كان على كبره وضعفه جريئاً فى الحق يقف به حيث يدعوه فقه لا يخشى فى الله احداً : دخل مرة على سليمان بن عبد الملك فى منزله فلم يسلم عليه بالامرة وقال : لاترى انى جهلت ، ولكن الوالى انما يسلم عليه بالامرة اذا جلس للناس فى موضع الاحكام ! وكانت تعجبه الجرأة فى الحق من غيره .... روى ان الحجاج بن يوسف بعث الى الحسن البصرى وقد همّ به ، فلما دخل عليه قال : يا حجاج : كم بينك وبين آدم من اب ؟ قال : كثير ! قال فأين هم ؟ قال ماتوا ! فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن .

★ ★ ★

ولميمون دروس فى التربية لو وقفنا عند كل واحد منها لطال بنا الامر ، فحسبنا ان نجمعها لك هنا ، ولعلك تعوض ما فاتنا من الوقوف عندها بتأملك انت فيها ، وانها لواضحة مليئة ....

روى عنه جعفر بن برقان · من كان يريد ان يعلم ما منزلته عند الله عز وجل ، فلينظر فى عمله فانه قادم على عمله كائناً ما كان .

ومن وعظه : نظر رجل من المهاجرين الى رجل يصلى فأخف صلاته. فعاتبه فقال : انى ذكرت ضيعة لى ، فقال : الذى أضعته اكبر منها .

ومنه : لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال .

وروى عنه فرات بن سليمان : ثلاث لا تبلون نفسك بهن ، لا تدخل على السلطان وان قلت آمره بطاعه الله ، ولا تدخل على امراة وان قلت اعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك لذى هوى ، فانك لا تدرى ما يعلق بقلبك منه !

وقال ابان بن ابى راشد : كنت اذا اردت الصائفة اتيت ميمون بن مهران اودعه ، فما يزيدنى على كلمتين : اتق الله ، ولا يغيرك طمع ولا غضب .

ومن رقائقه : يامعشر الشباب : اجعلوا قوتكم ونشاطكم فى طاعةالله . يامعشر الشيوخ حتى متى ؟!

وسمعه جعفر يقول : ثلاث المؤمن والكافر فيهن سواء . الامانة تؤديها الى من ائتمنك عليها من مسلم او كافر ، وبر الوالدين ، والعهد تف به لمن عاهدت من مسلم او كافر .

ومن جميل عظاته فى آداب الاخوة : ما بلغنى عن اخ لى مكروه قط الا كان اسقاط المكروه عنه احب الّى من تحقيقه عليه ، فان قال لم اقل ! كان قوله (لم أقل) احب الّى من ثمانية تشهد عليه ، فان قال قلت ولم يعتذر ابغضته من حيث احببته – سمعت ابن عباس يقول : ما بلغنى عن اخ لى مكروه قط إلا انزلته احدى ثلاث منازل ، إن كان فوقى عرفت له قدره ، وان كان نظيرى تفضلت عليه ، وان كان دونى لم احفل به ، هذه سيرتى فى نفسى فمن رغب عنها فان ارض الله واسعة !

وقال له جعفر . ان فلاناً يستبطىء نفسه فى زيارتك . فقال ميمون : اذا ثبتت المودة فلا بأس وان طال المكث .

ومن عظيم وصاياه : لا تعذب المملوك ولا تضربه فى كل ذنب ، ولكن احفظ ذاك له ، فاذا عصى الله عز وجل فعاقبه على معصية الله تعالى ، وذكّره الذنوب التى اذنب بينك وبينه!

ومما حدّث به عن القلب : إن العبد اذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فان تاب مُحِيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجلى مثل المرآة ، ما يأتيه الشيطان من ناحية الا ابصره . واما الذى يتتابع فى الذنوب فانه كلما اذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسودّ قلبه ولا يبصر الشيطان من حيث يأتيه .

ومن كلامه الذى كان يصدقه حاله : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه اشد من محاسبة شريكه ، حتى يعلم من اين مطعمه ، ومن اين ملبسه ، ومن اين مشربه ، أمن حلال ذلك ام من حرام!

وقوله : فى المال ثلاث خصال ، ان نجا رجل من خصلة كان قمناً الا ينجو من أثنتين ، وان نجا من اثنتين كان قمناً الا ينجو من الثالثة ، ينبغى للمال ان يكون اصله من طيب ، فأيكم الذى يسلم كسبه فلم يدخله الا طيب؟ فان سلم من هذه فينبغى له ان يؤدى الحقوق التى فى مال . فان سلم من هذه فينبغى له ان يكون فى نفقته ليس بمسرف ولا مقتر .

وقوله : اهون الصوم ترك الطعام والشراب .

وقوله : ما نال رجل ، نبى ولا غيره ، من جسيم الخير : الا بالصبر .

وكتب الى يونس بن عبيد : عليك بكتاب الله ، وان الناس قد لهوا عنه واختاروا عليه احاديث الرجال ، واياك والمراء فى الدين .

ومن نهيه عن الشفاعة فى فاسق عند الحاكمين : انما الفاسق بمنزلة السبع ، فاذا كلمت فيه فخليت سبيله فقد خليت سبعاً على المسلمين!

ومن قوارعه : شر الناس العيّابون !

ومنها : ياابن آدم خفف عن ظهرك ، فان ظهرك لا يطيق كل الذى تحمل عليه من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ، وشتم هذا ..... كل هذا تحمله على ظهرك فخفف !

ومنها : ما أتى قوم فى ناديهم المنكر الا عند هلاكهم .

ومن جليل وصاياه : اياكم وكل هدى يسمى بغير الاسلام .

واتاه رجل فقال لا يزال الناس بخير ما كنت فيهم . فرد عليه : لايزال الناس بخير ما اتقوا الله !

★ ★ ★

واسند ميمون بن مهران عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما .

ومما رواه عن ابن عمر : «نهى رسول الله ﷺ عن النميمة ، ونهى عن الغيبة والاستماع الى الغيبة» ؟

وقوله ﷺ «قلما يوجد فى آخر الزمان درهم من حلال او اخ يوثق بِه» وقوله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله» .

ومما رواه عن ابن عباس :

قوله ﷺ «من أذنب وهو يضحك دخل النار وهى يبكى» . وقوله ﷺ «اثنان من الناس اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء» .

رضى الله عن ميمون وأرضاه .

سعيد بن يزيد

يقول :

«خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها :

إحداهم : معرفة الله تعالى ،

والثانية : معرفة الحق ،

والثالثة : إخلاص العمل لله ،

والرابعة : العمل بالسنّة ،

والخامسة : أكل الحلال ،

فان هو عرف الله ولم يعرف الحق لم ينتفع بمعرفته ، وإن عرف الحق ولم يخلص العمل لله لم ينتفع بمعرفة الله ، وإن عرف ولم يكن على السنّة لم ينفعه ، وان عرف ولم يكن المأكل من حلال لم ينتفع بالخمس ، وإذا كان من حلال صفا له القلب فأبصر به أمر الدنيا والآخرة ، إن كان من شبهة اشتبهت عليه الأمور بقدر المأكل ، وإن كان من حرام أظلم عليه أمر الدنيا والآخرة ، وإن وصفه الناس بالبصر فهو أعمى حتى يتوب .

وكان هذا الكلام الواضح هو أشد ما استوقفني خلال ما أثر عن سعيد بن يزيد ، فقد استروحت فيه نسمات صدق تدل على فقه صاحبه وحاله ، وأشرفت منه على صورة نيّرة تنبض بالحياة ، فيها مزيج من الفكر المبصر

والروح المشرق ، وفيها خلال ذلك عنصر حتّى جعل من هذه الخصال الخمس مجتمعة صورة جديدة ، مع أنه ليس فيها خصلة واحدة يجهلها أحد ، فهل الجديد فيها اجتماعها ؟ أو هو أمر أكبر من ذلك : فى القلب الذى جمعها ، واستوعب الصلة الوثيقة بينها ، بهذا الوضوح الجميل ، وانكشف عنه قناعه فقال فى معرض وصلها : «وإذا كان المأكل من حلال صفا له القلب فأبصر به أمر الدنيا والآخرة» !

وليس هذا كل شىء فى كلام سعيد ، فان فى جمعه لهذه الخصال ، وفى الترتيب الذى ساقها به ، نهجاً سليماً فى فهم الاسلام وفى الدعوة إليه يعالج كثيراً من المشكلات ويرفع كثيراً من الحدود الدخيلة بين المسلمين ، فهو فى الخصلتين الأولى والثالثة يقرر الركيزة الكبرى لهذا الدين : وهى معرفة الله تعالى وسلامة النية وتجردها من كل ما سواه فى طريق السالكين اليه ، ومن هذه الركيزة يقوم الأصل الذى نشأت به حركة التصوف فى تاريخ الاسلام[1] ، حين أقبلت الدنيا على المسلمين وخشى بعض الصالحين أن تفتنهم عن دينهم وتشغلهم عن ركيزته الأولى وهى صدق التوجه إلى الله وإيثار وجهه ومرضاته ، ولكنه جعل بين هاتين الخصلتين الخصلة الثانية وهى معرفة الحق ، فوضع بذلك الأساس الذى يشد الروح فى كل مسارحها إلى معالم الحق وحدوده ، ويحفظها من الشطحات ومزالق الطريق ، وأقام الجسر السهل بين أهل التصوف الصالحين وبين الذين لا ينظرون إليهم إلا من خلال المزالق والشطحات ، وعلى هذا الجسر تلتقى أرواح المسلمين سالمة صافية ، وتجتمع عقولهم على شريعة محدودة واضحة ، وينتظم سلوكهم فى غير هوى أو جموح .

---

(١) ذكرنا ذلك لنختصر الطريق فى عرض مانحن بصدده ، وإن كنا مع ذلك نؤثر دائماً أن نطلق على المسميات أسماءها التى عرفها بها الصدر الأول ، إلا أن انصرفنا عن ذلك ضرورة ، ولسنا نرى ضرورة فى استعمال اصطلاحات التصوف ، وأهل الحديث ، والسلفية ، وما إلى ذلك ، لأن استعمالها أدى إلى واقع مرير ، وجعل المسلمين طوائف تتذرع كل منها بحدودها وتقف عندها ، ويفوتها بذلك أن تطالع وجه الخير والعذر عند غيرها ، ثم تكون النتيجة – وقد كانت – تعذر السبيل إلى جمع الشمل على أساس من الحق والانصاف فلنعد كما كنا ، وكما هو الشأن الواجب =

وينتقل سعيد من المجال النظرى فى الخصال الثلاث الأولى إلى المجال العملى فى الخصلتين الباقيتين ، وأولاهما العمل بالسنّة ، وما أشد ما فقدت هذه العبارة معناها عند أكثر المسلمين ، حتى أصبحت لاتعنى على الأغلب أكثر من النوافل وبعض مظاهر الأعمال ! إن كلمة السنة تعنى عند الفقهاء كل ما ورد عن رسول الله ﷺ فى مجال التشريع من قول أو فعل أو تقرير ، فاذا قلنا العمل بالسنة فيجب أن يكون معنى ذلك اتباع رسول الله ﷺ فى كل ماشرع ، ومعناه كذلك أن الله سبحانه حين أنزل كتابه لم يشأ أن يجعله دعوة نظرية يلقيها إلى الناس فيختلفون فى النظر اليها وفى فهمها ، وقد يتعللون بقصور قدرتهم البشرية عن الأخذ بها ، فاختار من بينهم إنساناً منهم ، صنعه على عينه كما أراد ، وحمله دعوة الحق كاملة ، وشهد له بالكمال فى أخذها والعمل بها ، وفى تبليغها والعمل لها ، ولم يقبضه إليه حتى جعله يقرأ على الناس بلسانه قوله سبحانه : «اليوم أكملت لكم دينكم» وبعبارة أخرى ، كان رسول الله ﷺ وسلم هو النموذج الذى قدمته رحمة الله بين يدى الوحى النازل بالكتاب ، ليجد فيه الناس الذروة فى تطبيق كل أمر نزل ، والحجة عليهم - وهو بشر منهم - حين يُدعون لتطبيقه ، وليكون دائماً المثل الكامل الذى يقتدى به الناس ، والذى يقتربون من الكمال بقدر ما يقتربون منه ، والذى يجعلون سيرته الميزان الذى يزنون سيرهَم به ، لايختلف فى ذلك عصر ولا مصر ، فهو أبداً القائد الذى يسمع له ويطاع ، وهو أبداً النموذج الذى تتجه اليه الابصار والأسماع ، ولأمر ما جعل الله فى الاذان المعلن بعد الشهاده بوحدانيته : أشهد أن محمداً رسول الله ؛ ليسمع المسلمون ذلك كل يوم خمس مرات !

= من وراء هذه الأوصاف ، مسلمين يحكمنا الكتاب والسنة ، ونحكم بهما على كل رأى وتصرف ، ولنذكر أن الأخوة فى دين الله فريضة ، وإن من الغفلة الشديدة أن نهدم فريضة من أجل الخلاف على سنة ، فاذا تجاوز الأمر ذلك إلى خلاف حول اصل من اصول الاسلام ، وهو نادر ، فاننا مطالبون حتى فى هذا المجال باتباع اسلوب النبوة فى الرفق والحلم الكريم ، وان نقدم حسن الظن والموعظة الحسنة ، وان يكون الصعيد الذى نلتقى فيه هو صعيد الحجة من الكتاب والسنة ، لا صعيد الطائفية الذى لايبقى معه مجال لحجة مجردة او ميزان سليم .

إن سعيد بن يزيد حين ذكر العمل بالسنَّة ، فانما أراد بذلك أن يُقِرَّ فى ذاكرة المسلم النموذج العملى الذى يقتدى به ، بعد أن ذكر الحقائق الأولى من معرفة الله ومعرفة الحق وإخلاص العمل لله .

أما الخصلة الأخيرة وهى أكل الحلال ، فهى الثمرة الطبيعية لنشاط الحياة إذا استقام على الخصال الأربع الأولى ، وهو برهان الصدق فى الايمان والسلوك .

★ ★ ★

ولسعيد غير هذا الأثر الذى قدمنا ، كلام يتصل بكل هذه الخصال ...

روى عنه أحمد بن أبى الحوارى قوله : أصل العبادة عندى فى ثلاثة : لا ترد من أحكامه شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً ، ولا تسأل غيره حاجة .

وروى هو عن أبى خزيمة قوله : «القصد إلى الله بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال» .

وروى ابن أبى الحوارى أنه سمع اسحاق بن خالد يقول : ليس شىء أقطع لظهر إبليس من قول ابن آدم : ليت شعرى بماذا يُختم لى ؟ عندها ييأس ويقول : متى يُعجب هذا بعمله ؟ – فلما بلغ ذلك سعيد بن يزيد قال : واخطراه !

وروى سعيد عن الفضيل بن عياض أنه سئل : ياأبا على : متى ينتهى العبد من حب الله ؟ قال : إذا استوى عنده منعه وعطاؤه .

وروى عن ابن عيينه أنه سئل عن الزهد فقال : أن لايغلب الحلال شكرك ، ولا الحرام صبرك .

وسمعه بعض الناس يروى عن بعض أهل العلم : احذروا أن يغضب الله عليكم فيعطيكم الدنيا فانه غضب عن إبليس فأعطاه الدنيا وقسم له منها .

وسمعه آخرون يقول : لاتذهب الأيام والليالى حتى يعبد الدينار والدرهم من دون الله ، قيل له وكيف و قال : يدعوان إلى شىء ويدعو الله إلى شىء آخر فيتبع أمر الدينار والدرهم ؟

ومن أصدق ما قاله سعيد : من استعجلت عليه شهوته انقطعت عنه شواهد التوفيق .

يوسف الرازى

كان أبو بكر الرازى ممن اطلع على كتاب أبى يعقوب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد، وكان فى بغداد، فأعجب بحسن كلامه، واشتهى أن يراه. ولم يزل به الشوق حتى أخرجه إلى الرىّ لزيارته، فدخل عليه فيها بعد العصر.

قال أبو بكر: فلما وقعت عينى عليه امتلأت هيبة من رؤيته - وكان بين يديه مصحف يقرأ فيه - فسلمت عليه فرد السلام وقال: من أين أقبلت؟ قلت: من بغداد. فقال: وإلى أى شىء جئت؟ قلت زائرا إليك.

قال: لو قال لك بحلوان أو بهمدان رجل: تقيم عندى حتى أقوم بكفايتك، فأشترى لك جارية وداراً، أكان ذلك يمنعك من زيارتى؟ فقلت له: ما ابتليت بشىء من هذا؛ ولو كان بدا لى لا أدرى كيف كنت أصنع فى ذلك الوقت. فقال: أعيذك بالله! أنت كيِّس... وعسى أن تقول شيئاً؟ قلت: نعم. قال فأنشدني. فابتدأت فقلت:

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدَّمت ما تبنى..

فبكى يوسف حتى ابتل المصحف الذى بين يديه، ثم قال وهو لا يزال ينتحب: ما أجحد هذا القلب!.. يا بنىّ، أنا مّن الغداة أقرأ فى كتاب الله ولا أبكى، وأنشدت أنت فأنظر أى شىء وقع!..

★ ★ ★

إن التأثر الحقيقى لا يحتاج دائماً إلى الدمع الحاضر دليلا عليه. ومن الناس من لا يزال دمعه يحتقن فى الحوادث الجسام والكوارث العظام، وهى

تنهال متلاحقة عليه .. حتى إذا بدا له بعدُ أمر لا يكاد يثير دموعاً ، نشج وبكى ، وذرف الدمع السخين مدراراً ؛ وما كان من أجل هذا الأمر الذى بدا أخيراً كل تلك الدموع ، وان كان هو نفسه السبب فى فك الوكاء عن مذخورها الجيَّاش .

رحمك الله أبا يعقوب ! لقد جُرت على قلبك ، ومعاذ الله أن يكون جاحداً كما وصفته لمريدك الذى جاء يزورك من بغداد ... انك لم تزل بتلاوتك منذ الغداة تنقب عن تلك الدموع ، حتى إذا لم يبق بينك وبين نبعها الثَّرِّ الدفىء سوى حجاب رقيق ، زارك فى الله زائر فأنشدك ، فانبجس الدمع الفياض ! ..

★ ★ ★

وما لبث أن أقبل بعض الرفاق ، منهم أبو جعفر الرازى ، ومحمد بن الحسين ، ومحمد بن عبدالله وأحمد بن محمد بن عيسى ... فعرفهم بالزائر القادم من بغداد وأوسع بعضهم لبعض فى المجلس ، فقال يوسف : صدق ذو النون المصرى ، ما بَعُدَ طريق أدى إلى صديق ، ولا ضاق مكان من حبيب . هلموا أيها الأحباب !

وأخذ يوسف القوم بالحديث الشيق الذى يحيل المجلس إلى مأدبة ربانية .. وهو فى هيبته ونظراته الثاقبة صورة واضحة لمن صحب من أشياخه الكبار ، ذى النون المصرى ، وأبى تراب النخشبى وأبى سعيد الخراز ، صورة تذكر بما وصاه به ذو النون : « جالس من الناس من تقهرك هيبته وتخوفك فى السر والعلانية رؤيته ، ويخبرك عن نفسك بالذى هو أعلم به منك » .. تلك صفة المربى الحق ولا ريب !

وقال أبو جعفر : دلنا على طريق المعرفة يا أبا يعقوب .

فقال يوسف الرازى : أروا الصدق منكم فى جميع أحوالكم بعد أن تكونوا موافقين للحق ، ولا ترقوا إلى حيث لم يُرق بكم فتزل أقدامكم فإنكم إذا رقيتم سقطتم ، وإذا رقى بكم لم تسقطوا .. وإياكم أن تتركوا اليقين لما ترجونه ظناً .. ثم قال مطرقاً وقد أخذ بلحيته فى خشوع :

علم القوم بأن الله يراهم فاستحيوا من نظره أن يراعوا شيئاً سواه ؛ ومن ذكر الله بحقيقة ذكره نسي غيره ، ومن نسي ذكر كل شيء في ذكره حفظ عليه كل شي إذ كان الله له عوضاً من كل شيء .

★ ★ ★

ومالت شمس الأصيل تلقى أشعتها باردة مصفرة على جدار الغرفة من كوة غربية فيها . واستمر الحديث الروحى ، من حكم ومواعظ ، وأحاديث فى العلم والعمل ، والحكمة والزهد ، والدنيا والآخرة .. وفى معرض ذكر آفات العلم والعمل ، قال يوسف الرازى : فى الدنيا طغيانان طغيان العلم وطغيان المال والذى ينجيك من طغيان العلم العبادة ، والذى ينجيك من طغيان المال الزهد فيه .. أما الاعجاب فى العمل ، فيتولد من نسيان رؤية المنة فيما يجرى الله لك من الطاعات . نسأل الله العافية .

وانبرى أحمد بن محمد بن عيسى قائلا : هذه الشمس كادت تغيب ، وهذا إقبال الليل وإدبار النهار ، ألا تعلمنا دعاء نختم به نزهتنا هذه نقوم بعده لصلاة المغرب ؟ قال : بلى . ويحضرنى على ذكر العلم وآفاته قول ذى النون حفظه الله ، فى إحدى مناجاته : تكلمت خدع الدنيا على ألسنة العلماء ، وأماتت قلوب القراء فتن الدنيا . فلست ترى إلا جاهلا متحيراً ، أو عالما مفتوناً ، ثم دعاؤه :

.. فيا من جعل سمعى وعاء لعلم عجائبه ، وقلبى منبعاً لذكره ، ويا من منَّ على بمواهبه ، اجعلنى بحبلك معتصماً ، وبجودك متمسكاً ، وبحبالك متصلا ، وأكمل نعمتك على بدوام معرفتك فى قلبى كما أكملت خلقى : وسدِّدنى للتى تبلغنى إليك ، واجعل ذلك مضموماً إلى نعمائك عندى ، واهدنى للشكر حتى أعلم مكان الزيادة منك فى قلبى ، ولا تنزع محبتك من قلبى يا ذا الجلال والاكرام والجمال والنور والبهاء . والحمد لله أولا وآخراً .

فقالوا جميعاً : اللهم آمين ... وقاموا لصلاة المغرب .

★ ★ ★

وهيب بن الورد

مظلومة هذه «النفس الانسانية» بين صنفين من الناس، أحدهما هؤلاء الذين ضاقوا بحجب المادة فانطلقوا يضربون فى مجاهل الغيب على غير هدى، أو بدأوا بشعاع هاد لم يلبثوا ان شردوا عنه الى المفازة المهلكة وراء كل الحدود، والصنف الآخر هم هؤلاء الذين ضاقوا بهذا الشرود، ورأوه علة العلل فى كل ما أصاب الناس، فقاموا - وقد غلبهم رد الفعل - يضيقون على النفس الخناق، حتى لقد أحالوا ما جاء به القرآن من قيم روحية تهز النفوس الى مسائل علمية جامدة تتناطح عليها الرؤوس....

الأولون أطلقتهم حركة النفس العميقة الى عالم الغيب الذى تنتمى اليه، ولكنهم لم يلتزموا حدود ما أنزل الله فوقعوا فى أنواع من الأخطاء، والآخرون أمسكهم الخوف من الشرود حتى نفروا من كل كلمة تتصل بالنفس والروح ومعرفة الله، وحمَّلوها رغم أنف صاحبها كل ما صارت اليه أحوال الشاردين، فأوقعهم خوف الشرود فى شرود من نوع آخر، شرود عن أسلوب القرآن الذى يعالج النفس الانسانية بكل سبيل، بالرغبة والرهبة، والبشرى والنذير، والذى جعل الله آية الصدق فى الايمان به أن: «تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله»، وشرود عن أسلوب النبوة التى لم يكن يفوتها، بل كان همها الأول فى كل موقف، أن تراقب حركات النفوس، والتى جعل الله من رحمته رفقها بالنفوس «فيما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» وواضح

أن اللين هنا لا يعنى النزول عن حق ولا السكوت على باطل ، فما نزل الرسول ﷺ عن حق ولا سكت على باطل ، وانما هو أداء دعوة الحق بأرفق أسلوب ، والصبر على ضعف الناس صبرا لا يقف عند العفو عنهم ، بل يتجاوزه الى الاستغفار لهم ومشاورتهم فى الأمر «فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر» – واذا كان ذلك شأنه ﷺ مع الذين رُبّوا فى حجره والقرآن ينزل غضاً ندياً ، فأولى بذلك امته بعد ان أنهكها فعل القرون ونقص المربين .

★ ★ ★

ونحن فى هذا الباب «مع العارفين» نحاول أن نسد الفراغ بين الشرودين ، وأن نتلمس للنفس زادها السليم الرائق من كل ما وافق الكتاب والسنة ، متحررين من كل الاصطلاحات التى ابتكرها المتأخرون ، متحرّين الخير دون تقيد بنزعة خاصة فى شخص أو فى فئة ، مؤثرين أن نسمى هذا الخير بأسمائه التى عرفه بها المسلمون الأولون ، ولذلك فان من الحق أن نقرر ان هذا الباب ليس تأريخاً للرجال الذين يتناولهم الحديث فيه ، ولكنه قطوف من سيرهم نتخيرها بمقدار ، ونستعين بها فى تجلية المعانى الكريمة التى أكرمهم الله بها فكانت أخلاقهم وأقوالهم صوراً مشرقة لها .

★ ★ ★

رجلنا اليوم هو وهيب بن الورد ، عالم مكة وواعظها .

روى محمد بن يزيد ، قال وهيب : لو ان علماءنا عفا الله عنا وعنهم ، نصحوا لله فى عباده فقالوا : يا عباد الله ، اسمعوا ما نخبركم عن نبيكم ﷺ وصالح سلفكم فاعملوا به ، ولا تنظروا الى أعمالنا هذه الفاسدة ، كانوا قد نصحوا لله فى عباده ، ولكنهم يأبون إلا أن يجروا عباد الله الى فتنتهم وما هم فيه !

وذلك قول حق ، وأسلوب فى وعظ العلماء لاذع فريد ، لو ألقوا اليه بالا

لأدركوا عظم مسئوليتهم وتورعوا عن كثير، ولو ألقى الناس اليه بالا لحجزهم عن فتنة قاسية وشر كبير، ومن قبل قال رسول الله ﷺ «شر الناس العلماء اذا فسدوا»!

ويعظ وهيب الناس فرادى وجماعات، فتجده فى كل ما أثر عنه محجة واضحة، يلتزم فيها الميزان الدقيق بين الواجبات، ولا يفوته أن يسبر الغور الى حقائق النفوس والاعمال فى كل توجيه.

يُسأل عن الزهد، فيجيب «الزهد فى الدنيا أن لا تأسى على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها» – وهو فى ذلك يجعل حقيقة الزهد فى القلب لا فى اليد، فقد يكون المرء فقيراً معدما، وهو أبعد ما يكون عن الزهد: لأن فى قلبه حزنا على ما فاته من متاع الدنيا، وقد تكون يد المرء ملأى بالخير الحلال وهو من خير الزاهدين: ما دام قلبه غير مغتر، وبهذا التحديد لمعنى الزهد ينطلق نشاط الحياة، ويصبح نشاط الزاهد أقوى من كل نشاط، لأنه نشاط لا يرده اليأس اذا فشل، ولا يهدده الغرور اذا نجح، لأن وراءه فى الحالين قلبا موصولا بالله، لا يأسى ولا يفرح لمتاع الحياة.

وينصح بعض الناس قائلا «إن استطعت ألا يشغلك عن الله تعالى أحد فافعل»، فتظنه يدعو الى عزلة، ولكنك لا تلبث أن تسمعه يرد على رجل جاءه يقول له «يا وهيب، إن الناس قد وقعوا فيم وقعوا فيه، وقد حدثت نفسى ألا أخالطهم» فيجيب وهيب: «لا تفعل فانه لابد للناس منك ولابد لك من الناس، لهم اليك حوائج، ولك اليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعا، وأعمى بصيرا، وسكوتا نطوقا» – وذلك هو الفقه الاجتماعى السليم الذى يرى العزلة ضعفا يضر المجتمع ولا يفيده، ويدعو كل واحد الى أن يأخذ مكانه، والى أن يقول الخير ويفعله، وينكر الشر ويعتزله، وهو بذلك يمكّن للخير فى مجتمعه، ويجاهد الشر فى صميم المعركة، وإلا فلا خير منه ولا فضل له....

ويكثر وهيب من الحديث عن الصمت والحض عليه ، ولكنه الصمت الواعى المتحفز لما أمر الله به ، فهو القائل «إن العبد ليصمت فيجتمع له لبه» ، وهو كذلك القائل «لقى رجل فقيه رجلا هو أفقه منه ، فقال له : يرحمك الله ما الذى أعلن من عملى ؟ قال «الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فانه دين الله الذى بعث به أنبياءه ، صلوات الله عليهم ، الى عباده ، وقد قيل فى قول الله عز وجل وجعلنى مباركا أينما كنت : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أينما كان !» .

ويروى عنه عمرو بن محمد بن ابى رزين قوله «لا يكن همّ احدكم فى كثرة العمل ، ولكن ليكن همه فى إحكامه وتحسينه ، فان العبد قد يصلى وهو يعصى الله فى صلاته ، وقد يصوم وهو يعصى الله فى صيامه» – وإنك لتقرأ له ذلك ثم لا تلبث أن تجد مصداقه فيما رواه أبو محمد عبدة بن عبدالله عن جده ابى صالح ، قال : صليت الى جنب وهيب العصر ، فلما صلى جعل يقول : اللهم إن كنت نقصت منها شيئا أو قصرت فيها فاغفر لى – قال : فكأنه قد اذنب ذنبا عظيما يستغفر منه !

ولا تتخلف – فى كل ما قرأناه له – هذه اليقظة فى تمحيص الاعمال والحقائق وراء المظاهر التى قد تغرّ صاحبها أو تخدع الناس ، فهو مرة يقول «لا تسب ابليس فى العلانية وأنت صديقه فى السر» ، ومرة يقول «لو قمت قيام هذه السارية ما نفعك حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال أم حرام» ! ويأتيه سائل يسأله : أيجد طعم العبادة من يعصى الله ؟ فيكون جوابه : لا ، ولا من همّ بمعصيته ! ويأتيه آخر ضاقت به الدنيا يتحدث عن الزهد ، فيقول له وهيب «لا تحمل سعة الاسلام على ضيق صدرك» !! ويجيء ثالث يقول : عظنى يا وهيب ، فيقول له : إتق أن يكون الله أهون الناظرين اليك ! – وإنها لعظة تبرز للعاصى عظم معصيته حين يخاف الناس جميعا فيتخفى عنهم بمعصيته ولا يخاف عين الله الناظرة اليه «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم» !

ويكشف لك عن السر فى سلامة هذه النفس الكبيرة وجمال ما أثر عنها ، قول وهيب نفسه «نظرنا فلم نجد شيئا أرق لهذه القلوب ، ولا أشد استجلابا للحق من قراءة القرآن ثم تدبره» ، وروايته : «قيل لرجل ألا تنام ؟ قال : «عجائب القرآن أذهبت نومى» والله وحده أعلم عمن روى!

★ ★ ★

ولوهيب في وعظه طرائف من الآثار رواها وأثرت عنه :

روى عنه محمد بن يزيد «بلغنا ان الخبيث إبليس تبدَّى ليحيى بن زكريا عليه السلام فقال له : انى اريد أن أنصحك ! فقال : كذبت ، أنت لا تنصحنى ، ولكن أخبرنى عن بنى آدم ، فقال هم عندنا على ثلاثة أصناف ، أما صنف منهم فهم أشد الاصناف علينا ، نقبل عليه حتى نفتنه ونستمكن منه ثم يفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شىء أدركنا منه ، ثم نعود له فيعود ، فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن من ذلك فى عناء . وأما الصنف الآخر فهم فى أيدينا مثل الكرة فى أيدى صبيانكم نلقيهم كيف شئنا ، فقال له يحيى : على ذلك هل قدرت منى على شىء ؟ قال : لا ، إلا مرة واحدة قدِمت الى طعام تأكله ، فلم أزل أشهيه اليك حتى أكلت أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ولم تقم الى الصلاة كما كنت تقوم اليها ! فقال له يحيى : لا جرم لا شبعت من طعام أبدا حتى أموت . فقال له الخبيث : لا جرم لا نصحت آدميا بعدك !

وروى عنه كذلك : بلغنا انه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه اللذان كان يحفظان عليه عمله فى الدنيا ، فان كان صحبهما بطاعة قالا له : جزاك الله عنا من جليس خيرا ، فرب مجلس صدق قد اجلستناه ، وعمل صالح قد احضرتناه ، وكلام حسن قد اسمعتناه ، فجزاك الله عنا من جليس خيرا . وإن كان صحبهما بغير ذلك مما ليس لله برضى ، قلبا عليه الثناء فقالا :

لا جزاك الله عنا من جليس خيرا ، فرب مجلس سوء قد أجلستناه ، وعمل غير صالح قد أحضرتناه ، وكلام قبيح قد اسمعتناه ، فلا جزاك الله عنا من جليس خيراً .

وقال خالد بن يزيد العمرى ، سمعت وهيب بن الورد يقول : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات :

تراه مكيناً وهو للهو ماقت ... به عن حديث القوم ماهو شاغلُهْ
وأزعجه علم عن الجهل كله ... وما عالم شيئاً كمن هو جاهلُهْ
عبوس من الجهال حين يراهم ... فليس له منهم خدين يهازلُهْ
تذكَّر ما يَلقى من العيش آجلا ... فأشغله عن عاجل العيش آجلُهْ

★ ★ ★

وقد أدرك وهيب بن الورد «المكى» من التابعين جماعة . فمن روى عنهم من التابعين عطاء بن اى رباح ، ومنصور بن زاذان ، وأبان بن أبى عياش ومحمد بن زهير .

ومما رواه عنه عبدالله بن المبارك ، ان رسول الله ﷺ قال : «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» .

★ ★ ★

؟

بينما المنصور يطوف حول الكعبة فى الليل اذ سمع قائلا يقول : اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الارض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع ! فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل الى الرجل يدعوه ؛ فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، واقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الارض ، وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضنى .

فقال : ان أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالامور من أصولها ، والا احتجزت منك واقتصرت على نفسى فلى شاغل .

قال : فأنت آمن على نفسك فقل .

فقال : ياامير المؤمنين ، ان الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر فى الارض من الفساد والبغى لأنت !

فقال : فكيف ذلك ويحك ! يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى ؟

قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ ان الله استرعاك أمر عباده

وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وابوابا من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جباية الاموال وجمعها ، وأمرت ان لا يدخل عليك أحد من الرجال الا فلان وفلان ، نفرا سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وامرت ان لا يحجبوا دونك ، تجبى الاموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه ! فائتمروا ان لا يصل اليك من علم اخبار الناس شىء الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم الا خونوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته عندك ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ؛ عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وانت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينك وبينه ، فان أراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، واوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فان جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم ان لا يرفع مظلمته اليك ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ، فاذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بين يديك ، فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فما تنكر ! فما بقاء الاسلام على هذا ؟ وقد كنت يا امير المؤمنين أسافر الى الصين ، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه ، فبكى بكاء شديدا ، فحثه جلساؤه على الصبر ، فقال : اما انى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكنى أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا اسمع صوته ، ثم قال : أما اذا قد ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ان لا يلبس ثوبا أحمر الا متظلم . ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلوما ، فهذا يا امير المؤمنين

مشرك بالله ، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ ، وانت مؤمن بالله من اهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فان كنت انما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرا فى الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الارض مال ، وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس اليه . ولست الذى تعطى ، بل الله تعالى يعطى من يشاء ما يشاء . فان قلت انما تجمع المال لتشديد السلطان ، فقد أراك الله عبرا فى بنى أمية ، فما اغنى عنهم جمعهم من الذهب وما اعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد . وان قلت انما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها . فوالله ما فوق ما انت فيه الا منزلة ما تدرك الا بخلاف ما انت عليه يا أمير المؤمنين . هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟

فقال المنصور : لا .

فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك ملك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الاليم ! قد رأى ما عقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك ، ونظر اليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت اليه رجلاك . هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يدك ودعاك الى الحساب ؟

قال : فبكى المنصور ، ثم قال : ليتنى لم أخلق ! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟ فقال : يا امير المؤمنين ، ان للناس اعلاما يفزعون اليهم فى دينهم ، ويرضون بهم فى دنياهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك .

قال : قد بعثت اليهم فهربوا منى .

قال : خافوك ان تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ،

وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفيء والصدقات على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها ، وأنا ضامن عنهم ان يأتوك ويساعدوك على صلاح الامة .

وجاء المؤذنون فآذنوه بالصلاة ، فصلى وعاد الى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد !

من حياة ابن تيمية

كان ذلك فى رمضان سنة ٧٠٥ من الهجرة، فلم تشفع حرمة رمضان للمهاجر الصادع بما يعتقد، ولا ردعت المكابرين من اشياخ مصر عن زج ضيفها احمد بن تقى الدين «ابن تيمية» فى السجن ظلما وبهتانا ...

وقد سبقت ذلك دعوة من مصر تلقاها «ابن تيمية» فى الشام، اثر ذيوع صيته ذيوعا اثار عليه حفيظة حاسديه ومناجزيه من العلماء، واثر ندوات عقدها مع مخالفيه، حاججهم فيها وحاججوه، فظهر رأيه وافحمتهم حججه وأقروه عليه اقرارا تسامع به الناس فازدادوا التفافا حول شيخهم «تقى الدين».

وكأنما خشى اصحاب الدعوة من علماء مصر الذين زينوا الامر للسلطان الناصر ان يتحسب منها عالم الشام، فضمنوا كتابها: «انا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين بن تيمية، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس، وانه على مذهب السلف، وانما اردنا لذلك براءة ساحته مما نسب اليه». ثم أردفوه بكتاب آخر يستعجل التلبية مع اول بريد متجه الى مصر. ولكن والى الشام توجس خيفة من ذلك، فأشار عليه الا يذهب، آخذا على نفسه ان يكتب هو (الوالى) الى السلطان بما يصلح الامر ويعفى من الرحلة التى لا تؤمن عواقبها. فلم يكن من ابن تيمية الا ان حزم امره على السفر، غير مبال بالمحاذير او متأثر باشفاق المشفقين، وانما فعل ذلك لما بدا له فى الرحلة من فرص الخير وتفتح آفاق الدعوة بعد اذ استقرت، او كادت، فى ديار

الشام ، ومما قاله فى ذلك للوالى : «ان فى ذهابه مصلحة كبيرة ومصالح كثيرة»[1] .

وكان وصوله الى القاهرة على موعد مع ما اعده له خصومه من مؤامرة بيتوا امرها بليل ، وقد جعلوا مسرحها «القلعة» حيث عقدوا مجلسا حشدوا له القضاة وكبار رجال الدولة ، فلما أراد الكلام حالوا بينه وبينه لما يخشون من منطقه وقوة حجته وتأثيره فى النفوس ، وانبرى زين الدين بن مخلوف قاضى المالكية يتحداه فيما اشتهر من آرائه ويتهمه بالانحراف فى عدة قضايا . «فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه ، فقيل له أجب ولا تخطب ! فعلم انها المحاكمة ، لا المجادلة ، فقال : من الحاكم فى ؟ فقيل له القاضى المالكى ، فقال له الشيخ : كيف تحكم فى وانت خصمى ؟! فغضب غضبا شديدا وانزعج ، وحبس الشيخ رحمه الله ، وآل امره رضى الله عنه الى الحبس المعروف بالجب ، وشاركه فى محبسه اخواه شرف الدين وزين الدين .»[2] ولم يسلم من الاذى والاضطهاد والمهانة حنابلة مصر جميعا .

ولبث ابن تيمية فى السجن سنة ، حتى اذا كانت ليلة الفطر من عام ٧٠٦ ، تحرك الامير سلار حاكم القاهرة فنشط لاطلاق سراحه ، ولعل مما اثار حميته فى ذلك ما يعلمه من سابقة الشيخ السجين فى مجاهدة خطر التتار بلسانه ودأبه ثم فى جهاد جيوشهم بسلاحه ونفسه على خط النار ، وجمع جمعا من الفقهاء منهم القضاة الثلاثة : المالكى والحنفى والشافعى ، وأهاب بهم إلى معاونته فى الامر وابراء ذمتهم ، فسكت بعضهم – حياء من الامير لا من الله ! – وتكلم آخرون ، واشترط المتكلمون ان «يتعهد الشيخ بالرجوع عن بعض ما اعلن من العقيدة ، فوافق المجتمعون على ذلك وارسلوا اليه ليحضر ويكلموه ، فامتنع رضى الله عنه لانه علم انهم ليسوا طلاب حجة حتى يقتنعوا ،

---

(١) ابن كثير جـ ١٤ ص ٣٨ .

(٢) ابن تيمية ، لمحمد أبى زهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ ، ص ٥٦ .

وهو يريدون ان يفرضوا عليه ما لم يره، وتكررت الرسل اليه ست مرات، فصمم على عدم الحضور اليهم، ولم يلتفت الى دعوتهم، فتفرقوا وبقى السجين فى سجنه، وقال ابن كثير فى شأنهم بعد ذلك: «تفرقوا غير مأجورين»(١).

ولا غرابة فى ان يرفض الداعية الاسير عرض المساومة على الرأى سبيلا الى فك الاسار، وان يتكرر منه ذلك ست مرات، بل الغريب ان يقبل مثله مناقشة تدور فى ظل السيف المشرع وبين السلاسل والاغلال، ومع الذين خبرهم اهل هوى لا يحكمهم الحق ولا ينشدون الصواب!

وفى الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة ٧٠٧، قصد الى السجن الامير المؤمن «عيسى بن مهنا»، الشامى فأقسم على ابن تيمية ليخرجن غير مشروط عليه ولا مقيد فى رأيه بقيد، وكان الامير قد اتخذ للافراج عدته واستأذن اولى الامر فيه.

وفى دار نائب السلطنة بالقاهرة، يوم انطلق من سجنه، دعا الشيخ الحر أهل العلم الى مناظرة على ملأ، فأبطأ من أبطأ وتخلف القضاة معتذرين بأعذار، ولم يكتمل مجلس المناظرة الا بعد يومين، حاججهم فيه الفقهاء فغلبتهم قوة حجته واستقامة منطقه واصالة علمه الغزير.

★ ★ ★

هذا الجانب الصارم من خلق ابن تيمية، كانت تواكبه جوانب اخرى مضيئة من صفاء الروح ورقة القلب وسمو العاطفة. يكشف لك عن ذلك رسالتان كتبهما اثر خروجه من سجنه، احداهما الى دمشق يبرأ فيها من ان تضمر نفسه سوءا لكل من اساء اليه، والاخرى الى امه يهدهد بها من نفسها وشوقها اذ اختار التريث فى مصر بعد ان فتح الله فيها آفاقها مشرقات.

---

(١) ابن تيمية، لمحمد ابى زهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٨، ص ٥٨.

قال فى رسالته الى الشام .

«تعلمون ، رضى الله عنكم ، انى لا احب ان يؤذى احد من عموم المسلمين ، فضلا عن اصحابنا ، بشىء اصلا ، ظاهرا وباطنا ، ولا عندى عتب على احد منهم ، ولا لوم اصلا ، بل لهم عندى من الكرامة والاجلال والمحبة والتعظيم اضعاف ما كان ، كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل اما ان يكون مجتهدا ، او مخطئا ، او مذنبا فالاول مأجور مشكور ، والثانى مع اجره على الاجتهاد معفو عنه ، والثالث فالله يغفر لنا وله ، ولسائر المؤمنين» .

وقال فى رسالته الى امه ، رحمها الله .

«من احمد بن تيمية الى الوالدة السعيدة ، أقر الله عينيها بنعمه ، وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من امائه وخدمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

اننا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، وهو للحمد اهل ، وهو على كل شىء قدير ، ونسأله ان يصلى على خاتم النبيين وامام المتقين ، محمد عبده ورسوله ﷺ ، وعلى آله ، وسلم تسليما .

كتابى اليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة ، وآلاء جسيمة ، نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت فى نمو وازدياد ، وأياديه جلت عن التعداد .

وتعلمون ان مقامنا الساعة فى هذه البلاد انما هو لامور ضرورية متى أهملناها فسد علينا امر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا اليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على باطن الامور ، فانكم ولله الحمد ما تختارون الساعة الا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرا واحدا ، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم ،

وادعوا لنا بالخيرة ، فنسأل الله العظيم ان يخير ـنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية .

وقد فتح الله من ابواب الخير والرحمة ، والهداية والبركة ، ما لم يكن يخطر بالبال ، ولا يدور في الخيال . ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظن الظان انا نؤثر على قربكم شيئا من امور الدنيا قط ، بل لا نؤثر من امور الدين ما يكون قربكم ارجح منه ، ولكن ثم امور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من اهمالها ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب .

والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة ، فان الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر ، وهو علام الغيوب ، وقال النبي ﷺ : «من سعادة ابن آدم استخارته الله ، ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله ، وسخطه بما يقسم الله له ... والتاجر يكون مسافرا ، فيخاف ضياع ماله ، فيحتاج ان يقيم حتى يستوفيه ، وما نحن فيه امر يجل عن الوصف ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كثيرا ، كثيرا ، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار ، والاهل والاصحاب ، واحدا واحدا . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما» .

★ ★ ★

هذه النفس الكبيرة التي تبلغ في البأس هذا المبلغ الصارم لا تخشى في الله لومة لائم ، والتي تنبض في خوالجها وتنسكب من جنباتها أعز المشاعر ، انما كانت تصدر في بأسها ورقتها عن صلة بالله عامرة متجددة ، فحفظ لها ذلك – في حاليها من البأس والرقة – نضارة الروح وحلاة اليقين واستواء السبيل وبركة المسعى . يقول الذهبي ، احد معاصري ابن تيمية ، في وصفه .

«.... ولم أر مثله فى ابتهالاته واستعانته بالله وكثرة توجهه» ، ويروى احد الذين حضروا لقاءه — فى وفد المسلمين — بقازان سلطان التتار وقائد جيوشهم : «كنت حاضرا مع الشيخ ، فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله فى العدل ، ويرفع صوته ، ويقرب منه ... والسلطان مع ذلك مقبل عليه ، مصغ لما يقول ، شاخص اليه ، لا يعرض عنه ، وان السلطان من شدة ما اوقع الله فى قلبه من الهيبة والمحبة سأل : من هذا الشيخ ؟ انى لم أر مثله ، ولا اثبت قلبا منه ، ولا اوقع من حديثه فى قلبى ، ولا رأيتنى اعظم انقيادا لأحد منه ! — فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل .»[١] .

وصاحب هذه النفس الكبيرة ، الموصولة بالله ، لم يكن يمنعه خلق البأس من ان يلين حيث يكون اللين احفظ لمصالح المسلمين ، ومعروفة فى ذلك قصته اذ مر فى نفر من اصحابه بجماعة من التتار يشربون الخمر ، فغضب اصحابه لما يرون من الجهر بالمنكر وهموا بردع مرتكبيه ، فاذا هو يحجزهم عن ذلك قائلا : «دعوهم فى خمرهم فان ذلك يشغلهم عن قتل المسلمين !» ، كما ان العاطفة الرحيمة لم تكن لتنال من حزمه الواجب حين تحتدم الخطوب ويؤثر الناس العافية ويتعللون بالمعاذير ، فقد كان من امره حين هاجم التتار الشام وانتشر الفزع بين المسلمين وارجف دعاة الخذلان باسم الدين : كيف نقاتل المسلمين ؟! انه تصدى للفتنة يثبت العزائم ويطارد المخذلين ، واعلن فى الناس حكم الاسلام فى التتار المعتدين . «هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على على ومعاوية ، ورأوا انهم أحق بالامر منهما ، وهؤلاء يزعمون انهم أحق باقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصى والظلم ، وهم متلبسون بما هو اعظم منه بأضعاف مضاعفة .... اذا رأيتمونى فى ذلك الجانب وعلى رأسى مصحف فاقتلونى» .

---

(١) القول الجلى ، فى ضمن مجموعة من المناقب ، ص ١٦٢ — (نقلا عن المصدر السابق)

واذا كان عجبا ان تجزى مصر ابن تيمية بالسجن بعد مؤامرة القلعة ، فى رمضان سنة ٧٠٥ ، وهو الذى جاءها قبل ذلك بسنين قلائل يستنفر سلطانها الناصر الذى عاد بجنده من الشام كى يرجع اليها لمجاهدة التتار وفاء بواجب النصرة الذى فرضه الله ، ولم يزل به وبأمرائه حتى اشتدت عزائمهم فنفروا وكان ما كان من النصر الباهر الذى اعتزت به مصر عند الله والناس ، فقد كان ابلغ فى العجب ، وانكى فى الفجيعة ، ان تفعل الشام فعلة مصر فتسجن بطلها الشيخ فى قلعة دمشق فى شعبان سنة ٧٢٦ ، وقد اوفى اذ ذاك على الخامسة والستين ، وان تبلغ محنة الفكر ونكسة الاخلاق حد حرمان مثله من القراءة والكتابة ، فتنتزع السلطات – فى جمادى الآخرة سنة ٨٢٨ – كل ما كان فى غرفته فى السجن من كتب واوراق ومحابر واقلام ، ويقضى الرجل العظيم خمسة اشهر سجين هذا العنت بأيدى المسلمين الذين وهب لهم – بعد الله – حبة قلبه وخالصة نفسه وعمره وصفحة من أعز تاريخهم فى مجاهدة الظلم والخرافة والجمود ، الى ان وفاه المحتوم فى سجن القلعة فى العشرين من شوال سنة ٧٢٨ .

على ان شأن ابن تيمية فى سجن دمشق لم يختلف عن شأنه فى سجن القاهرة ، فهو هنا وهناك «النفس المؤمنة الكبيرة» التى تشهد فى المحن سنة الله فى ابتلاء العاملين ، وتتعزى عن شدتها بما ادخره سبحانه للصادقين ، بل لكأنما كان عند سجنه الاخير يحس اقتراب الاجل فاستبشر بخلوة يستكمل فيها ما شغلته عنه شواغل الكفاح من الكتابة والتصنيف ، فقد تهللت أساريره يوم سيق الى قلعة دمشق وقال لبعض اصحابه «انا كنت منتظرا ذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة» .

وكان من آخر ما كتبه ، بالفحم ، فى شهور العنت والضيق : «وكانوا قد سعوا فى الا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ... ولم يمكنهم ان يظهروا علينا عيبا فى الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم انه خالف

مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائنا من كان اذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب ، بل لا تجوز طاعته فى مخالفة امر الله ورسوله باتفاق المسلمين » .

رضى الله عنه وارضاه وجزاه الجزاء الاوفى .

بلال بن رباح

فى ركب النبوة ... حين كان ينزل جبريل

وفى صفوة أهل الحق .. أيام كان بينهم «محمد» ﷺ ....

أخذ العبد الحبشى «بلال» مكانه فى السابقين ، لم يمنعه أنه عبد من أن يحرر روحه لله ، ومن أن يكون خازن رسول الله ، ومؤذنه للصلاة ...

لم يسلم لمغنم دنيوى تبدّى له فى دعوة محمد ، ولكنه أسلم والبلاء ينزل حوله بكل من أسلم !

كانت «لاإله إلا الله» ثورة أشعلتها العقيدة ، ثورة على ظلم الإنسان لنفسه : حتى لا يعبد هواه من دون الله ، وثورة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان : حتى يقوم الناس بالقسط لله رب العالمين ... ثورة على الظُلمين فى كل أبيض وأسود .. فسرعان ما وجدت جنديها فى هذا العبد الحبشى الأسود : وقد كان فى ظلمه لنفسه أخف حملا ، وفى ظلم الناس له أوفر نصيباً ...

كان من أول سبعة أظهروا الإسلام ، ولقى من العذاب مالم يلقه غيره ، وثبت ثباتا لم يقدر عليه غيره من الأحرار ...

يقول عبدالله :

«أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ؛ فأما رسول الله فمنعه تعالى بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد» ثم صهروهم فى الشمس . فما منهم أحد إلا واتاهم

على ما أرادوا : إلا بلالاً ، فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول ... أحد ... أحد ....» .

لماذا خصوه هكذا بالعذاب أن يتطاول إلى عقيدة تخالف عقائدهم ؟

إنهم استكبروا على هذا العبد أن يتطاول إلى عقيدة تخالف عقائدهم ؟

أم لأنهم استهانوا به فأفرغوا فيه غيظهم وشفوا منه الغليل ؟!

أما الأولى فقد زادها ثباته اشتعالا ، وأما الثانية فقد ردها الله عليهم حين اشتراه أبو بكر فأعتقه ؛ يقول إسماعيل بن قيس : اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة بخمس أواق ذهبا ، فقال له المشركون : لو أبيت إلا أوقية واحدة لبعناكه .

قال : «لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته» ، ففغروا أفواهم دهشاً وغيظاً !!

★ ★ ★

وآثره النبى بثقته طول حياته ؛ وحين تثق النبوة فقد وثقت السماء ... وحسبه ذلك فضلا لا يؤتيه الله إلا من أحب !

. جعله ﷺ وسلم خازنه على ماله .. وفى ذلك يقول عبدالله الهوزانى : «لقيت بلالا فقلت يابلال : حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ ؟ فقال : ما كان له شيء ، كنت أنا الذى ألى ذلك منذ بعثه الله عز وجل حتى توفى ، وكان إذا أتاه الرجل المسلم فرآه عاريا يأمرنى به ، فأنطلق فأستقرض وأشترى البردة وأكسوه وأطعمه» .

كان خازنه على ماله ... وأية خزينة هذه ... إلا خزينة التجرد والعفاف والخلق الرضى ؛ دخل عليه رسول الله ﷺ فوجد عنده صبراً من تمر ، فقال

ما هذا يابلال؟ قال: يارسول الله ادَّخرته لك ولضيفانك، قال: «أما تخشى أن تكون له سجار من النار؟ أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا»!- ويقول ﷺ فيما يرويه أنس. «لقد أُخفت فى الله تعالى وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علىّ ثلاثون من يوم وليلة مالى ولا لبلال طعام يأكله أحد إلا شىء يواريه إبط بلال».

عاش هكذا فى حجر النبوة، واتصل هكذا بخلق النبى، فلا تعجب إذا رأيت الرسول يطالبه بما يطالب به كثيرين غيره، فيقول له: «يا بلال مت فقيراً ولا تمت غنياً» يقول له ذلك وهو القائل ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» ولكنها خصوصية أولاها للذى خصه الله بصحبته، وميزان عالٍ يعامل به أقرب أصحابه إليه؛ كأن ضريبة القرب من قيادة الأنبياء أن تعطى ولاتأخذ، وأن تمضى إلى الله خفيفاً!!

سأله بلال بعد أن قال له: «يابلال مت فقيراً ولا تمت غنياً»: فكيف لى بذلك يارسول الله؟ قال. «مارزقت فلا تخبأ، وما سئلت فلا تمنع» فقال يارسول الله كيف لى بذلك؟ قال: «هو ذلك أو النار».

★ ★ ★

كان رضى الله عنه رقيق القلب، صافى السريرة، دائم الصلة بالله.. يقول ﷺ: «سمعت فى الجنة خشخشة أمامى، فقلت من هذا؟ قالوا: «بلال» فأخبره، ثم قال لبلال: «بم سبقتنى إلى الجنة؟» قال يا رسول الله: ما أحدثت إلا توضأت، ولا توضأت إلا رأيت أن لله تعالى علىّ ركعتين فأصليهما ...

كان فى كل صحوته عل وضوء، وذلك يكشف لك عن حاله مع ربه!!

★ ★ ★

وكان ندى الصوت ، وكان رسول الله يحب صوته ، وأكرمه الله فى ذلك بمكرمة ماسبقه بها أحد ، فهو أول من أذّن فى الإسلام ، وهكذا ارتفع صوت الإسلام أول ما ارتفع من فم عبد حبشى أسلم : من فم بلال ، حتى يدرك فضله ، وحتى يعلموا أن ليس لأبيض على أسود فضل !

★ ★ ★

فلما كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، تجهز بلال ليخرج إلى الشام . فقال له أبو بكر : ما كنت أراك يابلال تدعنا على هذا الحال ، لو أقمت معنا فأعنتنا . قال : إن كنت إنما أعتقتنى لله تعالى فدعنى أذهب إليه ، وإن كنت إنما أعتقتنى لنفسك فاحبسنى عندك ؛ فأذن له فخرج إلى الشام فمات بها !

رضى الله عنه وأرضاه فى الجنة .

وألحقنا به فى الصالحين .

طاوس اليمانى

[إنى لأظن طاوساً من أهل الجنة]
« ابن عباس »

أما طاوس الفقيه ، فهو من يعرف رواء الفقه ... واحد من فقهاء المدينة السبعة الكبار ، ومن أجله التابعين ، وقد روى عن رسول الله ﷺ من أندى الأحاديث التى تجد فيها ريح النبوة ؛ ولا عجب ، فقد اتصل بها عن طريق عدد من الصحابة نهلوا من نبعها الصافى الصريح . قال طاوس : «أدركت خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ» .

هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان ؛ أول الطبقة من أهل اليمن ؛ وكأنه جاء تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ : «أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ، وألين قلوباً ؛ الإيمان يمان ، والحكمة يمانية ..»[1] .

تجد فيه لين القلب ورقة الفؤاد .

وتحس فيه الإيمان الذى يحكم الأعصاب ويستولى على الجوارح .

وتلمس فيه الحكمة السهلة حية قريبة المنال .

---

(١) اخرجه الثلاثة والترمذى .

أما لين قلبه ورقة فؤاده فتمثلها خشيته التى نصب لها من الظواهر العادية التى يمر بها أى إنسان فلا تحرك فيه ساكناً ، ولايثير منظرها فيه خفقان قلب – من هذه الظواهر العادية اتخذ طاوس لخشيته معالم تتضافر على تذكيره كل حين بالآخرة والحساب ، والنار والعذاب . قال عبدالله بن بشر : إن طاوساً اليمانى كان له طريقان إلى المسجد ، طريق فى السوق وطريق آخر ؛ فكان يأخذ فى هذا يوماً وفى هذا يوماً ؛ فإذا مر فى طريق السوق فرأى تلك الرؤوس المشوية لم ينعس تلك الليلة !

ويمثل طاوس الهلع من نار جهنم تمثيلاً طريفاً فيقول : لما خُلقت النار طارت أفئدة الملائكة ، فلما خُلق آدم سكنت أفئدتهم ...

وإنه ليحاسب نفسه على أنين المرض يعتبره كلاما يحاسب عليه فيقول : «ما من شىء يتكلم به ابن آدم إلا أُحصى عليه حتى أنينه فى مرضه» وهذا غاية الدقة فى المقاييس التى اقامها لنفسه فى مراقبة الله عز وجل .

ولعل هذه الخشية فى طاوس أثر مباشر لحديث رواه طاوس نفسه عن عائشه رضى الله عنها ، قالت : «كان النبى ﷺ إذا رأى مَخْيَلَةً[1] تغير وجهه ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّى عنه ، فذكرت له ذلك فقال : ما أمنت أن يكون كما قال الله عز وجل : «فلما رأوه عارضاً مستقبِلَ أوديِتِهم قالوا هذا عارضٌ مُمْطِرُنا ، بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليمٌ» .

إلا أن هذه الخشية التى تقضُّ المضجع وتنفى عن العين الكرى ، لا تقنع طاوساً ، بل لايراها خشية ذات غَنا . قال دواد بن شابور . قال رجل لطاوس : ادع الله لنا . قال : ما أجد فى قلبى خشية فأدعو لك !!

---

(١) المخيلة السحابة تخالها ماطرة لرعدها وبرقها .

وهى خشية العارف التى لاتشوبها شائبة من خرافة، أو تخامرها هنة من تطير . فقد روى أن رجلا كان يسير مع طاوس فسمع غراباً فقال : خير ! فقال طاوس : أى خير عند هذا أو شر ؟ لا تصحبنى !!

وإذا أحببت أن تعلم دقة مقاييسه ورهافة حسه فاسمعه يحدثك : إن الملائكة ليكتبون صلاة بنى آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا، وفلان نقص كذا وكذا، وذلك فى الخشوع والركوع ... إن لين قلبه ورقة فؤاده تجدها متجاوبة مع ماروى من أحاديث رسول الله ﷺ وسلم عن تلاوة القرآن . روَى عن ابن عباس «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به» وعن ابن عباس أيضاً «سئل النبى ﷺ : من أحسن الناس قراءة ؟ قال : من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله» .

وإذا عرفت أن طاوساً حج أربعين حجة، علمت مقدار شغفه رضى الله عنه بهذا المنسك العظيم . ولقد كان يشهده فى إقبال على الله وتمتع بعبادته . وإنك لتجد استمتاعه بالحج بيّناً فى قول ابنه عبدالله «كان سيرنا إلى مكة مع أبى شهراً، فإذا رجعنا سار بنا شهرين، فقلنا له فى ذلك فقال : بلغنى أن الرجل لايزال فى سبيل الله حتى يأتى بيته» وشدة تعلقه بهذا الضرب من العبادة تدلنا على مبلغ التضحية التى بذلها قضاء لحق أخ له فى الله احتاج رعايته فى مرضه . حدث معمر أن طاوساً أقام على رفيق له مريض حتى فاته الحج !

كان رضى الله عنه وسيماً مشرقاً، وكانت سيماه تنم عن فضائله ومزاياه . قال الزهرى مرة لسفيان بن يعمر : لو رأيت طاوساً علمت أنه لا يكذب .

وإذ روى طاوس حديث رسول الله ﷺ عن أبى هريرة رضى الله عنه . «حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام كاغتساله من الجنابة، يغسل رأسه وجسده يجعل ذلك يوم الجمعة» تجده دائماً نقى البشرة نظيف الثوب، بل إنه لا يطيق القذارة أن يراها فى غيره رأى طاوس رجلاً مسكيناً

فى عينيه عمش وفى ثوبه وسخ ، فقال له : عد ، إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟!

ومن شأن طاوس انه كان يقوم الليل ولاينام السحر قط . يحض على القيام فيقول . ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ؟ ويرى لما اعتاده من قيام السَّحَر أنه أمر طبيعى لا يهمله إنسان ، فإذا عرف فى الناس ترك ذلك قال متعجباً . وهل ينام السحر أحد ؟!

هذه الصلة الوطيدة بالله مع المراقبة الدقيقة والخشية الدائمة ، جعلته فى حصن من عزة المؤمن حصين ؛ وعند العارف كل مادون جلال الله زيف وبهرج وهباء لا يأبه به ولا يلتفت إليه (وكل الذى فوق التراب تراب) قال سفيان : حلف لنا إبراهيم بن ميسرة وهو مستقبل الكعبة : ورب هذه البنية ما رأيت أحداً الشريفُ والوضيع عنده بمنزله إلا طاوساً .

وكلما ازداد أحد منعة فى أسباب الدنيا ازداد هواناً فى عين العارف البصير . حدث عبد الرازق قال . قدم طاوس مكة فقدم أمير فقيل له إن من فضله ومن ومن ... فلو أتيته . قال : ما لى إليه حاجة . قالوا . إنا نخاف عليك (أى إذا لم تأته) قال : فما هو إذن كما تقولون !؟ .

وإنها لسنة ماضية أن يبتلى بالدنيا من يعرض عنها ، ويمتحن بأهل الجاه والسلطان كل من هان عليه أهل الجاه والسلطان ، وقلَّ من يفوز فى هذا الامتحان . إن المنزلة العالية التى جعلها الله لحملة العلم لابد وأن تناسب منعة العالِم حيال المال المبذول لكَمِّ فيه ، والجاه الممنوح لاستغلال مواهبه وفتاويه . وقد نال طاوس فى هذا المجال رتبة هيأه لها تمارسه فى تربية نفسه ، واتصاله الوثيق بربه ، ولم يقع فى الشرك الذى نصبه له بعض الولاة ليحلوه على مايريدون .

حدث النعمان بن الصنعانى أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف

(أو أيوب بن يحيى) بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار أو خمسمائة، وقيل للرسول: إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك.

فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند[1] فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفقة بعث الأمير بها إليك.

قال: مالى بها من حاجة!

فأراده على أخذها، فأبى أن يقبل طاوس. فرمى بها في كوة البيت ثم ذهب فقال لهم قد أخذها!

فلبثوا حيناً ثم بلغهم عن طاوس شيئاً يكرهونه فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا! فجاءه الرسول فقال: المال الذى بعث به إليك الأمير.

قال: ما قبضت منه شيئاً.

فرجع الرسول فأخبرهم فعرفوا أنه صادق، فقال: انظروا الذى ذهب بها فابعثوه إليه، فبعثوه فجاءه وقال: المال الذى جئتك به ياأبا عبد الرحمن.

- هل قبضت منك شيئا؟
- لا
- هل تعلم أين وضعته؟
- نعم! في تلك الكوة.
- انظر حيث وضعته.

فمد يده فإذا هو بالصرة قد نبت عليها العنكبوت، فأخذها فذهب بها إليهم!...

---

(١) الجند: مدينة باليمن.

وقال ابن عيينة : قال عمر بن عبد العزيز (إذ كان والياً) : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعنى سليمان عبد الملك - فقال طاوس : مالى إليه من حاجة .

قال عيينة : فكأنه عجب من ذلك .

ولكنه لم يكن ليعجب لو سمع عطاء يقول : جاءنى طاوس فقال : ياعطاء ، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونك حجاباً ، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة .

وإنك لتجد الحكمة تنساب من طاوس انسياباً سهلاً ؛ يسخّر لها القصص والأمثال ، فتنم عن فقهه وبعد غوره ، وتجد النسب واضحاً بينها وبين قول رسول الله ﷺ «الحكمة يمانية» .

إنه يفقه أمانة العلم وواجب العالم فيقول : من قال واتقى الله خير ممن صمت واتقى الله .

ونظرة العارف تلمحها فى مثل قوله : حلْوُ الدنيا مُرُّ الآخرة .

وقوله عن تجربة وطول اختبار : لم يُجهِد البلاءُ من لم يتول اليتامى ، أو يكون قاضياً بين الناس فى أموالهم ، أو أميراً على رقابهم !

. وهى كلها حكم موجزة يُلقيها فتجرى مجرى المثل . ومن هذا الضرب قوله : إن أكيسَ الكيس التُقَى ، وأعجز العجْز الفجور . وإذا تزوج أحدكم فليتزوج فى معدن صالحِ . وإذا اطلعتم من رجل على عمل فجرة فاحذروه فإن لها أخوات !

ومن فقه قوله الذى رواه هشام بن حجر : «لايتم نسك الشاب حتى يتزوج»

وما رُوِىَ عن إبراهيم بن ميسرة : قال لى طاوس : لتنكحن أو لأقولن ماقال عمر بن الخطاب لأبى الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجوز أو فجور !

أما فى الدعاء فيقول عبدالله بن صالح المكى : دخل علىّ طاوس يعودنى فقلت : ياأبا عبد الرحمن ، ادع الله لى فقال : ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

★ ★ ★

ويمضى طاوس فى وعظه وحكمته فيعمد إلى التمثيل والقصص ، ومن طريفها تلك المحاورة يوم القيامة بين المال وصاحبه :

قال طاوس : يجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيتحاجان ، فيقول صاحب المال : أليس جمعتك فى يوم كذا فى ساعة كذا ؟

فيقول المال : قد قضي بى حاجة كذا وأنفقتنى فى كذا فى ساعة كذا .

فيقول صاحب المال : إن هذا الذى تعدِّد علىّ حبال أوثق بها !!

فيقول المال : أنا الذى حلت بينك وبين ما أمرك الله عز وجل ؟! ...

وهذا الحوار فى أمر القدر بين عيسى بن مريم وإبليس :

قال طاوس : لقى عيسى بن مريم إبليس فقال : أما علمت أنه لا يصيبك إلا ما قدِّر لك ؟ قال : نعم .

قال إبليس : فأوفِ بذروة هذا الجبل فتردَّ منه فانظر أتعيش أم لا !

قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يختبرْنى عبدى فإنى أفعل ماشئت !!

★ ★ ★

والموعظة فى عامة الناس سهلة على عامة العلماء ؛ أما الموعظة فى أولى الأمر الجبارين ، والطغاة المتكبرين فلا يقوى عليها إلا نفر من الرجال أُعد لها إعداداً لينالوا بها ثواب أعظم جهاد ، وقد أُعد طاوس لمثل هذه المواقف ...

قال الزهرى : نظر سليمان بن عبد الملك إلى رجل يطاف به بالكعبة به جمال وتمام فقال : ياابن شهاب ، من هذا ؟ قلت : هذ طاوس اليمانى ، وقد أدرك عدة من الصحابة . فأرسل إليه سليمان فأتاه ، فقال لوما حدَّثتنا ؟

فقال : حدثنى أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أهون الخلْق على الله من ولى من أمر المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم» !!

فتغير وجه سليمان ، فأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه فقال : لو ما حدثتنا؟

فقال : حدثنى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ (قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد علياً) قال : دعانى رسول الله ﷺ إلى طعام فى مجلس من مجالس قريش فقال : إن لكم على قريش حقاً ولهم على الناس حق ما استُرحموا فرحموا ، واستُحكموا فعدلوا ، وائتُمنوا فأدوا ؛ فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً !

فتغير وجه سليمان فأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه فقال : لوما حدثتنا ؟

فقال : حدثنى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن آخر آية نزلت فى كتاب الله تعالى : «واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ، ثم توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» !!

★ ★ ★

وقد عمَّر طاوس حتى هرم، ولم تهرم حكمته. فقد حدث أبو عبدالله الشامى قال: أتيت طاوساً فخرج إلىّ ابنه شيخ كبير، فقلت: أنت طاوس؟

فقال: أنا ابنه!

قلت: فإن كنت ابنه فإن الشيخ قد خرف!

فقال: إن العالمِ لايخرف.

فدخلت عليه فقال لى طاوس: سل وأوجز.

قلت: إن أوجزت أوجزت لك.

قال تريد أن أجمع لك فى مَجلسى هذا التوراة والإنجيل والزبور والقرآن؟

قلت: نعم.

قال: خف الله تعالى مخافة لايكون عندك شىء أخوف منه، وارجه رجاء هو أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك.

★ ★ ★

كان أكثر رواية طاوس أحاديث رسول الله ﷺ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

ومما روى عنه «أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن الشهادة فقال: «هل ترى الشمس؟ قال: نعم! قال: فعلى مثلها فاشهد أودع».

وكذلك قوله: «لما حاصر رسول الله ﷺ وسلم الطائف خرج رجل من الحصن فاحتمل رجلاً من أصحاب النبى ﷺ ليدخله الحصن. فقال رسول الله ﷺ: من يستنقذه له الجنة؟ فقام العباس فمضى، فقال رسول الله ﷺ.

امض ومعك جبريل وميكائيل. قال، فاحتملهما حتى وضعهما بين يدى النبى ﷺ».

وهذا الحديث القدسى الجميل: «يقول الله تعال: إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يتعاظم على خلقى، وكفّ نفسه عن الشهوات ابتغاء مرضاتى، فقطع نهاره بذكرى، ولم يبت مصراً على معصيتى، يطعم الجائع، ويكسو العارى، ويرحم الضعيف، ويؤوى الغريب؛ فذلك الذى يضىء وجهه كما يضىء نور الشمس: يدعونى فألبى، ويسألنى فأعطى، ويقسم على فأبر قسمه؛ أجعل له فى الجهالة علماً، وفى الظلمة نوراً؛ أكلأه بقوتى، وأستحفظه ملائكتى؛ فمثله كمثل الفردوس فى الجنان: لا تيبس ثمارها ولا يتغير حالها».

ومما روى عن جابر بن عبدالله قوله: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

ونختم حديث طاوس بهذه المناجاة الندية التى رواها عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حيث قال: كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال:

«اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدّمت وما أخرت، وماأسررت وماأعلنت، أنت المقدّم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت».

رضى الله عن طاوس وأرضاه، وألحقنا به فى الصالحين.

من الذين بقيت ثمار قلوبهم

ولكن أسماءهم لم يعد يعرفها أحد !

مجلس عامر تغشى نفوسه السكينة ، ورواده – فى اكثر حلقاته – يجمعهم سمت اخوة اصفياء تؤلف بينهم : آصرة العقيدة ، وروحانية العبادة ، ورفقة التلمذة ، ورعاية مرب جليل مشرق البصيرة مطاع لذات الله .

وتتحلق حلقاتهم صباح مساء ، فتبهرك فيما جميعها غمرة السكون الذى يلقون به سمعهم لشيخهم المربى ، ويبتدرون به ما يصدر عنه كلما تكلم أو سأل أو أجاب ، بل اللهفة الى كلمات منه ترطب قلوبهم بذكر الله ، ويسرى فى أوصالهم منها مثل برد الماء على شدة ظمأ وأجة[١] قيظ ... ثم يبهرك منهم – فوق ذلك – كيف يرمقون استاذهم الشيخ اثناء دروسه بعيون واعية جلاها صفاء السر ، ووقدة الحب ، وخشعة الاقبال على الله .

هكذا تستشرف النفس مجالس هذا الشيخ الجليل ، وتتراءى لنا طيوفها من خلال ما كتبه الرواة عنه ومما أوردوه من أحاديثه مع تلامذته ومن اسلوبه فى تربيتهم وفى تذكير غافلهم وتأديب ناشزهم . ولكن هؤلاء الرواة يقفون عند ذلك فلا يبالون ان يذكروا للشيخ «اسما» يميز شخصه فى الناس ، أو لعلهم لا يعرفون له اسما – فهو فى كتبهم من العارفين الزاهدين وكفى !!

---

(١) الاجة ، هى شدة الحر وتوهجه .

كأنما غلبهم على أمرهم ما كان من حقيقة أمره رضى الله عنه ، فقد انصرف همه دائما الى الجوهر دون العرض ، واستوت فى بصيرته حقيقة الزهد على أساس تحرير خلجات النفس من كل تعلق بغير الله ، واستقام منهجه فى التربية على رفض كل عارض ينازع – فى نفس المؤمن – إفراد الله بالاخبات لذاته وبالذلة لجنبه سبحانه وبالتشبث برحمته وباللواذ – لواذ الفرار الصادق – الى كنفه وحماه . أو كأنما قضت حكمة الله ألا يبقى من أخبار هذا الشيخ غير ما ضربه هو من مثل «النحلة» فى الناس ، ذلك ان الناس انما يعنيهم من النحلة ما يخرج من بطونها من شراب حلو مختلف الالوان ، وهى فيما دون ذلك خفيفة الطير خفيفة الوقع طيبة الاخذ والعطاء .

قال الشيخ مرة لتلامذته فى معرض حديث : «عجيب من مؤمن يذكر الجنة والنار ثم يدع ساعة تفلت منه لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو احسان» .

فتحرك احدهم فى مقعده وقد استخفته رغبة الشهادة لنفسه بالبراءة من تلك الغفلة التى عجب شيخه أن تقع لمؤمن يذكر الجنة والنار ، فقال : انى لاكثر البكاء !

فتأمله الشيخ المربى ، مليا ، ثم قال :

«انك ان تضحك وانت مقر فى نفسك بخطيئتك ، خير من ان تبكى وانت مدل بعملك ... ان المدل لا يصعد عمله فوق رأسه !»

فاضطرب تلميذه الذى زكى نفسه قبل هنيهة وقال : يا شيخ ، أوصنى !

فأطرق الشيخ برهة ثم قال

«دع الدنيا لاهلها كما تركوا هم الآخرة لاهلها ، وكن فى الدنيا كالنحلة ان أكلت أكلت طيبا ، وان أطعمت أطعمت طيبا ، وان سقطت على شىء لم تكسره ولم تخدشه»

أفتعجبون كيف لم يذكر أكثر الرواة، أو لم يجدوا، اسما يميز شخص الشيخ ويبقيه علما مرموقا يتردد ذكره فى الناس؟

ماذا يضير الرحيق الحلو، عند الناس، ان لم يعرفوا أية نحلة من بين النحل هى التى طوفت لارتشاف جناه وسهرت على صنع خلاياه واسالة شرابه؟ ثم ماذا عليهم لو طارت النحلة بعد ان أدت اليهم عصارة كدحها شرابا مختلفا ألوانه «فيه شفاء للناس» - ما دام اكسير الشفاء باقيا فى الرحيق الحلو لكل من شاء ان يطعمه: عرف الناس النحلة التى أخرجته ام لم يعرفوها، ويقيت النحلة طائرة تحوم على مرأى منهم أم رحلت عنهم ولم تعد، فنسوها؟!

بحسب شيخنا «العارف الزاهد» انه أدى - فى حياته - أمانة الاتباع والبلاغ على عين الله، وافضى بعد مماته الى ما أخفى له وللابرار امثاله من قرة أعين عند الله جزاء بما أخلصوا الاداء، ثم لم ينقطع بموته رحيق تصعد اليه هو بركاته ويذخر الله له أجره على قدر ما يرشف الناس منه اليوم وغدا وبعد غد: لا يعوز الشيخ فى تحصيل كل ذلك ان لايعرف الراشفون اسمه ولا شخصه، ولا ينقص اجره الصاعد المبرور - الذى لا ينقطع الى أبد الدهر - من أجور راشفى الرحيق شيئا!.

اللهم أجز هذا الشيخ الجليل - الذى تعرفه وحدك وان جهل الناس اسمه وشخصه - خير الجزاء، وأكرم نزله عندك، وارفع درجاته، وألحقنا به فى الصالحين!

اللهم آمين

طلحة بن مصرف

بينما سليمان بن عبد الملك جالس اذ مر به رجل يختال فى مشيته :، فقال : هذا ينبغى ان يكون عراقياً وينبغى أن يكون كوفياً ، وينبغى أن يكون من همدان ! ثم قال : علىَّ بالرجل ! فأتى به ، فسأل : ممن الرجل ؟ فقال : ويلك دعنى حتى ترجع الى نفسى ! فتركه هنيهة ثم سأله : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل العراق . قال من أيهم ؟ قال : من أهل الكوفة . قال أى أهل الكوفة ؟ قال : من همدان ... فأعجبت الناس فراسة عبد الملك !

سأله سليمان : ما تقول فى أبى بكر ؟

فأجاب : والله ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى ، ولقد قال الناس فيه فأحسنوا وهو ان شاء الله كذلك .

– فما تقول فى عمر ؟

فأجاب بمثل ذلك .

– فما تقول فى عثمان ؟

– والله ما أدركت دهره ولا أدرك دهرى ، ولقد قال فيه ناس فأحسنوا ، وقال فيه ناس فأساءوا ، وعند الله علمه .

– فما تقول فى على ؟

– هو والله مثل ذلك .

– سُبَّ علياً !

– لا أسبه

– والله لتسبنه

– والله لاأسبه

– لتسبنه أو لأضربن عنقك

– والله لا أسبه .

فأمر سليمان بضرب عنقه ، فقام رجل فى يده سيف فهزه فكان يلمع فى يده ، وصاح سليمان : لتسبنه أو لأضربنَّ عنقك .

فأجاب طلحة والسيف فوق رأسه : لا والله لا أسبه ، ويلك رضى به من هو خير منك ممن هو خير منى فيمن هو شر من على ؟ قال سليمان : وما ذاك ؟ قال : الله رضى عن عيسى وهو خير منى اذ قال فى بنى اسرائيل وهم شر من على : «ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم» .

يقول العلاء بن كريز : فنظرت الى الغضب ينحدر من وجه سليمان حتى صار فى طرف أرنبته ثم قال : خليا سبيله ، فعاد الى مشيته (كأن لم يكن شىء) ، فما رأيت رجلا قط خيرا من ألف رجل غيره ، واذا هو طلحة بن مصرف !

★ ★ ★

هذه صورة رجل من رجال العقيدة أبت نفسه والسيف فوق رأسه أن يقول غير ما يعتقد ، وتورع عن سب رجل أفضى الى ربه ولم يعد له فى الارض سلطان يُخشى ، وثبت على ذلك حتى آخر لحظة وهو يعلم أن كلمات يقولها فى سب علىّ سوف تنقذ رأسه ولن تؤذى عليًا ، وقد كان له أن يقولها قولة المُكْرَه ، ولكنه اختار أن يقف عند حدود الله مهما كلفته ، وآثر أن يَحفظ لسانه مما يؤذى نفسه على ان يحفظ حياته بكلمة باطلة ... فكافأه الله بالنجاة

الكريمة ، وألهمه – فى الموقف الصعب الآية التى أطفأت سُعرة الغضب فى نفس سليمان !

★ ★ ★

هذا الورع الذى واجه به طلحة سيف سليمان ، لم يكن «موقفاً سياسياً» فى أمر من الامور التى يسميها الناس بلغة العصر «الامور العامة» ... ولكنه كان مظهراً لنفس كريمة تنهج نهجاً واحداً فى حياتها الخاصة والعامة ... يروى ابن أبى غنية أن جدته أرسلت خادمتها الى بيت طلحة تقتبس ناراً وكان يصلى ، فقالت لها امرأته : مكانك يافلانة حتى نشوى لأبى محمد هذا القديد على قصبتك فيفطر عليه . فلما قضى الصلاة قال : ما صنعت ؟ لا أذوقه حتى ترسلى الى سيدتها تستأذنيها حبسك اياها وشواءك على قصبتها !

وتذكر هذه الجدة أن طلحة أرسل اليها يقول : انى أريد أن أوتد فى حائطك وتدا . فأرسلت اليه : نعم ، وافتح فيه كوَّة ...

هذا الورع الاصيل الذى يحكم خاصة النفس ، هو الارض الطيبة التى تترعرع عليها كل المكارم فى كل شأن خاص أو عام ، وهو الاساس الذى يقيم نشاط الحياة على دعائم ثابتة ، ويحقق الانسجام الصادق بين شئونها المختلفة ، من البيت الى كرسى الحكم ، وتكون به «السياسة العامة» فرعا من شجرة يغذيها ماء واحد ويحكمها فى نموها قانون واحد : يحكم الجذور التى لا تراها العين كما يحكم أغصانها وأوراقها وثمارها التى تشغل البصر !

★ ★ ★

وكان طلحة مع ورعه لطيفا دقيقا فى طريقة تذكيره ... جلس مرة بين أصحابه فسألهم مداعبا : ما شىء يسمن فى الخصب والجدب ، وما شىء يهزل فى الخصب والجدب ، وما شىء أحلى من العسل ؟ – وسكت هنيهة ثم قال . الذى يسمن فى الخصب والجدب هو المؤمن : إن أعطى شكر وإن ابتلى صبر ،

والذى يهزل فى الخصب والجدب هو الكافر إن أعطى لم يشكر وإذا ابتلى لم يصبر - وأما الذى هو أحلى من العسل فالألفة التى جعلها الله عز وجل بين عباده المؤمنين .

وسمع مرة رجلا يعتذر الى رجل فقال : لا تكثر الاعتذار الى أخيك ، أخاف ان يبلغ بك الكذب ، وهى لفتة دقيقة الى حركة النفس المعتذرة حين تنساق الى المجاملة !

ويروى عنه موسى الجهنى انه كان اذا ذكر عنده الاختلاف فى أية مسألة قال : لاتقولوا الاختلاف ، ولكن قولوا السعة ! وهى لفتة أخرى الى الافق الواسع الذى يجب أن يُنظر منه الى الآراء المتعددة فى كل مسألة فان فى تعدد الآراء سعة تدفع الحرج عن الناس .

وسمعه أبو سنان يقول فى تصوير معركة المؤمن مع نفسه : المؤمن يجلب عليه ابليس من الشياطين أكثر من ربيعة ومضر !

★ ★ ★

عبدالله بن ابى الهذيل

اشتغل بالرواية عن أبى بكر وعن على بن أبى طالب ، واكرمه الله بصحبة عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وعبدالله بن عمرو وعبد الله بن عباس وأبى هريرة ... فوصله ذلك بالنبع الكريم الغزير الذى فجرته النبوة !

ونحن أهل هذا الزمان ، فى اختلاط أمرنا واضطراب موازيننا ، محتاجون الى سالك يعرج بنا المفازة الصعبة من ورائنا الى حيث كان يعيش هؤلاء الميامين ، ويوقظ بصائرنا الغافية بكلمة من كلماتهم الموصولة بأيام الوحى وبرفاق النبى ! والناس دائما لا يؤثر فيهم مثل القدوة الصالحة فى الشخص الصالح ، والمؤمن منهم يستجيب أشد ما يستجيب حين تطالعه القدوة الماثلة بشعاع صادق من النبوة الهادية ، وحين يعلم أنها من هذا المعين أشربت عواطفها وثرَّ ماؤها !

أجل !

وذلك ما تحركت به نفسى وأنا أقرأ ما حَدّث به عبدالله بن أحمد بن حنبل ، أن أبا فروة قال : كنا نجالس عبدالله بن أبى الهذيل ، فان جاء انسان فألقى حديثا من حديث الناس قال : ياأخى ليس لهذا جلسنا ! – وما حدث به عن أبى سنان : شكا عبدالله بن أبى الهذيل يوما ذنوبه فقال له رجل : يا أبا المغيرة أو لست التقى النقى ؟ فقال : اللهم ان عبدك هذا أراد ان يتقرب الى بما قال ، وانى أشهدك على مقت ما قال !

هذه النفس الطيبة التى تعاف فى مجلسها لغو الحديث ، وتنفر قال قد فعلت ، قال فاجعله فى كدوسه ، قال قد فعلت ، قال فلا تدع منه شيئا الا رفعته ، قال قد فعلت ، قال فلعلك قد تركت منه شيئا ، قال لا ! الا ما لاخير فيه ، قال فمثل أولئك أدخل من عبادى النار !

ومنها ما رواه عنه أبو التياح ، قال : لما سلط بختنصر على بنى اسرائيل ، جىء بسبى فجلسوا حلقا حلقا ، فمر بهم نبى لهم ، فلما رأوه بكوا وضجُوا اليه وصاحوا ، قال : فسمع ذلك فسأل مالهم ؟ قالوا : مر بهم نبىّ لهم ، قال : ايتونى به ، فأتوه به فقال له : ما الذى سلطنى على قومك ! قال : عظم خطيئتك ، وظلم قومى أنفسهم !

ولعمرو الحق ، هذان هما ركيزتا الطغيان دائما ، ظلم الظالم وتفريط المظلوم !!

رضى الله عن عبدالله وأرضاه فى الصالحين .

صفوان المازنى

هو صفوان بن محرز العابد الباكى ... والعبادة والبكاء كلمتان ينفر منهما مزاج عصرنا الذى نعيش فيه ، لأنه لا يعرف عن العبادة إلا الطقوس البالية التى يراها ، أو التكاليف الجامدة التى فرضتها التقاليد ، ولا يدرك من أمر البكاء إلا ما كان سببه مصيبة أو ضعفاً ، ينزلان فيطردان أنس الحياة وبهجتها .

ولكن عبادة صفوان وبكاءه، كان من الطراز الذى لا يعرفه عصرنا المحروم ، ولو عرفه لعرف أى فقر فيه ، الفقر من القيم العالية التى يوحيها سر الحياة ، والتى لا تحدّها قوى الذرة ولا مخابر المعامل ولا سياسيات الدول ، ولا الموت ، إنها أقوى من هذه كلها لأنها وحى السر الذى أفاض الحياة ولا يزال يحكمها ، وأقوى من الموت لأنها وحى الذى خلق الحياة والموت .!! ثم ماذا لهذه القوى المحدودة بعد الموت ... بعد النهاية التى لا يملك أصحابها أن يفروا منها مهما ركبوا الهواء أو غاصوا فى الماء . إن بعد الموت خلوداً لا ينقص منه أنهم لم يقدروه، ولن ينفعهم فيه أنهم تجاهلوه ، وهم صائرون اليه مهما علموا ومهما اخترعوا ، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً ... أيهم الجاهل اذن ، صفوان فى محرابه ، أم علماء الذرة فى القرن العشرين ؟!

يقول عبدالله بن رباح : كان صفوان المازنى اذا قرأ هذه الآية «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» بكى حتى أقول اندق قصيص زوره[1]

ويقول غيلان بن جرير : كانوا يجتمعون فلا يجدون لقلوبهم رِقَّة ، فيقولون : يا صفوان ، حدث أصحابك فيقول : «الحمد لله» – ما يقول غيرها – فيرق القوم وتسيل الدموع من أعينهم كأنها أفواه المزادة !

★ ★ ★

ولم يكن صفوان الرجل الذى ينطوى على نفسه ويلقى الحكمة لا يبالى بأحوال من ألقيت اليهم ، ولكنه كان فى تربيته أستاذا يجيد فنها ، ولا يضع علمه فى غير موضعه ، ويخاطب كل مقبل عليه بالطريقة التى تصلح له ، وإنك لتلمح ذلك فى القليل الذى ورد عنه ... روى الربيع عن أنس أنه كان عند صفوان حين دخل عليه شاب من أصحاب الأهواء ، فذكر له شيئا ، فقال له صفوان فى لهجة حازمة : أيها الفتى ، ألا أدلك على خاصة الله تعالى التى خص بها أولياءه ؟ يقول الله تعالى : «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم» وروى محمد بن واسع : رأيت صفوان بن محرز وأناسا فى المسجد قريبا منه يتجادلون ، فقام ونفض ثوبه وقال : إنما أنتم جرب !!

★ ★ ★

وكان له من اعتزازه بالله صولة يرهبها أرباب السلطان ، ورعاه الله فى ذلك رعاية لا يظفر بها إلا الخالصون من أوليائه ... يروى جعفر بن ثابت ان «ابن زياد» قبض على ابن أخ لصفوان فتحمل عليه بالناس فلم يبق أحد إلا كلمه فيه ، فلم تُقض حاجته ، فبات صفوان ليله فى مصلاه وهو يصلى ، فلما رقد أتاه آت فى منامه فقال : يا صفوان قم فاطلب حاجتك من قِبَل وجهها . قال : أفعل . فقام وتوضأ فصلى ودعا . يقول جعفر : فتنبه ابن زياد فى بعض الليل فقال : على بابن أخى صفوان. فجاء الحرس والشرط والنيران ، ففتحت أبواب السجن حتى استخرج ابن أخى صفوان فجىء به الى ابن زياد ، فقال له : أنت ابن أخى صفوان ؟ قال نعم . فأرسله . فما شعر

صفوان حتى ضرب عليه الباب ، فقال من هذا ؟ قال : أنا فلان تنبه الامير فى بعض الليل فجاء الحرس والشرط وجىء بالنيران وفتحت أبواب السجون فخلى عنى بغير كفالة !!

★ ★ ★

واسند صفوان عن عدة من الصحابة ، منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وأبو موسى الأشعرى ، وعمران بن حصين ، وحكيم بن حزام ، رضى الله عنهم جميعاً وكثير من الاحاديث التى رواها تشف عن قلبه النضر فيما تلقى وحفظ... روى عن قتادة : بينما عبدالله بن عمر يطوف بالبيت اذ عارضه رجل ، فقال يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ فقال له سمعته يقول : يدنو المؤمن من ربه عز وجل يوم القيامة كأنه بذج[1] فيضع عليه كفه ، فيقرره ، فيقول أى رب أعرف . فيقول أنا سترتها عليك فى الدنيا أغفرها لك اليوم ، ويعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : «هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» . قال سعيد وقتادة : فلم تجد أحداً خفى خزيه على أحد من الخلائق .

وروى عن حكيم بن حزام . قال بينما رسول الله ﷺ فى أصحابه إذ قال له : «تسمعون ما أسمع ؟ فقالوا ما نسمع من شىء .. قال : إنى لأسمع أطيط السماء ، ولا تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم[2]» .

★ ★ ★

(١) فى النهاية : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل قال الذج ولد الضأن - الحديث متفق عليه .

(٢) تفرد به صفوان عن قتادة وسعيد بن أبى عروبة

وقد كان تطلُع صفوان الى الغيب ، وتجاوبه معه ، أمرا يشغله ، ويعد له نفسه ، ويحاول أن يقتحم له الحجب ، يقول المعلمى بن زياد : كان صفوان يقول : قد أرى مكان الشهادة لو شايعتنى نفسى !!

وروى حماد بن ثابت ان صفوان كان له خص فيه جذع ، فانكسر الجذع ، فقيل له ألا تصلحه ؟ فقال : دعوه ... فانما أموت غدا !!

وقد مات فى غده ، رضى الله عنه وأرضاه .

★ ★ ★

سعيد الشهيد

قال ميسرة الخادم :

غزونا فى بعض الغزوات ، فلقينا العدو ، فاذا بفتى الى جانبى ، واذا هو مقنع فى الحديد ، فحمل على الميمنة حتى ثناها ، وحمل على الميسرة حتى ثناها ، وحمل على القلب حتى ثناه ، ثم أنشأ يقول :

أحسن بمولاك سعيدُ ظنّا   هذا الذى كنت له تمنى
اليك يا حور الجنان عنا   مالك قاتلنا ولا قتلنـا
لكن الى سيدكن اشتقنا   قد علم السر وما أعلنّا

قال : فحمل فقاتل فقتل منهم عددا ثم رجع الى مصافه ، فتكالب عليه العدو ، فاذا به قد حمل على الناس وأنشأ يقول :

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب   الآّ يضيع اليوم كدى والطلب
يا من ملا تلك القصور باللعب   لولاك ما طابت ولا طاب الطرب

· فحمل فقاتل فقتل منهم عددا ، ثم رجع الى مصافه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل الثالثة وأنشأ يقول :

يالعبة الخلد قفى ثم اسمعى   مالك قاتلنا فكُفِّى وارجعى
ثم ارجعى الى الجنان أسرعى   لا تطمعى لا تطمعى لا تطمعى

قال ، فحمل فقاتل حتى قتل ... شهيد حبه لله ... رضى الله عنه وأرضاه .

سلمة بن دينار

قليل من الناس من يعرف أبا حازم الأعرج سلمة بن دينار ! وأكثر هؤلاء لايكاد يعرفه إلا راوياً للحديث عن سهل بن سعد وأنس بن مالك وابن عمر وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وطلحة بن عبيد الله وعطاء بن أبى رباح وآخرين... أما سلمة بن دينار، المؤمن المشمر إلى ربه، وصاحب القلب المشرق بالنور، والقدوة الصالحة للسالكين... فذلك أمر أغفلته أكثر كتب العلم أو لم تتسع له، وإن وسعته عين الله الذى يعلم السر والنجوى، ووعته موازين السماء التى تحكم السر وأخفى...

كان سلمة يعيش فى معانى الآخرة يومه وليله... وكأن يأخذ بها أخذاً اليماً شديداً... فهو الذى يقول : لو نادى مناد من السماء بأمن أهل الأرض من دخول النار، لحق عليهم الوجل من حضور ذلك الموقف ومعاينة ذلك اليوم!.. وهو الذى يحدث نفسه فى خلوته يحاسبها فيقول : «يا أعرج، ينادَى يوم القيامة : يا أهل خطيئة كذا وكذا، فتقوم معهم، ثم ينادى ياأهل خطيئة أخرى فتقوم معهم، فأراك ياأعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة !» – ويمسك بلجامها بمثل قوله يخاطبها : «اعلم انك إذا مت لم ترفع الأسواق بموتك، إن شأنك صغير فاعرف نفسك...» وروى جرير أن سلمه كان يمر على الفاكهة فى السوق فيشتهيها فيقول : موعدك الجنة !

★ ★ ★

كان رحمه الله ذكى العاطفة مرهف الوجدان ... لايرى مع الله شيئاً غيره ... ولا يحجب بصيرته المتلألئة عن وجه الله حجاب .. يقول : «إن الشيطان إذا استمكن من قلب امرىء لم يبال ما صنع ولو صلى حتى يسقط لحم وجهه ! ..» - يقول سعيد بن عبد الرحمن : سمعت أبا حازم يقول : «إن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها ، وما خلق الله من سيئة أضر له منها . وإن العبد ليعمل السيئة حتى تسوءه حين يعملها ؛ وما خلق الله من حسنة أنفع له منها . وذلك أن العبد ليعمل الحسنة تسره حين يعملها فيتجبر فيها ، ويرى أن له بها فضلا على غيره ، ولعل الله تعالى أن يحبطها ويحبط معها عملا كثيراً . وإن العبد حين يعمل السيئة تسوؤه حين يعملها ، ولعل الله تعالى يحدث له بها رجلا يلقى الله تعالى وإن خوفها لفى جوفه باق» ؛ وسمعه سفيان بن عيينة يقول : «إنى لأستحى من ربى عز وجل أن أسأله شيئاً فأكون كالأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة ، ولكنى أعمل تعظيما له ...» . كان سلمة فى يقظة دائمة يحيا بها مع الله على حد السيف ، ويرى ذلك مقتضى الإيمان فى المؤمن ؛ ومن وصاياه : «ينبغى للمؤمن أن يكون أشد حفظاً للسانه منه لموضع قدميه» ..

★ ★ ★

وإنه ليدهشك وأنت تطالع هذا الجمال فى قلبه الكبير ، أن تراه لا ينطوى عليه انطواء المنقطع عن الناس فى صومعة ، بل تراه قوياً به على كل منكر ، جريئاً به فى الحق لا يخشى لومة لائم ... يقول ابن أبى كثير : دخل سليمان بن عبد الملك المدينة حاجاً فقال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا : نعم ! أبو حازم . فأرسل إليه ، فلما أتاه قال : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ قال : والله ما عرفتنى قبل هذا ولا أنا رأيتك فأى جفاء رأيت منى ؟ فالتفت سليمان إلى الزهرى قائلا : أصاب الشيخ واخطأت أنا . يا أبا حازم : مالنا نكره الموت ؟ فقال : عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب . قال : صدقت . فقال يا أباحازم ليت شعرى ما لنا عند

الله تعالى غداً ؟ قال : قال الله تعالى : «إنّ الأبرارَ لفى نعيم وإن الفجارَ لفى جحيم» . قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال أبو حازم : قريب من المحسنين . قال سليمان : ليت شعرى كيف العرض على الله غداً ؟ قال أبو حازم : أما المحسن كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء كالآبق يُقدم به على مولاه . فبكى سليمان واشتد بكاؤه ، ثم قال : يا أبا حازم : كيف لنا أن نصلح ؟ قال : تدَعون عنكم الصلف وتتمسكون بالمروءة وتعدلون . قال : يا أبا حازم وكيف المأخذ من ذلك ؟ قال : تأخذه بحقه وتضعه بحقه فى أهله . قال : فما أعدل العدل ؟ قال كلمة صدق عند من ترجوه وتخافه . قال : فما أفضل الصدقة ؟ قال : جهد المقل إلى يد البائس الفقير لا يتبعها منّ ولا أذى . قال فما أسرع الدعاء إجابة ؟ قال : دعاء المحسن للمحسنين . قال : يا أبا حازم من أكيس الناس ؟ قال : رجل ظفر بطاعة الله تعالى . فعمل بها ثم دل الناس عليها . قال : يا أبا حازم هل لك أن تصحبنا وتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : كلا ! قل : ولم ؟ قال : إنى أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلا ، فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا يكون لى منه نصير . قال : ياأبا حازم ، ارفع إلى حاجتك . قال : نعم ! تدخلنى الجنة وتخرجنى من النار . قال : ليس ذلك إلىَّ ، قال فما لى حاجة سواها . قال : يا أبا حازم ، فادع الله لى ، قال : نعم ! «اللهم إن كان سليمان من أوليائك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان من أعدائك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى !» قال يا أبا حازم : أوصنى . قال : نعم ! سوف أوصيك وأوجز : نزه الله تعالى وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ! ثم قام فقال سليمان : يا أبا حازم ، هذه مائة دينار ، أنفقها ولك عندى أمثالها كثير . فرمى بها وقال : والله ما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسى ؟ إنى أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلا ، وردى عليك بذلا !! إن كانت هذه المائة دينار عوضاً عما حدثتك ، فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحل منه . وإن كانت من مال المسلمين فلا حاجة لى فيها . إن بنى إسرائيل لم يزالوا على الهدى والتقى حيث كان أمراؤهم

يأتون إلى علمائهم رغبة فى علمهم ، فلما نكسوا وسقطوا من عين الله تعالى وآمنوا بالجبت والطاغوت كان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم ويشاركونهم فى دنياهم ...» .

ألست ترى فى كلمات سلمة مصداق ماقاله زيد بن سلم عنه : ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فيه من أبى حازم ... ؟

★ ★ ★

وإنك لتقرأ مع ذلك ما حفظه الرواة من آثاره ، فتعجب له كيف كان يتكلم ! وتأنس إلى نور من النبوة يتردد فى صدره ؛ فهو به على قدم نبيه الذى أوتى جوامع الكلم ! يروى ابن عيينة أن سلمة دخل على أمير المدينة ، فقال له : تكلم . فقال : «انظر الناس ببابك . إن أدنيت أهل الخير ، ذهب أهل الشر ، وإن أدنيت أهل الشر ، ذهب أهل الخير» .

ويذكر يعقوب بن عبد الرحمن أنه قال : «شيئان إذا عملت بهما أصبت بهما خير الدنيا والآخرة ، ولا أطيل عليك . قيل : وما هما ؟ قال : تحمل ما تكره إذا أحبه الله ، وتكره ما تحب إذا كرهه الله عز وجل» .

ومن كلامه : «رضى الناس بالحديث وتركوا العمل» و «ما مضى من الدنيا فحلم ، وما بقى فأمانى» و «أفضل خصلة ترجى للمؤمن أن يكون أشد الناس خوفاً على نفسه ، وأرجاه لكل مسلم» .

ويقول عن إبليس : «وما إبليس ؟ والله لقد عصى فماضر ، ولقد أطيع فما نفع !» .

★ ★ ★

هذا هو «سلمة بن دينار» فى آفاقه العالية ، وما أعجب أن تراه وهو محلق

فيها ، قريباً من ذوى الهمم الكليلة ، يؤدبهم بمثل قوله : «قد رضيت من أحدكم أن يُبقى على دينه كما يبقى على نعليه !!» .

واعجب منه ان تسمعه يقول : «إني لأعظ وما أرى للموعظة موضعاً ، وما أريد بذلك إلا نفسي !» .

★ ★ ★

عمرو بن عتبة

«ما احسن الآن لو أن مناديا نادى · ياخيل الله اركبى!!»

«عمرو بن عتبة»

جلس عتبة بن فرقد أمير ماسبذان يوما إلى بعض خلصائه وقد أهمه أمر فوجّه الحديث إلى عبدالله بن ربيعة فقال : « ألا تعينني يا عبدالله على ابن أخيك ؟» .

قال عبدالله : وما ذاك أيها الأمير ؟

قال : عمرو إنني أحب أن تعينني عليه .

قال : وماذا في أمره مما ترجو المعونة عليه ؟

قال : أريد أن يكون معي في عمل هذه الإمارة يعينني عليه ، فقد تقسم الزهدُ وسهر الليل وركوب الخيل والخروج للغزو كل وقته وعقله وجسمه !!

قال معضد العجلي : أيها الأمير إن ابنك شغل بمعالى الأمور فدعه وما شغل نفسه به ، ولقد كنا خلقاء أن نعينك على ماترجو من صلاحه لو أنه سدر مع الخلفاء والمستهترين بألوان اللهو والغفلة ، أما وهو مشمر إلى الله فلا ، ولقد كان الأمير – أعزه الله – خليقاً أن يعين ولده على ماهو بسبيله لا أن يستعدى عليه من يثنيه عنه .

قال عتبة : والأمارة يا معضد من يعينني عليها ؟

قال معضد : لكأنك أيها الأمير تدخر ولدك للامارة من بعدك! وهيهات، فابنك يحلّق إلى إمارة أعز، ومجد أشم، ويعيش بنفسه فى حقيقة علوية لا يروج لديها شىء مما نعيش فيه وله؛ وما ذلك بمانعه يوما أن يكون أهلا لما تريد من الأمارة.

قال عتبة : إنه لا يمتعنا بنفسه؛ فهو كثير التجوال والترحال والسفر إلى الغزو؛ إذا أقام بيننا أقام كأنه غريب، لايأكل مما نأكل، ولاينام كما ننام، ولا يأخذ فيما نأخذ. وبودى لو يرفق بنفسه ويصيب مما نحن فيه فما حرم الله عليه شيئاً منه، فإن نفسى تكاد تذهب من الرقة كلما رأيته فى نحوله وذبوله؛ وقد أعطيته بالأمس مالا ليصلح من حاله وكأنى به لم يأخذه إلا برأ بى وشفقة على من أثر الرد، ولا أدرى ما هو صانع به. و..

وهنا دخل عمرو بن عتبة فأمسك أبوه عن الكلام فقال عبدالله بن ربيعة : لعلك سمعت شيئاً مما كنا نتكلم فيه من أمرك يا عمرو.

قال عمرو بن عتبة : لم أسمع شيئاً، ولكن لعلى قد فهمت الآن ما كنتم تتحدثون به.

قال عبد الله : «فأطع أباك ياعمرو».

فسكت عمرو وأطرق حزينا يفكر فى وجد أبيه به، وفى شوقه إلى الله، وصمت المجلس لإطراقه وسكوته؛ فرق له معضد العجلى وقطع الصمت بقوله : «لا تطعهم ياعمرو، واسجد واقترب!».

فأقبل عمرو على أبيه عتبة كأنما يضرع إليه وقال : «يا أبت إنما أنا عبد أعمل فى فكاك رقبتى، فدعنى أعمل فى فكاكها».

فبكى عتبة لضراعة ولده وقال : «يابنى إنى لأحبك حبين : حباً لله، وحب الوالد لولده، فامض لما تريد من أمر ربك».

قال عمرو : «يا أبت ، إنك كنت آتيتنى مالاً قد بلغ سبعين ألفاً فإن كنت سائلى عنه فها هو ذا فخذه ، وإلا فدعنى فأمضيه» !

قال عتبة : «فأمضه يابنى» ...

«فأمضاها عمرو فما بقى منها درهم» .

★ ★ ★

ذلك هو عمرو بن عتبة ربيب بيت من بيوت الإمارة ، وشاب من شباب المسلمين الأولين نقدمه اليوم مثلا صالحاً لشباب المسلمين الآخرين .

كان متغربا فى الله، وقدم من سفرته مع رفقة ، منهم ابراهيم بن علقمه ، ومسروق ، ومعضد ، حتى بلغوا مشارف ماسبذان مقر إمارة أبيه .

لو أن شابا من صغار النفوس فى مثل موقف عمرو ماذا كان يدور بنفسه من الزهو بين رفقته ، وهو يعلم أن مظاهر الجاه وشارات الرياسة التى سيرونها كفيلة أن تعلى قدره بينهم وتملأ صدورهم إكباراً له وهيبة ؟

... ماذا كان يصطنع من الحديث ليشعر إخوانه من طرف خفى بما هم مقدمون عليه ؟ .

لندع ما يكون من صغار النفوس فى هذا الموقف ، ولننظر ما فعلت تلك النفس الكبيرة التى كانت تحلق فى آفاق غير التى يعيش فيها عامة الناس ؛ فلا تزدهيها الشارات ولا تفرح بما يفرح به صغار الأحلام ؛ قال عمرو بن عتبة : «إنكم إن نزلتم عليه صنع لكم نزلا[١] . ولعله أن يظلم لكم فيه أحداً ، ولكن إن شئتم نزلنا فى ظل هذه الشجرة ، فقضينا مقيلنا وأكلنا من كسرنا» ؛ ففعلوا !

---

(١) النزل : الطعام .

لقد بلغ هذا الشاب من الرشد ما لم يبلغه أبوه!.. والرشد رشدان: رشد يميز به العقل المنطقى قيم الأشياء المادية فى الخارج، ورشد يميز به العقل الروحى قيم الحقائق وأقدار المعانى.

والرشد الأول يبلغه الطفل بعد سن معينة فيصير رجلا، والرشد الآخر قد يدركه الفتيان قبل الرجال. وقد لا يدركه الرجال فيظلون أطفالا.

وتلك الحقيقة هى التى يجلوها لنا عمرو بن عتبة بسيرته الرشيدة وحسن إدراكه لأنواع القيم.

لقد أدرك رشده. فهان فى نظره ما فى بيت أبيه من ألوان المطاعم والمشارب، واستشعر وعيه الباطنى ريح نعيم قدسى فى ملكوت الله، فعاف أن يكون بطنه وعاء لما عند أبيه، وسما إلى نفحات الله يتعرض لها فى أصيله وسحره، ومغداه ومراحه، فملأت إهابه طرباً وبهجة، وقلبه نوراً وحكمه.

لقد أغناه عن دنيا الناس رغيفان كل يوم يسد بهما فراغ بطنه، وفى رغيفين غناء لمن كان همه أن يبسط جناحيه للتحليق فى ملكوت الله ذاهبا مع ما سنّ رسول الله ﷺ لأرباب الهمم العالية: «أديموا طرق أبواب الجنة بالجوع» قال عبد الحميد بن لاحق: «كان لعمرو بن عتبة رغيفان كل يوم؛ يتسحر بأحداهما، ويفطر بالآخر».. وأغناه عمّا للناس من فرش وأرائك ووسائد حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة إذا أحس كلال التهجد والقيام.

لقد كان يترنم فى نفسه بكلمة سمعها من صديقه معضد العجلى: «لولا ظمأ الهواجر، وطول ليل الشتاء، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ماباليت أن أكون يعسوبا» فيهتز عطفاه من الطرب، إذ يذكر بها الرياض التى طالما صدحت فيها بلابله.. فلذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل، كانت قرة عينه

وبهجة نفسه ، ومهاده الوثير الذى آثره على كل مهاد ، ويارب ليلة أخذه من شجوها ما ينفي عنه طيف الغفوة فيظل في بكائه ونشيجه ، وحذره ورجائه ونواشيء الأسحار من حوله يبسمن كالعرائس الغر بما نسج لهن من غلائل ذكره ونور تسبيحه ، فلا ينصرفن عنه إلى ملكوت الله إلا حين يبسم له ضوء الصبح من خلال الأفق البعيد ، قالت أخت له : «أحسسته ذات ليلة وقد قام إلى مصلاه فجعلت إليه سمعي وانتباهي فاستفتح سورة «حم» فلما أتى على تلك الآية من قول الله «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» ، فما جاوزها ، وظل يرددها حتى خرج ليشهد مع الناس صلاة الصبح» ولقد قال بعض صحابته : «كنا إذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة عمرو وقيامه» .

تلك هي الموائد التي كان يطول عندها شدوه وتغريده : ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ؛ فلا نعم عيش عباد الدرهم والقطيفة !

لقد ظل عمرو يتحسس في نفسه مواطن الرخاوة ، ومغامز الشيطان فيدبرلها علاجها في الله حتى صلب عوده واستحصدت قوته. عالج مغمز المال فوجهه إلى الله، وعالج ترف المطعم والمشرب بظمأ الهواجر، وعالج لين الفراش بلذاذة التهجد ، وبقي بعد ذلك مغمز الجاه والرياسة فما أسرع أن عالجه بأنجع دواء ، قال حويط بن رافع : كان عمرو بن عتبة إذا خرج في أصحابه يشترط أن يكون خادمهم يرعى لهم ركابهم أو يسوقها !! .

فقل لي بربك أي شيء بقي في هذا الفتى مما يطمع الشيطان فيه ؟

لقد حدّث هو عن نفسه : «سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنين ، وأنا أنتظر الثالثة .. سألته أن يزهدني في الدنيا ؛ فما أبالي الآن ما أقبل منها وماأدبر ، وسألته أن يقويني على الصلاة ؛ فرزقني منها .. وسألته الشهادة فأنا أرجوها» .

هذه هى النوازع التى كانت تعتمل فى صدر هذا الشباب ، وتلك هى أهدافه التى هامت بها نفسه ؛ نال معظمها من فضل الله ، وبقيت الشهادة هدفه الأخير ومحوره الذى تدور حوله كل همته وخواطره وأشواقه فى اليقظة والمنام . وليس كالصدق يرفع به الإنسان إلى الله دعاءه ورجاءه ؛ فما هو إلا أن يستجيب له ، وهذا فتى من أبناء السروات تلهج خواطره بذكر الشهادة ، وتهفو سريرته شوقا إليها وولها بها ، فلاجرم أن ينيله الله إياها .. لقد اشترى لغزوه حصانا بأربعة آلاف ، وكأنه يتأنق للشهادة إذ يغلى من أجلها ثمن الجواد ، فيقول بعض الناس : إن أربعة آلاف فى جواد لكثير ، فيقول : «والله لخطوة واحدة منه إلى عدو الله أفضل من أربعة آلاف» .

ولقد طلع على بعض رفقته فى جبة جميلة حسنة ، فهل تدرى ما كانت تتناجى به بلابل نفسه وهو يتحلى بهذه الجبة ؟ لقد ودّ لو تزين بوسام يغض من قدر كل وسام إلا وسام النبوة ، لقد قال لأصحابه وهو يشير بأصابعه لمواضع فى الجبة «ما أحسن أن يتحدر دمى على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا ؟!» .

إن جوانح الصديقين حين تهتف إنما تهتف بصدى ما تحسه من قرب مقادير الله ؛ فسرائرهم النقية فى هذه الأرض هى المرآة التى يتراءى فيها مايشاء الله من مقاديره الموشكة ، فيهتفون بما يهتفون به من آمال صادقة ، وهم لايدرون أن القدر على قيد خطوات منهم قد حضر بما يريدون .

لقد وقف فتى صحابى يقول لرسول الله ﷺ : يارسول الله لقد أعطيتنى حظى من الغنيمة ، ولكنى لم أسلم ولم أقاتل من أجلها ، بل أسلمت وقاتلت ليصيبنى سهم فى نقرة نحرى هاهنا (وأشار بأصبعه إلى نحره) فأقتل شهيداً فيدخلنى الله الجنة ، فقال له عليه السلام : «إن تصدق الله يصدقك» فلما كانت موقعة من المواقع جيء لرسول الله ﷺ بفتى قتيل وفى نحره سهم مغروز ، فلما رآه عليه السلام قال : «أهو هو ؟» قالوا نعم هو هو يارسول الله ! . ورأى فيه الصحابة مبلغ استجابة الله لصدق الصادقين ..

وها هو ذا فتانا يمر بأصابعه على أماكن فى جبته الجميلة ويقول : ما أحسن أن يتحدر دمى على هذه الجبة ، ويجرى عليها هنا وهاهنا ؟ .. نعم ياعمرو ، سيتحدر الدم عن قريب فما أنطقك بهذا إلا القدر الذى حضر بما تريد !! ..

خرج عمرو مع صحابته بجبته ، فاستقبلهم مرج ضاحك مبتهج . طلق الهواء . لين النسمات ؛ فما أن سار فيه حتى تحرك فى نفسه وجد ، وثارت بقلبه أشواق ، وكأنما لم ير فى المرج مرجا ، بل روضة من القدس حضرت له مع القدر بريح الجنة ، فانبعثت من أعماقه نفحة من هيام : «ما أحسن هذا المرج . ما أحسن الآن لو أن مناديا نادى ياخيل الله اركبى !!» .

★ ★ ★

قال راوى الخبر «فوالله ما كان بأسرع من أن نادى مناد : ياخيل الله اركبى فركبنا وركب عمرو ، وعلم أبوه بركوبه ؛ فقال على عمراً ؛ على عمراً ، فأرسل فى طلبه ، فما أدرك حتى أصيب» .

يالقدر الله ! أصيب بحجر إصابة ليس لمثلها أن تكون قاتلة ! أصابة جرح صغير فجعل يخاطبه – وهو يرى الدم يجرى منه على المكان الذى أشار إليه بأصابعه فى جبته – ويقول : والله إنك لصغير وإن يشأ الله تعالى يبارك فى الصغير !» فلما كان المساء ، بارك الله الجرح الصغير ، وجاء بالشهادة المرموقة وصعد الروح الطاهر إلى بارئه ، ودفن الجسم الطاهر فى الجنة البيضاء ، ذات الدم الزكى الطاهر ، فى نفس المرج الذى هتف فيه : «ما أحسن الآن لو أن مناديا نادى يا خيل الله اركبى» يرحمه الله .

عتبة الغـلام

لمَ يكن غلاما حين مات ، ولا حين أطلق عليه هذا اللقب ، ولعله كان قد جاوز الثلاثين حين لقى ربه ، ولكنهم أعظموا قدمه فى جهاد نفسه وعبادة ربه إذ كانت له همة لا تنفك عن طلب المثل العليا فلا يراه الرائى إلا مشمراً لغايته ، أو سابقاً فى مضماره شأن غلمان السباق والرهان فى تلك الأيام الخالية فسموه الغلام ؛ سئل رباح القيسى : ياأبا المهاجر : لأى شىء سميتم عتبة «الغلام» ؟ فقال : كان نصفاً فى الرجال ، ولكنا كنا نسميه «الغلام» لأنه كان فى العبادة غلام رهان..

استشهد عتبة وهو يغزو فى سبيل الله بالمصيصة من شمال الشام ، فاجتمع نفر من أصحابه بالبصرة موطنه الأصلى وقالوا : لقد لج بنا الشوق إلى عتبة ، فتعالوا نجلس إلى أم عطاء جارته الصالحة فهى أعرف بحاله ، لعلها تحدثنا عنه حديثا ينهض عزمنا ويستحث خطونا إلى الله ويحيينا معه ساعة فى ملكوت السموات ...!.

قالت أم عطاء : رحم الله عتبة ، والله ما كنت آبه لشأنه أول الأمر لشدة ما كان يخفى من حاله ، ولقد كان جاراً فلعل نسمة من خلق الله لم تكن أهون على منه ، و ....

قال أحمد بن زهير المروزى من طرف المجلس : يرحمه الله ياأم عطاء !! والله ما كان أحدمنا إلا ويتمنى أن يكون له فى نفوس الناس قدر ومنزلة إلا عتبة فإنه كان يرى ابتغاء المنازل عند الناس هو السقوط من عين الله ..

ولقد كان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لايعرفونه، كما يفرح أحدنا بإقبال الناس عليه بالكرامة .. ولقد ركبنا مرة فى سفينة فاضطربت بنا بعض الشيء وجعلت تميل وتستوى، فأراد الملاح أن يعدل جلوسنا فلم يجد أهون فى عينه من عتبة، فدفع فى جنبه وقال: استو ياهذا بإزاء من بجوارك !! قال ابن زهير: فوالله لقد رأيت السرور يشرق على وجه عتبة، وسمت غمغمة يسيرة تتحرك بها شفتاه، فأدنيت أذنى منه فإذا به يقول: الحمد لله على أن لم ير فيهم أحقر فى عينيه منى..

قالت أم عطاء: وهذا شأن الأتقياء الأخفياء: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» .. ولم أكن أقل جهلا بهذا التقى الخفى من الملاح الذى ضربه فى جنبه، ولقد كنت إذا أفطرت من صيامى قلت: اللهم اسقنى من حوض النبى ﷺ، فرأيت فيما يرى النائم ذات ليلة قائلا يقول لى: ياأم عطاء، إذا سألت الله أن يسقيك من حوض النبى ﷺ فسليه أن يسقيك من حوض التقى الخفى فإن له عند الله لزلفى .. قلت: ويحك ومن يكون ذلك؟ قال: جارك الأدنى !! قلت: ويحك لا أفهم ما تقول !! قال: عتبة بن أبَان بن ثعلب !! فانتبهت من نومى، وإنى لدهشة لما قال.

واسترسلت أم عطاء تقول: فغدوت إلى بيته، وانتحلت علة ادخل بها على مولاته، فلما رآنى قال: ياأم عطاء .. لاأصدق ما يقال لك أضغاث الأحلام فإنه قد يكون الغلام !!.

فأخذت القوم هزة مالوا بها فى المجلس كما تميل أطراف الأشجار فى اليوم العاصف.

واستمرت أم عطاء تقول: وتوثقت صلات الود بينى وبينه. وكان يأخذ دقيقه فيبله فى الماء يعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف. فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لقما. ثم يأخذ الكوز. فيغرف من حبّ[1] كان فى

---

(١) الحب: حب الماء يشبه ما يسمى عندنا «الزير»

الشمس نهاره ، فقلت ياعتبة : لو أعطيتنى دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء أو أمرت مولاتك فصنعت لك ؟ فقال : ياأم عطاء ، الأمر أعجل من ذلك .. كسرة وملح تسد عنى كَلَبَ الجوع ، حتى يهيَّأ فى الدار الآخرة الشواء والطعام الطيبُ .. وكان يصوم الدهر ، ..

قال سلم العبادانى : يرحمه الله أيها الرفقة ! لقد كان شوقه إلى دار الخلود يكاد يذيبه ولهاً بها . ولقد قدِمَ علينا مرة ومعه عبد الواحد بن زيد وصاحبان آخران ، فنزلوا على الساحل ، فهيأت لهم طعاما ذات ليلة ودعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وضع بين أيديهم ، إذا غلام على الساحل يرفع صوته بقول القائل :

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس .. عيُّها غير نافع

فانتفض عتبة انتفاضة سقط على أثرها مغشياً عليه .. وبكى القوم لغشيته ، واشتغلنا به ، ورفعنا الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة !!

قال عبد الواحد بن زيد : إنى لأذكر تلك التى تذكر ياسلم ، وأذكر أنى صنعت طعاماً لنفر من إخوانى وكان فيهم عتبة ، فأكل القوم إلا عتبة فإنه قام يخدمهم ، فلما فرغ القوم سأله أحدهم فى ذلك ، فأجاب : احتفائى بخدمتكم أهنأ إلىَّ من الطعام ، وإنى ذكرت موائد أهل الجنة والخدم قيام على رءوسهم ، فأحببت أن تكون مائدتنا على مثالها .

قال عبد الواحد : فوالله لقد وقع فى نفسى كلامه موقعاً لم أجد معه إلا أن أنذِرَ على نفسى ألا آكل إلا دون الشبع ، ولاأشرب إلا أقل من الرى ..

قالت أم عطاء : لله ما ترك عتبة من شهوات نفسه !! لقد نازعته نفسه مرة إلى اللحم فقال لها : اندفعى عنى إلى قابل ، فما زال يدافعها سنة بعد سنة حتى أخذ دانقاً ونصفاً وأتى صديق له خبازاً فقال : ياأخى إن نفسى تنازعنى لحماً منذ كذا ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ! فَخذْ لى رغيفين

وقطعة من اللحم بهذا الدانق والنصف ، فلما أتاه به إذا هو بصبى يمشى فى الطريق ، فأسرع إليه وقال له : ألست ياغلام فلان ابن فلان ؟ وقد مات أبوك ؟ . قال : بلى ..

قالت أم عطاء : فجعل عتبة يبكى ويمسح رأسه وقال : قرة عينى من الدنيا أن تصير شهوة نفسى هذا اليتيم ، فناوله ما كان ثم قرأ «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا» .

قال محمد بن مستور : رحم الله عتبة ، والله لقد كانت آيات الزهد تنير فى قلبه مثل المصابيح وما أحسب إلا أنها بهذا النور أعانته على جهاد نفسه ، وإنى لأذكر أنه وفد علينا يوماً فقلت لأصحابى : اشتروا لحماً بدرهم واطبخوه سكباجا حتى يتعشى به عتبة ، فلما صلى العشاء فقدناه ، فطلبناه فوجدناه قد أوى إلى جنب خال وأمامه سويق دقيق قد جعله فى وعاء له وقد صب عليه ماء ، وهو يأكل وعيناه تذرفان ، فقلت له : سبحان الله ، إخوانك قد صنعوا لك سكباجا ! فقال : هذا يكفينى . إنى أخاف أن يقال لى يوم القيامة «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» .

قالت أم عطاء : هو ما تقول ياابن مستور ، لقد كانت آيات الزهد تزهر فى قلبه مثل المصابيح حتى أنارت له كل شىء .. أنارت له الدنيا فلم يكن قدرها لديه إلا أن دعاربه : اللهم منّ على بصوت حزين ودمع غزير وغذاء من غير تكلف ..، وأنارت له الآخرة فكان قدرها لديه أن دعاربه : «اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطون السباع» .. فياليت من يملئون حواصلهم بأموال الضعفاء ولحوم اليتامى يعتبرون بسيرة ذلك الصديق الشهيد ، الذى وهب من نفسه كل شىء ، ووهب لحمه أخيرا لحواصل الطير وبطون السباع مهرا للشهادة فى سبيل الله !!

وصمتت أم عطاء لحظة ومضت تقول : لقد جاء فى غداة باردة وما فى

البصرة كلها إلا من أوى إلى فراش يدفئه أو موقد يصطلى بجذوته ، فقال : الوداع ياأم عطاء ! لقد أزمعت الرحيل إلى الشام غازياً فى سبيل الله !! قلت : يعز على فراقك ياعتبة ، فلا أوحش الله منك .

فقال : بل قد يطول الفراق ، وما أحسبنا نلتقى .

وهنا اختنقت أم عطاء بالبكاء ، فسكتت لحظة كفكفت فيها من الدمع ثم عادت تقول : لله تلك الأوراح الطاهرة والنفوس المشرقة ، لقد صفا طبع عتبة حتى كان أضوأ من وجه المرآة ، فكان لا يخطر بنفسه الخاطر من أمر الله فى لحظة من نهار ، إلا تراءى سره فيه ، وما كانت البشرى تنزل إليه فى رؤية من الرؤى إلا جاءت كفلق الصبح . لقد قال لى : سيطول الفراق ياأم عطاء ، وما أحسبنا نلتقى فى هذه الدار !! هكذا رأيت تلك الليلة ، وما أحسب إلا أن الله قد أجاب ما كنت أدعوه به : اللهم احشر عتبة فى حواصل الطير وبطون السباع ! ومضى يقول : أرأيت ذلك المكان فى دارى ، الذى أتعبد فيه ؟! هذا مفتاحه فاجعليه معك لايفتحه أحد، فإذا بلغكم منعاى فافتحوه، ففيه وصيتى .

ولما بلغت أم عطاء هذا الحد من الكلام أخذها مايشبه الرعدة ، وبكت وهى تواصل حديثها قائلة : لله تلك النسمة الزكية ، ما أشد ما كانت تذكرنا الدار الآخرة حتى لكنت أكاد أسمع صيحات الفزع تطلقها نفسى بين جنبى من هول ما كانت ترى فى كلامه من صور القيامة .. قال لى مرة : لولا مانهينا عنه من تمنى الموت لتمنيته ، لى فيه خلتان حسنتان : الراحة من عشرة الفجار ، ورجاء مجاورة الأبرار .. ثم بكى وقال : أستغفر الله ، وما يؤمننى أن يُقرن بينى وبين الشيطان فى سلسلة واحدة من حديد ثم يقذف بى فى النار ؟ فما كدت أسمع كلمته حتى خلع الهول قلبى .. وكنت أحسب ذلك هو كل جهد عتبة معنا مع نفسه ، ولكن هيهات لسابق المضمار أن يقف بحاله مع نفسه عندما يقف مع الناس ..

لقد جاء الناعى بنبأ استشهاده واسترجعنا ماشاء الله أن نسترجع ، ثم قمنا إلى مكان عبادته لنرى وصيته التى وصى بها ، فإذا المكان ليس فيه إلا قبر محفور ... وسلسلة ذرعها سبعون ذراعا .. وشهقت أم عطاء وأجهشت بالبكاء وأجهش القوم معها فلم يُر أكثر بكاء لموعظة من ذلك اليوم ...

وكانت الشمس قد انحدرت للمغيب فلم يعد منها إلا بقية صفراء على رؤوس الأشجار ، فجاءت جارية تؤذنها أن الخل الذى اعتادت أن تفطر عليه من صيامها مع كسر الخبز قد نفد ، فإن لم يكن لك حاجة إلى وضوء المغرب مضيت فاشتريت خلا ، فقالت وهى شارقة بالدمع : بل قربى لى الوَضوء فإنه لاأرب لى فيما تشغلين به نفسك ، وفى الماء القراح غنية للصائم إذا أراد المسير إلى أحبابه !!

وتفرق الجمع ليستعدوا لصلاة المغرب وهم يشفقون أن ينصدع فؤادها لما هاج به من الوجد .

★ ★ ★

والتاريخ لم يفرغ بعد من حال عتبة الغلام ، فما يزال لديه مزيد من تلك الصور المشرقة ، صور الوجدان الواله المنجذب إلى جمال الحق ... لقى عتبة صديقاً له فقال : كدت لا ترانى ياأبا أنس !! قال أبو أنس : وما ذاك فإنى أرى وجهك وصوتك لا يثبتان على حال ؟ ... قال : كادت الأرض تخف بى !! قال : وما جنايتك ؟ قال : رأيت أحد إخوانى فقال لى ياعتبة : أنت فى كساءين وأنا فى كساء واحد ؟ .. فوالله لولا أنى أعطيته لما ظننت أنى أنجو من الأرض وهى تميد بى تريد أن تأخذنى كما أخذت قارون من قبل !

وهل تريد أخى القارىء أن أحدثك عن ذلك الضمير المرهف الذى زلْزل الأرض بقدمى صاحبه ، لا لجناية جناها بل لأنه بدا فى ثوبين وصاحبه فى ثوب واحد ؟ ... إن كل حديث عنه لا يبلغ حقيقته أبداً ، ولقد بدت صورة هذا

الضمير للبصائر تهز الكيان وتثير رواكد النفس، وتعرض على ذهن القارئ حال أولئك الغلاظ الذين لايكتفى أحدهم أن يجمع لنفسه كل شيء، وليس لأخيه شيء ... بل يحوز إلى جانبه كل شيء، ويذود أخاه أن يكون له شيء ... لايكتفى أحدهم بذلك ولا يطيب عيشه حتى يمتع نفسه برؤية هذا الفارق الشاسع بينه وبين أخيه المحروم، فإن نفوس هؤلاء الأنانيين تتغذى برؤية هذا الفارق بألذ مما تتغذى به معداتهم وأبدانهم .. وليس أشهى فى غرور أحدهم إذا خرج على الناس فى زينته من أن يرى وجوه الذل تعنو لكبريائه، ونظرات البؤس والفاقة تنقل إلى سريرته ما تتشهاه خواطر المحرومين؛ فيفرح قارون الصغير بما فرح به قارون الكبير يوم: «قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون».

بذلك الضمير الحى القوى تنعقد قيمة المرء، فانظر ماذا يساوى عتبة الغلام بين الرجال، أو بين عظماء الرجال بهذا الضمير؟ لقد كان ضميراً متعدد نواحى الحساسية، فما تراه إلا متجاوبا مع فضيلة من الفضائل أو فزعا وجلا مما حسبه تفريطا زلت به قدمه. لقيه عبد الواحد بن زيد مرة فى رحبة القصابين فى يوم شات شديد البرد فإذا هو يرفَضُّ عرقا وقد أطرق برأسه لا يرفعه!! قال عبد الواحد فدنوت منه وقلت: عتبة!!

قال: نعم.

قلت: ما شأنك

قال: خير

قلت: مالك تعرق فى مثل هذا اليوم؟

قال: خير!!

قلت: ناشدتك الأنس الذى بينى وبينك والإخاء ألا ما أخبرتنى.

قال: ذكرت والله ذنبا أصبته فى هذا المكان فحضرنى ما ترى وأنا تحت عين الله.

ترى ماذا تكون العظمة إذا لم يكن أمثال هؤلاء هم العظماء ؟ إن الإنسانية بحاجة إلى تقرير موازين صادقة لمعانى العظمة، موازين تنفى الزيف فلا تقوم لشيء من تهريج المهرجين وجرأة السفاحين وقوة الغاصبين وشهرة المضلين من أهل الرياء والكذب والغدر، ولا تحفل إلا بهذا اللباب الذى يقوم على مجاهدة النفس والاستشراف إلى الحقائق العليا . وتسألنى ماذا أُسند إلى هذا الرجل من مناصب أو ماذا تقلب فيه من أسباب الثروة ؟ هل كان قائداً مظفرا أو كان والياً تحدث الناس بمجد رياسته أو وزيرا فى مقر الخلافة قصده وجوه الناس أو إماما فى العلم تزاحم العلماء والطلاب فى مجلسه ؟ فإذا لم يكن واحدا من هؤلاء فهل كان من أرباب الضياع الواسعة أو صدور التجار الذين كانت لهم قوافل السفن غادية ورائحة كم شركة أقام أو كم مصنعاً أنشأ ؟ إننا اعتدنا أن نسمى كل هؤلاء عظماء وليس فى موازيننا ما يحفل بغير النجاح فى تلك الميادين فأى شيء كان عتبة الغلام من ذلك ؟ ... نعم حدثنا أبو عمرو البصرى قال : «كان رأس مال عتبة فَلسا واحداً فيشترى به الخوص فإذا عمله باعه بثلاثة فلوس . ففلس يتخذه لرأس ماله وفلس يشترى به شيئاً يفطر عليه وفلس يجعله فى سبيل الله، يتصدق به أو يعين على نائبة» .

وليس لنا أن نعجب بعد ما قدمناه كيف حفل التاريخ بصانع الخوص ورأى صورته جديرة بالتسجيل ؛ فتاريخ تلك الحقبة لم يكن كتاريخنا الحالى لاينظر إلا إلى بهجة المنصب ورفعة الجاه وذيوع الشهرة وسعة الثراء والمال بل كان يحفل أول مايحفل بحقائق النفوس ومعادن الطباع وروعة المجاهدة والتزام شرائط التقوى ولايمجد مظهراً من المظاهر إلا إذا كان ممدوداً بسر من أسرار عظمة الروح . لقد طالما أنحى عتبة على نفسه بالتخفى وخمول الذكر فراراً من فتنة النظر إلى غير الله فكان الذى عمله سبب ذيوع ذكره وسَعْى أشراف الناس إليه وذوى الرياسة والجاه منهم ؛ قال سليمان[1] بن

(١) سليمان بن على بن عبدالله بن عباس عهد إليه فى مبدأ الدولة العباسية بإقرار دعائمها =

على لبعض أصحابه: ويحك أين عتبة هذا الذى افتتن به أهل البصرة؟. فخرج به حتى أتى بعض الأماكن فوقف به على عتبة وهو مطرق الرأس ينكت الأرض بعود فى يده وهو لايشعر بمكانهم منه.

قالوا : السلام عليك ياعتبة.

فرفع رأسه فنظر فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

قالوا: كيف أنت ياعتبة.

قال: بين حالين لاأقر على حال منهما : بين جحيم أفزع منه ونعيم لم أقدم له شيئا.

فإذا قدمت على الله فما عسى أن يكون قدومى. ثم نكس رأسه وجعل ينكت الأرض: فقال سليمان لصاحبه: أرى عتبة قد أحرز نفسه ولايبالى ما أصبحنا فيه وأمسينا ... ثم قال ياعتبة قد أمرت لك بألفى درهم، قال: أقبلها منك أيها الأمير على أن تقضى لى معها حاجة قال سليمان وقد سره ما سمع من عتبة نعم ما حاجتك؟ قال حاجتى أن تعفينى منها وتجعلها إن شئت فى مصالح المسلمين !! قال سليمان قد فعلت ثم عاد أدراجه مع صاحبه وهو يقول أزاح عتبة القناع على قلبى فإذا الذى نحن فيه هين وإذا الذى كنا نستطيل من الأجل حاضر أمام أبصارنا !!

وحق لمن يجلس إل هذا الزاهد التقى أن يفيق من غفلته وتنتصب فى ذهنه معالم الآخرة، فأنه ما رأى لنفسه فضل عبادة قط فيركن إليه ولا غابت القيامة عنه فيبطىء الخطا؛ بل هو الحزن العميق على مايرى من تقصير نفسه فلا يقر على قرار وفيح جهنم يفور بين أذنيه وعينيه فلا ينجيه إلا الفرار المتواصل إلى الله ... قال عبد الواحد بن زيد صديقه الحميم لقد كنت

= فى البصرة والتمكين لها فقتل كل من حامت حوله شبهة الهوى لبنى أمية أو عدم الإخلاص لبنى العباس حتى افنى خلقاً كثيراً وعلى ذلك يكون عتبة عاش أواخر عهد أمية وصدر الدولة العباسية

أسهر ، مايسهرنى إلا التفكير فى أمر عتبة وطول حزنه ولقد كلمته ليرفق بنفسه فبكى وقال : إنما ابكى على تقصيرى ... وقال : كان عتبة يزورنى وربما بات عندى – فبات عندى ليلة فبكى من السحر بكاءً شديداً فقلت ارفق بنفسك ياعتبة فما هو إلا أن مال ليسقط فاحتضنته فجعلت أنظر إلى عينيه تتقلبان فناديت : عتبة عتبة .. فأجاب بصوت خفى : إن ذكر العرض على الله قطع أول المحبين ! ...

تراك يامولاى تعذب محبيك وأنت الرءوف الرحيم .

ومما رواه عنه منصور بن زاذان عن قتادة عن أنس ، ان رسول الله ﷺ قال « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان : الحرص والأمل » .

ومما رواه عن محمد بن زهير عن ابن عمر ، قوله ﷺ « إن الله تعالى عند لسان كل قائل ، فليتق ولينظر ما يقول » .

رضى الله عن عتبة وأرضاه .

أبو حازم

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث الى ابى حازم الاعرج وعنده ابن شهاب . فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم .

قال : فيم اتكلم يا امير المؤمنين ؟

قال : فى المخرج من هذا الامر .

قال : يسير ان انت فعلته .

قال : وما ذاك ؟

قال : لا تأخذ الاشياء الا من حلها ، ولا تضعها الا فى اهلها .

قال : ومن يقوى على ذلك ؟

قال : من قلده الله من امر الرعية ما قلدك .

قال : عظنى ابا حازم !

قال : اعلم ان هذا الامر لم يصر اليك الا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك .

قال : يا ابا حازم اشر على .

قالق : انما انت سوق ، فما نفق عندك حمل اليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت .

قال : مالك لا تأتينا ؟

قال : وما اصنع باتيانك يا أمير المؤمنين؟ ان ادنيتنى فتنتنى ، وان اقصيتنى اخزيتنى ، وليس عندك ما ارجوك له ، ولا عندى ما اخافك عليه!

قال : فارفع الينا حاجتك .

قال : قد رفعتها الى من هو اقدر منك عليها ، فما اعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت!

عطاء بن ميسرة

هذه النفس .... نفسى ونفسك أيها القارىء ، فلا أظنك لو كنت معى إلا شاعراً بما أشعر ، ما حقيقتها ؟ ما هو هذا السر الذى يجعلها حين تصفو رحبة تسع الأرض والسماء .... ويطويها حين تظلم فى بئر آسن لا ينفذ اليه نور ولا هواء ..... فكأنك بها حين تصفو نسمة طائرة تتجاوز السدود والحجب ، وكأنك بها حين تظلم شىء تافه يضيق بكل شىء حوله ، ولا يرى حوله الا السدود والحجب .....! ثم ما أتعس الآسنه بين جنبيه ، تحد امام عينيه كل ما يرى ، وتحكم فى نفسه كل ما يدلف اليها من خارج .

لا يعلم سر هذه النفس إلا الله : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

★ ★ ★

كان ذلك حديث نفسى وانا جالس فى شرفة «بحمدون[١]» ..... وتحتها الوادى الاخضر الفسيح ... وإلى جانبى كتاب «الحلية» مفتوحا على حديث «عطاء بن ميسرة» رضى الله عنه ، وبين اخباره القليلة عاشت نفسى لحظات فى أفق مشرق ، وفى جمال رقيق ندىّ ، ثم خلوت الى القلم أستودعه شيئا مما كنت أجده ، ولا أظنه يبلغ ان ينقله كما هو ... إلا أن يغمره السر العزيز الذى جعل فى النفس عواطفها ، وفى الوادى الاخضر جماله ، وفى عطاء بن ميسرة ما فيه مما سوف تعلم!

---

(١) إحدى مدن لبنان .

أجل ياأخى .. ليس كحديث «الرجال» حديث يحمل اليك المعانى الطائرة لتراها بعينيك ، لتراها ماثلة فى لحم ودم : فى إنسان مثلك عاش كما تعيش ، وما أقرب حينئذ ان تتحرك نفسك لتعيش كما عاش ، وهى ترى فى حاله حجة على حالك ، ومثلا حاضرا دبَّ على الأرض أياماً ثم مات .....مات ...... هذه الكلمة الصغيرة الكبيرة ..... والنهاية الحاسمة لعمر الانسان مهما امتد ، ولزخرف الحياة مهما خدع ، وهى عنوان الحقيقة التى يغفل عنها اكثر الاحياء ، وتشغلهم عنها الأيام والليالى والسنون ، وهذه لو علموا هى المدة التافهة فى عمر الكون ، والقنطرة الصغيرة الى الشاطىء الممدود «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» !!

ولعل من خير ما يعين على إزالة هذه الغشاوة عن النفس ... أن تقرأ أخبار شخص «مات» ، وأن تقرأ من خلال ذلك ما صار إليه ، فإن من طبيعة هذه النفس الا تنقطع صلتها بنفس مثلها وإن غاب شخصها ... ولا أزال أذكر كلمات سمعتها من الاستاذ الامام الشهيد رضوان الله عليه فى ليلة ندّية بدار المركز العام ، وكان يتحدث عن الآخرة فقال : «ليذكر كل منكم ميتا عزيزا عليه ، وليسأل نفسه : ترى ألن نلتقى مرة أخرى ؟! وسيجد الجواب فى أعماقها ... بل سوف نلتقى ؛ وذلك هو برهان الآخرة !!» وأجمل ما تكون الذكرى فى النفس حين يكون صاحبها صالحا رضيّا ، وحين تكون اخباره من أخبار القيم الرفيعة التى لا تموت ، لا من توافه «دنياه» التى ماتت بموته !!

★ ★ ★

يقول عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : «كنا نغزو مع عطاء ، فكان يحيى الليل من اوله الى آخره الا نومة السحر ، وكان اذا ذهب من الليل ثلثه أو نصفه نادانا وهو فى فسطاطه يسمعنا ، ياعبد الرحمن بن يزيد ، ويايزيد بن يزيد ، وياهشام بن الغاز ، ويافلان ويافلان ، قوموا وتوضئوا وصلّوا ، فإن قيام هذا الليل وصيام هذا النهار أيسر من شراب الصديد ، ومقطعات الحديد ! النجاة النجاة ! ثم يقبل على صلاته» .

ويروى ابن يزيد انه سمعه يقول : «أن داود النبى عليه السلام قال يارب : ما لبنى اسرائيل اذا نزل بهم كرب او شدة قالوا ياإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؟ فأوحى الله تعالى الى دواد ان إبراهيم لم يخبر بينى وبين شىء قط الا اختارنى عليه، وأن إسحاق جاد لى بمهجته، وأن يعقوب ابتليته ببلاء، فما أساء بى ظنا فى ذلك البلاء حتى فرجته عنه وكشفته»!

ويقول عطاء : «ذكر عيسى بن مريم هذه الأمة وخفة احلامها ومالها عند الله من الثواب، فعجب أصحابه من ذلك وسألوه مم ذاك؟ قال : جرت على ألسنتهم كلمة استصعبت على الأمم قبلهم : قول «لا إله إلا الله».

ويقول : «ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت».

ويقول فى تفسير قوله تعالى «ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» : أى حسبك ومن اتبعك من المؤمنين الله! وفى تفسير «وجوه يومئذ مسفرة» : من طول ما اغبرّت فى سبيل الله!!

ويعظ الناس يوما فيقول : «إنى لا أوصيكم بدنياكم فأنتم بها مستوصون، وأنتم عليها حراص، وإنما أوصيكم بآخرتكم. تعلمنّ أنه لن يعتق عبد وإن كان فى الشرف والمال، وإن قال انا فلان بن فلان. حتى يعتقه الله تعالى من النار، فمن اعتقه الله من النار عتق، ومن لم يعتقه الله من النار كان فى أشد هلكة هلكها احد قط؛ فجدوا فى دار المعتمل لدار الثواب، وجدوا فى دار الفناء لدار البقاء؛ فإنما سميت الدنيا لأنها ادنى فيها المعتمل، وإنما سميت الآخرة لأن كل شىء فيها مستأخر، ولأنها دار ثواب ليس فيها عمل!..... واجعلوا الدنيا كشىء فارقتموه فوالله لتفارقنها، واجعلوا الموت كشىء ذقتموه فوالله لتذوقنه، واجعلوا الآخرة كشىء نزلتموه فوالله لتنزلنها، وهى دار الناس كلهم، ليس من الناس احد يخرج لسفر إلا أخذ له أهبته، وتجهز له بجهازه، وأخذ للحر ظلالة، وللعطش مزادا، وللبرد لحافا، فمن أخذ لسفره الذى يصلح له اغتبط، ومن خرج الى سفر لم يتجهز

له بجهازه ، ولم يأخذ له أهبته ندم ؛ فإذا أضحى لم يجد ظلاً ، وإذا ظمىء لم يجد ماء يتروى به ، وإذا وجد البرد لم يجد لذلك لحافا ، فلا أرى رجلاً أندم منه ، وإنما هذا سفر الدنيا ينقطع عنه ولا يقيم فيه ، فأكيس الناس من قام يتجهز لسفر لا ينقطع ، فأخذ فى الدنيا لظمأ لا يروى ؛ فمن آواه الله فى ظل عرشه لم يضح ابدا ، ومن أضحى يومئذ لم يستظلّ ابداً ، ومن قام فأخذ لرىّ لم يعطش أبداً ، فإن من عطش يومئذ لم يرو أبدا ، ومن قام فأخذ لكسوته لم يعر أبدا ، فإنه من عرى يومئذ لم يكس أبداً !!» .

وأنك لتجد روحه الاجتماعية فيما يقول ويروى ، فهو يرى من خير الذكر ما يعرف به الحلال من الحرام ، كى يستقيم الناس فى حياتهم على ما أراده الله ، وأثر عنه فى ذلك قوله «مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام» ؛ وهو يعرف كيف ينشد حاجته فيمن يقبلون على وعظه ، ويوجه الى ذلك تلامذته ، فيقول : «طلب الحوائج من الشباب اسهل منه من الشيوخ ، ألم تر الى قول يوسف «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» وقال يعقوب «سوف استغفر لكم ربى» !

وتراه فى الحديث عن الزواج وأصوله التى لا يقوم إلاّ بها يوجز فيقول : «كل تزويج على غير هدى حسرة وندامة الى يوم القيامة» .

وفى سنة الشر مع المكافحين له يقول · «لَلْعيب أسرع الى من يتحرى الخير من الدسم فى الثوب الجديد» وهى صورة حية سواء عنى عيبا يُهتم به المتمسك بالخير ، او عيبا يتكشف له حين يتحرى !

وتبدو هذه الروح الاجتماعية فيما رواه عن رسول الله ﷺ وتفرد برواية بعضه .... روى عن الحسن عن جابر ان الرسول قال : «الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقا ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو افضل الجيران حقا ؛ فأما الجار الذى له حق واحد فالجار المشرك لا

رحم له وله حق الجوار ، وأما الذى له حقان فالجار مسلم ذو رحم له حق الاسلام وحق الجوار وأدنى حق الجوار ألا تؤذى جارك بقتار[1] قدرك إلا أن تقدح[2] له منها» .

وروى عن ابن عباس «سمعت رسول الله ﷺ يقول : حرمت النار على ثلاثة أعين : عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله»

وعن ابى عمران عن عائشة قالت : «كان أحب الاعمال الى رسول الله ﷺ : عملان يجهدان نفسه ، وعملان يجهدان ماله ؛ فاللذان يجهدان نفسه الصوم والصلاة ، واللذان يجهدان ماله الجهاد والصدقة» . وعن نافع عن ابن عمر «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا الى دينكم» !

☆☆☆

ولفت نفسى فى أخبار عطاء عاطفة الأخوة فى الله عنده ، فهو مرة يقول لمريديه : «تعاهدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم وإن كانوا نسوا فذكروهم » وكان يقال : امش ميلا وعد مريضا ، وامش ميلين وأصلح بين اثنين ، وامش ثلاثة وزر أخا فى الله» ومرة اخرى عن ابى هريرة ان رسول الله ﷺ قال : «ما تواد اثنان فى الله فى الاسلام فيفسد ذلك بينهما إلا من حديث يحدثه احدهما» وهو مرة ثالثة يروى عن ابى ادريس الخولانى انه سمعه يقول : «دخلت مسجد حمص فجلست فى حلقة كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ ، فيهم شاب اذا تكلم أنصت القوم

(١) القتار ريح الشواء .

(٢) القدح من القدر العرف منها

له ، فقلت له حدثنى عن رسول الله ﷺ ، فقلت له حدثنى رحمك الله ، فوالله إنى لأحبك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول المتحابون فى جلال الله فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله» قلت من أنت رحمك الله ؟ قال انا معاذ بن جبل» ! .... وتجده مرة رابعة يروى عن ابى رزين ان رسول الله ﷺ قال له : «ياأبا رزين زر فى الله ، فإن العبد اذا زار اخاه فى الله وكل الله به سبعين ألف ملك ؛ فإن كان صباحا صلوا عليه حتى يمسى ، وإن كان مساء صلوا عليه حتى يصبح . فإن قدرت ان تعُمل جسدك فى ذلك فافعل» .

وإنك لتراه الى كل ذلك عزيزا لاتأخذه فى الله لومة لائم ، وفى ذلك يروى عن موسى عليه السلام «يارب مائة موتة أموتها أهون على من ذلّ ساعة» !!

رضى الله عن عطاء ، وألحقنا به فى الصالحين .

الامام الممتحن أحمد بن حنبل

قرأت سيرته منذ سنوات ، وتحدثت بها الى بعض إخوانى فيما كانوا يحضرون من دروس الفجر ، فكنت كلما تمثلته فى خيالى بدا لى كأنه علم أشم ، شاهق الأركان ، تغيب فى زرقة السماء ذراه المتسامية الرفيعة ، وتمتد أكنافه فى عرض الأفق فلا يأتى النظر على غايته .... فاذا أردتُ القول عنه شق علىّ أن أجد الطرف الذى أتناول منه الحديث .

تلك واحدة ، والاخرى انه حفر فى قلبى ثغرة عميقة من الأسى الحى المتجدد ، حفرها بصبره العجيب على الفقر والمرض والمحنة والسجن، والورع فى كل حال ، حتى أيأس أعلام زمانه أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الخشونة التى قدرت له ، حتى قال يحيى بن معين – وهو من هو جلالة شأن ورفعة منزلة – «أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد» ... بل حتى وفدت عليه قلوب الناس مقرة له بالإمامة فى الورع والفقه والزهد والصبر ، قال ابراهيم بن متة السمرقندى سألت عبدالله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل : أإمام هو ؟ فقال : أى والله ! وكأفضل ما يكون الإمام ! إن أحمد أخذ بقلوب الناس ، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة !.

حفر هذه النقرة العميقة بصبره الجلد العجيب ، فما ذكرته إلا أحسنت

معينها الحى المتجدد يجيش فى أغوارها بوجدانه الرقيق الأسى ... فيجتمع الإعجاب بالطود الأشم الساحق الشامخ بالأسى الرقيق العميق المتجدد، وتأتلف منهما صورة أحببتها أصدق الحب: صورة لا تطل علىَّ بعينين، ولا أذنين، ولا وجه جميل أو دميم، ولا جسم طويل أو قصير، وإنما بمعنى ضخم: هو الحقيقة التى عاشت فى هذه الارض حينا باسم أحمد بن حنبل!.

لقد كان شيخاً طويلا، مخضوباً، أسمر شديد السمرة، ولكن شيئا من تلك الصفات لا أثر له فى الصورة الوجدانية التى تبدو لى فيها حقيقة هذا الإمام الجليل رضى الله عنه.

ومع ذلك كله فهو سهل واضح، لا تعقيد فى شخصه ولا غموض، شأنه فى ذلك شأن كل حقيقة سافرة موطأة الأكناف ... فاذا أردت أن تعرفه فاعرف عقلا نقياً شخَّص لى الاسلام القوى الواضح، لا فى أحكام وقواعد ونظريات، وإنما فى متون سيرة رسول الله ﷺ ... فقثبت همه على تلك المتون متابعاً خطو نبيه ﷺ فى كل ما يعرض له من جليل الامر أو دقيقه، ومن حسيه أو معنويه، لا يحيد عنها ولا يزيغ قيد شعرة ... وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدق من الحبل، وتحته هوة سحيقة مهلكة، كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه، وجده فى الاستمساك به، وحذره أن يميل أو يهلك، فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر من سنة رسول الله ﷺ فى ورع وجد ووقار حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه، فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته، قال خلف بن سالم: كنا فى مجلس يزيد بن هارون - المحدث الكبير فى واسط - فخرج يزيد مع مستمليه فتنحنح أحمد بن حنبل - وكان معنا فى المجلس - فقال يزيد: من المتنحنح؟ فقلنا: أحمد بن حنبل، فضرب بيده على جبينه وقال: ألا أعلمتمونى ان احمد ها هنا حتى لا أمرح؟!.

تمثل ذلك كله، وتمثل معه صبرا عجيبا لا يدركه الوهن ولا الترخص،

صبر يمتاز بالجدة والقوة حتى ليخيل اليك وأنت تقرأ له الحادثة من الحوادث ان صبره فيها هو كل ما تجمع فى طاقته ، أو انها استنفدت كل ما فى طبعه من طاقة الصبر ، وانك لن تجد هذا الطبع إلا مقصراً متخلفاً عن ذلك الشأو فيما تستقبل من بقية الحوادث ... فاذا انتقلت معه ، واستقبلت ، رأيت العجب ، وأدركتك الدهشة والحيرة مما يتلاحق أمامك من آيات هذا الطبع السخى الصبور .

ذلك كله هو أحمد بن حنبل : عقل نقى ... وهمة منعقدة بآثار رسول الله ﷺ ... وصبر لا يغيض له معين ، ولا تهن له قوة ، ولا تبلى له جدّة !.

بدأ يحضر مجالس العلماء الكبار ويستمع الى حديث رسول الله ﷺ وسنه خمس عشر سنة أو ست عشرة ، يحليه طبعه الأبىّ ، وورعه العميق ، وصمته الوقور ، فما لبث ان ذاع صيته ، وصار المشار اليه من بين أقرانه حتى قال الهيثم بن جميل : إن لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفضيل بن عياض حجة على أهل زمانه ، وأظن هذا الفتى - إن عاش - سيكون حجة على أهل زمانه، وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد كان يجمع الحديث جمع الإمام الفقيه ، لا جمع الإمام الراوية فحسب ، فكان يجيل عقله النقى فيما يحفظ، ويمتاز بصدق ما يستخرج من أحكام الفقه وأجوبة المسائل . حضر قوم من المشتغلين بجمع الحديث مجلس الفقيه الكبير أبى عاصم الضحاك ، فقال لهم : ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم ، فقالوا : فينا شاب فقيه سيجىء الساعة ، وكانوا يعنون أحمد بن حنبل . فلما حضر قال له أبو عاصم : تقدم ... فقال : أكره أن أتخطى الناس[1] ، فقال ابو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه .... أوسعوا له . فأوسعوا ، فدخل حتى جلس بين يديه ، فألقى اليه مسألة فأجاب ، وألقى ثانية فأجاب ،

(١) ورد فى سنة رسول الله كراهة تخطى رقاب الناس فى المسجد ومجالس العلم .

وثالثة فأجاب ، ومسائل فأجاب ، فقال أبو عاصم : هذا من دواب البحر - يقصد أنه عجيبة من عجائب العلم .

وإنك لا تخطئ فى هذا الفقه خصائص الإمام ابن حنبل ، ونهجه فى ملازمة السنة والأخذ من آثار الصحابة رضى الله عنهم . قال إبراهيم بن هانىء : اختفى عندى أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ، ثم قال · أطلب لى موضعاً حتى أتحول اليه . قلت : لا آمن عليك يا أبا عبدالله . قال : اذا فعلت أفدتك فائدة من العلم . فطلبت له موضعا ، فلما خرج قال لى : اختفى رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثة أيام ثم تحول ، وليس ينبغى أن تتبع رسول الله ﷺ فى الرخاء ، وتترك متابعته فى الشدة ... ولقد صلى يوم محنته والدم يسيل من مواضع ضرب السياط ، فأنكر عليه بعضهم ذلك ولفته اليه ، فقال : لقد صلى عمر رضى الله بالناس وهو مطعون ينزف منه الدم .

هذا هو مذهبه فى العلم والفقه ، ولذا كان يرى من ضيعة العلم ، وسقوط منزلة المرء ان يسعى لتلقى أقوال الرجال فى الفروع والمسائل ، وينصرف عن سوق السنة وهى رائجة . قال موسى بن حزام : كنت أختلف الى أبى سليمان الجرجانى لأتلقى عنه كتب محمد بن الحسن فى فقه أبى حنيفة ، فاستقبلنى احمد بن حنبل عند الجسر ، فقال لى : الى أين؟ قلت : الى أبى سليمان . فقال : العجب منكم ، تركتم ثلاثة يبلغون بكم النبى ﷺ ، وأقبلتم على ثلاثة يبلغون بكم أبا حنيفة! فقلت : كيف يا أبا عبدالله؟ قال : يزيد بن هارون يحدث الناس بواسط فيقول : حدثنا حميد عن أنس عن رسول الله ﷺ ، وصاحبك أبو سليمان يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبى حنيفة! قال موسى بن حزام : فوقع فى قلبى قوله ، فاكتريت زورقاً من ساعتى ، فانحدرت الى واسط فسمعت من يزيد بن هارون . وقال عبد بن حميد : كنا فى مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذ شاب إلا أنه المنظور اليه من بينهم ، فجاء رجل من بلخ دنا من أبى عبدالله فسأله شيئا فأجابه . فقلب الشيخ عليه الكلام ذاهبا مذهب المعاظلين فى الفروع والآخذين

بالرأى – قال وكان أحمد قليل الكلام – فلم يرد عليه إلا أنه أشار بيده اليمنى هكذا : أى تنح عنى ، ففطن بعض أصحابه الى أنه سأله عما لا يعنيه . ثم قال أحمد للرجل : يا هذا ، إنما مجلسنا مجلس مذاكرة حديث رسول الله ﷺ ، وحديث أصحابه ، فأما الذى تريد أنت ، فاقصد له مجلس ابن أبى دؤاد .

وفى سبيل تحصيل سنة رسول الله ﷺ ، رحل من بغداد ماشيا الى صنعاء ليسمع الحديث من عبد الرزاق محدث اليمن الكبير ، فمكث بها قرابة عامين ، وعاد منها الى مكة مجهداً بما لقى من خشونة العيش ومشقة الحرمان ، قال أحمد بن ابراهيم الدورقى : لما قدم ابن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً ، وقد ظهر عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبدالله ، لقد شققت على نفسك فى خروجك الى عبد الرزاق ، فقال : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ! كتبنا عنه حديث الزهرى عن سالم بن عبدالله عن أبيه ، وحديث الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة .

بهذا الحب لسنة رسول الله ﷺ ، والحرص على تلقيها ، والورع فى تحرير متونها ، وشدة التثبت من حال رواتها علا شأنه ، ورسخت قدمه ، وسار ذكره ، حتى قدَّمهُ العلماء ، وأقرّ له الأئمة بجلالة القدر ، فقال له الإمام الشافعى رضى الله عنه يوماً : يا أبا عبدالله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فاذا كان خبر صحيح فأخبرنى به حتى أتحول اليه ... قال عبدالله بن أحمد بن حنبل : فاذا وجدت الشافعى يقول فى كتابه : حدثنى الثقة ، أو أخبرنى الثقة فهو أبى رحمة الله .

نعم ، لقد أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الورع والخشونة التى قدرت له ، حتى قال يحيى بن معين كلمته التى فى صدر هذا الحديث . وقد حاولنا فى الصفحات الماضية أن نصور ورعه وحرصه الشديد على ملازمة سنة رسول الله ﷺ فقلنا : «وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدقُّ من الحبل ، وتحته هوة سحيقة مهلكة ،

كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه، وجدّه فى الاستمساك به، وحذره ان يميل يمنه أو يسرة، وخوفه أن يسقط الى الهلاك الفاغر فاه تحت قدميه، فذلك هو أحمد بن حنبل فى صدق متابعته للظاهر الثابت من سنة رسول الله ﷺ فى ورع وجد ووقار، حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه فكبر فى نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته».

ومذهبه الناصع الواضح الذى بناه على تلك المتابعة معروف للناس، مستفيض ذكره فيهم، وما زال كثير ممن يرضى لدينه نصاعة الحجة وسلامة البرهان يتبع ذلك المذهب الى اليوم فى ثقة وطمأنينة.

ولكنا اليوم لسنا بصدد مذهبه فى الفقه والأحكام، وانما بصدد مذهبه فى الورع العميق، وتجريد معيشته من كل شبهة، بل من ظل أى شبهة تغمض من نصاعة الحلال فى رزقة، وصبره على ذلك صبرا أيأس أعلام عصره أن يجروا فى مضماره حتى لم يجدوا حرجاً أن يقولوا «والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد».

كان يملك من دنياه داراً يسكن بعضها هو وأهله وبنوه، ويؤجر سائرها فلا يكاد الايجار يفى بمطالب الكفاف من معيشته.

والكفاف فى المعيشة أمر اعتبارى يختلف مستواه لدى الافراد باختلاف ما تطيقه نفس كل منهم من الصبر على الخشونة وضيق العيش وقلة الموجود، ولقد كان كفاف بعض الأئمة يعتبر من أوسع السعة اذا قيس بالكفاف الذى صبر عليه إمامنا الجليل رضى الله عنه، فلقد روى ابنه عبدالله فيما روى من أخبار أبيه بعد المحنة أنه أدخل دار المعتز وفى قدميه خف عليه «قد أتى عليه له عنده نحو من خمس عشرة سنة مرقوعاً برقاع عدة».

ولقد حج رضى الله عنه حجتين راكباً، فكم تقدر له من نفقة فى كل حجة؟ كم تقدر لشخص يحج من بغداد عاصمة العراق الى الحجاز ثم يعود لوطنه

فيما يتراوح بين أربعة وستة أشهر ...؟ لقد حدّث ابنه عبدالله أنه أنفق فى إحدى هاتين الحجتين عشرين درهما لا غير ! فاذا رأيت فى ذلك مستوى من الكفاف لا تكاد تطيقه نفس، فاعلم أنه مستوى يصور لك بعض السعة فى حاله، أما حقيقة مستواه فتصوره حجاته الاخرى، اذ لم يجد فى سعته نفقة الركوب فحج خمس حجات ماشياً وهو إمام جليل يشار اليه بالبنان.

ولقد شرَّق ذكره وغرب، وأقبل عليه وجوه الناس، ورغبوا فى صلته بأنواع البر والهدايا ومنح المال، فما ترخصَ فى ورعه وما أدخل على زهده منّة لمخلوق قط، فعاش كما قلنا طوداً سامقاً تغيب فى زرقة السماء كواهله الرفيعة قبل أن تصل العيون الى غاية ذراه.

كان يتردد عليه شاب من الصيارفة فناوله يوماً درهمين ليشترى له بها كاغداً، فاشتراه الشاب ووضع له فى جوف الكاغد خمسمائة دينار، وشده وأوصله الى البيت، فلما رجع الإمام سأل عن الكاغد فدفعه اليه أهله فما إن فتحه حتى تناثرت الدنانير، فردها الى مكانها منه ومضى الى الشاب فوضعها بين يديه، فتبعه الفتى وهو يقول : الكاغد اشتريته بدراهمك، فخذه دون الدنانير، فأبى أن يأخذ الكاغد أيضاً !!.

ولقد وجه اليه صديقه الحسن بن عبد العزيز ثلاثة آلاف دينار، قائلا له مع الرسول : يا أبا عبد الله هذه من ميراث حلال من مائة ألف جاءتنى من مصر، فخذها واستعن بها على عيلتك، فأبى.. فألح عليه الرسول – وهو أخو الحسن – فلم يقبل. فقال الرسول فى نفسه : لعلى لو أخبرته أنها ثلاثة آلاف قبلها، فقال له : يا أبا عبد الله إنها ثلاثة آلاف، فلما سمعها قام وتركنى.

وأرسل اليه أحد الصلحاء الأخفياء رسالة – لم يذكر فيها اسمه – مع رجل صالح يرجوه فيها أن يقبل أربعة آلاف «لتقضى بها دينك وتوسع بها على عيالك» قال ابنه صالح : «وكنا فى أيام الواثق، والله يعلم فى أى حالة من

الضيق نحن ، فدخلت مكان أبى – وكان خرج لصلاة العصر – وقد كان يجلس على لبد قد أتت عليه سنون كثيرة حتى بلى ، فرفعت اللبد فوجدت كتاب الرجل الصالح ... قال فلما عاد أبى سألته عن هذا الكتاب فاحمر وجهه وقال لقد أخفيته منك ... ثم قال له «تذهب بجوابه الى الرجل الذى جاءنا الكتاب على يده» فحملت الجواب وفيه : «أما بعد وصل كتابك الىّ ونحن فى عافية ، فأما الدين فانه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم فى نعمة والحمد لله ، فقال لى الرجل «ويحك لو ان أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به – مثلا – فى دجلة كان مأجوراً لأن هذا الرجل ممن يسترون معروفهم فلا يدرى به أحد» ... قال صالح : فلما مضت سنة ذكرنا ذلك فقال أبى : لو كنا قبلناها لما كان معنا الآن منها شيء إلا منّة الناس علينا !!

ولم يكن ذلك فى تلك الايام الناضرة مما يغض من قدر أحد لو أخذ ، فهو مم يتقرب به الناس الى الله لمن فرغوا نفوسهم لبيان التدين وتوضيح مناهجه وطرائقه ، وإن ما يدفعه الأغنياء من ذلك لقليل بجانب ما يبذله العلماء من عصارة القلب وأشعة الذهن ... ولكن إمامنا الجليل رضى الله عنه رأى ضيق الدنيا ليس بضيق ، ومحنة المرء فى عيشه ليست بمحنة اذا سلم له يقينه ، ورأى نعمة الله عليه أجل من أن تزاحمها فى الشكر نعمة لآخر كائناً ما كان ، فلم تمتد منه نظرة واحدة الى ما عند سواه .

ولقد كان تراحم الأئمة أن يصل أولو الفضل منهم والسعة من كان منهم فى ضيق وشدة ، ولقد كان لإمامنا الليث رضى الله عنه سنن مأثور من ذلك ، إذ كان لا يقطع بره عمن يعرف من أكابر الأئمة وأهل العلم ، وكان هؤلاء رضوان الله عليهم – وفيهم الإمام مالك – لا يرون بأساً فى قبول ما يصلهم به أخوهم ، ولكن أحمد رضى الله عنه آثر لنفسه نهجاً آخر حدث عنه فقال : «عرض علىّ يزيد بن هارون – المحدث الجليل بواسط وكان من المياسير – خمسمائة درهم فلم أقبل منه ، وأعطى يحيى بن معين وغيره فقبلوا منه» .

ولقد كان الخلفاء يرون أن يعينوا فقراء الأئمة ورجال الحديث من بيت المال، وكان لا حرج على أحدهم أن يأخذ، فهو مما ينفق فى سبيل الله ويعين على التفرغ لأقدس واجب، ولكن إمامنا الفذ لم يرض لنفسه أن يمد يده !! قال إسحاق بن موسى الأنصارى : دفع الىّ المأمون مالا أقسمه على أصحاب الحديث، فان فيهم ضعفاء، فما بقى منهم أحد لم يأخذ إلا أحمد بن حنبل فانه أبى» .

قال له ابنه صالح : ياأبت، إن أحمد الدورقى أخذ ألف دينار، فقال «يابنى» ، ورزق ربك خير وأبقى» ... وذكر عنده رجل فقال «يابنى الفائز من فاز غداً ولم يكن لأحد عنده تبعة» .

ولم يكن الإمام يذوق - مع هذا كرباً تضيق به نفسه، وتظلم معه الدنيا فى عينيه، بل كان يجد فى ضيق العيش أوسع السعة، وفى ظلام الكربة آفاقا من الضياء والرضاء، قال ابنه عبدالله : ذكر الفقر عند أبى فسمعته يقول «الفقر مع الخير» .

وهذا كلام جليل لا يصف خاطراً مر بالنفس، أو طيفاً ألم بخيال صاحبه، بل يصف حقيقة مستعلنة فى سريرته، ومواجيد يذوق طعومها فى خفية نفسه ...

والناس ضربان : ضرب يعيش فى عيشه، وآخر يحيا فى حقيقة نفسه ... فالأولون هم الذين يذوقون مسراتهم أو يلعقونها من خلال ما بأيديهم من رزق قليل أو كثير، فاذا لذّه المرعى قال : ربى أكرمن . واذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه قال : رب أهانن، فوجوده وجود الرغيف والقميص، وجذوره لا تتصل فى الحياة بغير هذين ... وأما الآخرون فهم الذين انتقلت أذواقهم من المحيط الظاهر التافه الى معين الحق القوى الجميل، وامتدت مشاعرهم الى ضمير هذا الكون، فاستروحوا بقدس الله فرحاً بغير مال، وأنسا بغير أهل، وجاهاً بغير منصب، وسعادة بغير مصدر محسوس، فاذا ذكر فضل الله

فحدث ما شئت عن نشوة الطرب، واذا ذكرت الدنيا فقد ذكرت السلعة المزجاة، والعرض الكاسد المردود. وذلك هو الذى عرفه الناس من حال أحمد وتكلموا به، قال ابو داود السجستانى : لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض فى شىء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فاذا ذكر العلم تكلم».

ولعل أحداً أن يقول لنا : وأين الصبر الذى ادعيتموه لأحمد، وزعمتم أنه متجدد الطاقة لا ينفد له مدد؟... ونقول : إن هذا الذى نصف هو الصبر، وليس للصبر معنى تتماسك به النفس فى كل موقف من مواقف المحنة أو النعمة، فاذا بها تؤدى للحق فى كل موقف ما يجب عليها له.

أو هو روح من أمر الله يمسك المرء من أن ينساق مع مشاعر الحياة الدنيا، فلا يعبث به الأسى على فائت، ولا يستخفه الفرح بما يذوق من نعماء، ويجعله أكبر من كل ما يعتريه من فتن العيش، فاذا كان فى محنة رأى نفسه فلم ير فيها إلا أنها فرصة من فرص التطهر والتطور الى ما هو أحسن. واذا كان فى سعة لم تخرجه السعة عن طوره لان ما يرد على قلبه من سعة فضل الله أعز وأهنأ وذلك من أصدق ما قدره القرآن الكريم من خصائص أهل الصبر (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير).

ولقد استعلنت تلك الصفة فى نفس أحمد رضى الله عنه الى جانب ما استعلن من صفات، فكانت القوة التى غالب بها التيار وظهر بها على كل مشقة وبفضلها اجتاز كل محنة، وخرج من كل شدة أصفى ما يكون معدناً على حد ما قال بشر بن الحارث «ادخلوا أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبة حمراء».

فالصبر هو القوة الغالبة التى تطفو بصحابها دائما على كل حادث من محنة أو منحة، فيصرِّف هو كل حادث، ولا يدع لحادث أن يُصرِّفه، لا يلتفت

قلبه لشيء من ذلك ، ولا يرى فى كل حال ألا وجه الله جل ثناؤه ... وتلك هى الصفة التى كان يعيش وجدان أحمد فوق بساطها .

ومن فوق بساط تلك الصفة كان أحمد رضى الله عنه يفرح بالفقر ، بل يفرح من خلو يده من عرض الحياة الدنيا ، قال ابنه صالح ، قال لى أبى يوماً : «يا بنى ، إذا أنا لم يكن عندى قطعة أفرح» ... وهو تعبير دقيق يلم بمعنى أصيل ، فأرباب القلوب حين ينصرفون عن المال لا ينصرفون عنه فحسب ، بل ينصرفون الى ما هو أربح وأوفر مغنما ، فلهم فى وجه الله ثقة تعظم وتستفيض كلما خلت أيديهم من عرض هذا الأدنى ، فيجدون لها روعة وحلاوة وثباتاً اذا صاروا من فضل الله وكلاءته وجهاً لوجه ، ولله معهم – حيئنذ – من تصاريف اليسر ما يضحك سرائرهم ، فلا يدرى أحدهم أيضحك لما ذكره الله به من يسر ، أم لأن اليسر ورد عليه من باب لم يرد بحسبانه ولم يخطر له على بال ؟ ... إن أرباب هذه الحقائق يشعرون فى قرارة نفوسهم ان فضل الله يحجب عن قلوبهم بالقليل الذى فى أيديهم ، فاذا زال ذلك القليل تفتحت مصاريع القلوب ، وأقبل فضله سبحانه على سعته ، فغمرها ثقة لا حد لها ، ثباتاً لا يجده أقوى الناس بماله ، فاذا قال أحمد : إن الفقر مع الخير ، وإن الفرح يأتيه كلما خلت يده من المال ، فهما قولان ينبعان من مشكاة واحدة ويتظاهران على تأييد معنى واحد : هو حياة المرء فى حقيقة نفسه . لا فى تفاهة القشرة الظاهرة من عرض هذه الحياة الدنيا .

★ ★ ★

ومن خلال هذه الحقيقة تشبث أحمد بالحلال ، ووجوب السعى فى طلبه ، وتجريده من كل شبهة ، وذهب فى ذلك الى أبعد مدى يمكن تصوره ، ولم يجد ما يصفه لكسب طمأنينة القلب وسلامة النفس إلا كسب الحلال على النحو الذى يدركه هو ويسطع معناه فى يقينه . قال عمر بن صالح الطرسوسى : سألت أحمد بن حنبل بم تلين القلوب ؟ ... فنظر الى أصحابه – وكأن السؤال

أعجبه – فغمزهم بعينه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يابني : بأكل الحلال ، فقال : فمررت ببشر بن الحارث فسألته : بم تلين القلوب !؟ فقال : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . فقلت له : لقد جئت الآن من عند أبى عبدالله ، فقال : هيه ... إيش قال لك أبو عبدالله ؟ قلت قال : بأكل الحلال . فقال «جاء بالأصل» ... فمررت بعبد الوهاب بن أبى الحسن فسألته : بم تلين القلوب ؟ قال : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) قلت فانى جئت من عند أبى عبدالله . فاحمرت وجنتاه من الفرح وقال لى : إيش قال لك أبو عبدالله ؟ فقلت قال : بأكل الحلال . فقال جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال ! .

أما تصوره لصفاء الحلال وتحريه أن يكون عيشه كما فهم وتصور ، فيطالعنا من أكثر حالاته وتصرفه مع الناس . وقع منه مرة مقراض فى بئر ، فجاء أحد ساكنى داره فأخرجه ، فناوله أحمد نصف درهم ، فقال الرجل : المقراض لا يساوى إلا قيراطاً فكيف آخذ على إخراجه ستة قراريط (نصف درهم) ؟ لا آخذ شيئا ، ولكن هل سكت أحمد على ذلك ؟ هل رضى لكسبه ان يدخل عليه ذلك النوع من الاستغلال ... لقد انصرف الرجل وهو يعتبر ان المسألة منتهية ، إذ لا تستحق فى تقديره أن يقيم لها أى وزن ، بل لعله كان يعتقد أن من البركة أن وفقه الله لأن يقضى للامام هذه الحاجة اليسيرة . أما أحمد فلم ينصرف عن المسألة ، ولم ينته منها كما انتهى الرجل ، فظل يفكر ، فلمّا كان بعد أيام قال له : كم كراء حانوتك فى الشهر ؟ قال : ثلاثة دراهم ... قال : كم شهر عليك من الكراء؟ قال ثلاثة أشهر ، فضرب أحمد على حساب الرجل وقال له قد وضعت عنك دينك ، وأحللتك مما عليك ... وبذلك أزاح أحمد عن قلبه تلك الشبهة التى أقلقت باله أياماً .

ولقد كان فى سفرة ، فنفدت النفقة من أصحابه ، فعُرض المال عليهم فأخذوا ، أما هو فعَرضَ فروة له وقال : من يبيع هذه ويجيئنى بثمنها فأتسع به ؟ قال حمدان الواسطى : فأخذت صرة دراهم فمضيت بها اليه ثمناً للفروة ،

ولكن أحمد لم يقبل أن يكون فى ثمن فروته ظل لصدقة ، فرفض الصرة ... فعاد الرجل بالفروة ، فقالت له امرأته : إنه لم يرضها ، وهو رجل صالح فأعطه ضعفها ، فأضعفها له ، فلما رأى أحمد إلحاح الرجل فى بذل المعروف ثمناً للفروة جذبها منه وخرج . ولعل الصبر على الفقر وعلى طلب الحلال يطالعنا مجلواً ساطعاً من خلال هذين الحادثين أروع وأجلى ما يكون .

لم يكن العلم يومئذ يقاس لدى القوم والناس بالشهادات ، والألقاب ، بل بالسياحة فى بلاد الله والرحلة الى مختلف الاقطار النائية للقاء الرجال والسماع منهم والتلقى عنهم وأخذ ما عندهم ، ولم يكن يدخل فى عداد أهل العلم من لم يلق العشرات من شيوخه ولم يرحل فى طلبه الى الأمصار المختلفة ... ورحل أحمد رضى الله عنه ليلقى أئمة الحديث والأخبار الصحاح ، رحل ماشياً الى طرسوس بأعلى بلاد الشام ، ورحل الى اليمن ليلقى بها محدثها الكبير عبد الرزاق ماشيا . وليس صبره على المشى بغريب عليك . فقد علمت مما سبق انه حج خمس مرات ماشياً ، ولكن الذى نريد ذكره فى رحلته لعبد الرزاق ان نفقته انقطعت فى الطريق ، فعرض عليه أصحابه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً ، وأكرى نفسه جمالا مع الجمالين ليأكل مما يخدم به القافلة ، فاذا كنت لا تملك نفسك من إجلال ذلك الإمام الراحل ماشياً فى طلب العلم فلا يفوتنك ملاحظة الصفاء الذى سما الى مستواه فى كسب الحلال .

قال عبد الرزاق : قدم علينا أحمد بن حنبل ، فأقام سنتين إلا شيئاً ، فقلت له : ياأبا عبدالله خذ هذه الدنانير فانتفع بها فان أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب . فقال : أنا بخير ... ولم يقبل منى !

وقال سليمان الواسطى : بلغنى أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه حين أراد الخروج من اليمن ، فلما خرج وليس معه شىء عرض نفسه على الجمالين ليكرى نفسه منهم فى خدمة القافلة ، فلقى من

المشقة في خدمته ومشيه ما لا بد أن يلحق مثله في سنه. قال أحمد بن إبراهيم الدورقي: لما قدم أحمد بن حنبل علينا مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً وقد تبين عليه أثر التعب والنصب، فقلت: يا أبا عبدالله، شققت على نفسك في خروجك الي عبد الرزاق! فقال: ما أهون المشقة في جنب ما استفدنا من عبد الرزاق!!.

وإني أدع لك أن تتصور الجلالة التي يجب أن يضفيها على أحمد بن حنبل هذا المنهج الرائع من الورع والتقى والصبر على المشقة في سبيل الله، والدقة في تحري الحلال والاستبراء لعيشه من كل شبهة ... إيما جلالة سمت به حتى فاق كل أقرانه، وغرست هيبته في كل نفس حتى سعى الجميع اليه بالتكرمة والمودة. لما نزل القوم صنعاء - وفيهم أحمد - نزلوها ليلا، فألفوا عبد الرزاق جالساً في موضع، فجلسوا اليه، ولم يكن من عادة العلماء يومئذ أن يحدثوا عن محفوظهم شيئاً إلا والمرجع معهم، ولم يكن المرجع ساعتئذ مع عبد الرزاق، ولكنه أراد أن يحسن لقاء أحمد بتحية طيبة فأملى على القوم سبعين حديثاً من حفظه... قال أحمدد بن حنبل: ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئا إلا المجلس الاول، وذلك أنا دخلنا عليه بالليل فأملى علينا سبعين حديثاً، ثم التفت الى القوم وقال: لولا هذا - وأشار اليّ - ما حدثتكم!!.

ولقد أرسل اليه أحد الخلفاء صلة من المال، فامتنع وردّها رداً حسناً... ولقد يكون في ذلك نوع من الورع والترفع وتحري الحلال. ولكن ستعود الى التحليق في آفاق الإمام العليا حين تعلم أن عمه وابنه صالحاً، قبلا تلك الصلة، بدون علمه، تحت ضغط الفقر ومطالب العيال. فلما علم رضي الله عنه، هجرهما ورعاً وتأثراً، وأمر بجدار فصل بينه وبين ابنه صالح، وامتنع عن الصلاة خلف عمه.. ولم يكن عندهم دقيق - في يوم من الأيام - فاستسلف دقيقاً وأمر بعجنه وخبزه، فقدم اليه بعد قليل مخبوزاً ساخناً، فعجب لتلك السرعة، فأخبروه أن فرن دار ابنه صالح مسجور للخبيز، و أنهم

خبزوه فى ذلك الفرن ، فلما سمع ذلك كف عن الطعام وأمر برفعه تحرجاً وتوقياً من الشبهة ، لأن ابنه أكل من جوائز الخلفاء !! .

يا أخى ، اذا لم يكن لمثل هذا الإمام الجليل المراتب السنية عند الله ، والمنازل الرفيعة ، فلمن تكون ؟ واذا لم يكرمه الله بقبول دعائه اذا دعا لمريض أو مسكين فلمن يستجيب الدعاء ويجرى الكرامة ؟ قال رجل من أهل بغداد : كانت أمى مريضة مقعدة زمنة ، فقالت لى يوماً : إذهب الى أحمد بن حنبل فاسأله أن يدعو الله لى ، فسرت اليه ، فدققت عليه الباب وهو فى دهليزه فلم يفتح ، وقال : من هذا ؟ فقلت : أنا رجل من أهل ذاك الجانب سألتنى أمى وهى زمنة مقعدة أن تدعو لها الله . فسمعت كلامه كلام رجل مغضب : نحن أحوج الى أن تدعو هى الله لنا !! فوليت منصرفاً ، فخرجت امرأة عجوز من داره فقالت : أنت الذى كلمت أبا عبد الله ؟ قلت : نعم . قالت : قد تركته يدعو الله لها . قال : فجئت من فورى الى البيت فدققت الباب فخرجت أمى على رجليها تمشى حتى فتحت الباب . فقالت : قد وهب الله لى العافية .

واجتمع المجلس يوماً فى دار يحيى بن معين ، فقال يحيى فيما قال : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشىء ، مما كان فيه من الصلاح والورع والخير !! فقال قتيبة بن سعيد : ومن مثل أحمد ؟ والله لولا أحمد بن حنبل لمات الورع. فقال مصعب الزبيرى : ومن فى ورع أحمد وعبادة أحمد ؟ يترفع على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر ، ويكرى نفسه مع الجمالين حتى يظن أنه الذل ، ويقطع نفسه عن مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أنساً بالوحدة فلا يراه الرائى إلا فى مسجد ، أو عيادة مريض أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه بعض ما قضينا لنفوسنا من شهوات . قال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد !! فقال رجل فى المجلس : بعض هذا الثناء يا قوم فان الرجل ليس بالمكان الذى تقولون ... فقال الحسين الكرابيسى : مثل الذين يغضون من قدر أحمد مثل

الذين يحاولون هدم جبل أبى قبيس بأكفهم!! فقال الرجل (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم) . فتغير يحيى بن معين وصاح فى الرجل : أتزعم ان الثناء على أبى عبدالله غلو فى الدين؟ يا هذا إن الثناء على أبى عبدالله من أطيب مجالس الذكر !! .

★ ★ ★

توافد جماعة المعتزلة – وعلى رأسهم أحمد بن أبى داؤد – الى قصر الخلافة بسامرا ، حيث اتخذوا مجالسهم فى مجلس الخليفة المعتصم . وجلس فى صدر المجلس يحف به كبار القواد من خراسان وقوفاً على رأسه ، وكان مطرقاً تبدو عليه أمارات القلق والهم ، ثم رفع رأسه بعد برهة ونظر الى أحمد بن أبى دؤاد وهو يقول :

هية يا ابن أبى داؤد : أما زلت مصراً على رأيك فى محنة هذا الرجل؟.

فقال ابن أبى دؤاد – وقد أفزعه ما رأى على وجه الخليفة وما سمع من كلامه الذى ينم عن رغبته فى ترك أحمد بن حنبل بدون محنة – إنه ضال مضل مبتدع ، وإن ضلالته تلقى رواجاً بين العامة ... ثم سكت قليلا وقال : وماذا تقول لابن عمك رسول الله ﷺ اذا قال لك يوم القيامة يعاتبك : تركت أحمد بن حنبل يُلبس على الناس دين الله ، ويدخل الزيغ على عقائدهم ويعلمهم ان الله يتكلم بجارحتين غير منزه عن التشبيه والتجسيد .

فقال أحد الجالسين من كبار المعتزلة : يا أمير المؤمنين ، إن هذا كفر بواح ، وإن هذا الرجل يذيعه فى الناس! وقد أقامك الله فينا لترعى هذه الأمانة التى جاهد ابن عمك رسول الله فى تقريرها ... وهل بعث ابن عمك ﷺ إلا لينفى عن الله التشبيه والتجسيد؟ اقتله يا أمير المؤمنين ودمه فى رقابنا! .

قال المعتصم : وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملئوا الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم يقولون إن أحمد بن حنبل يفتن اليوم ، وقد علموا أننا أحضرناه من سجنه ببغداد الى هنا .

فقال المعتزلى : ومتى كان عوام الناس يا أمير المؤمنين حكما فيما لا يفهمون ؟ إن هذا ادعى الى ان تعالجه قبل أن يستفحل أمره !

فقال ثالث : نعم يا أمير المؤمنين ، فلو مد الله فى عمر الخليفة المأمون أياماً قليلة لقتله ، ولكنه مات قبل أن يصل هذا الضال المضل الى عسكره .

قال المعتصم : نعم ، وقد أوصانى أمير المؤمنين المأمون أن أقمع رجال البدعة ولا سيما هذا الرجل ، فهو ذو حظ فى الناس ومنزلة كبيرة لدى عوامهم . ولكنى أخشى الفساد ، والناس اليوم فى هرج ومرج كأنما استعدوا للفتنة والهياج .

فقال أحد المعتزلة : إن العوام لا يخشى بأسهم إلا اذا كان زمامهم بيد رجل يدبر أمرهم ويجمع شملهم ... وأنت يا أمير المؤمنين قد أمكنك الله من هذا الرجل وهو فى سجنك تحت حراسة الحفظة من رجالك لم يتصل بالناس ولم يتصل الناس به منذ ثمانية وعشرين شهراً .

قال المعتصم ، وكأنما راعه طول المدة : منذ ثمانية وعشرين شهراً ؟ ما أسرع ما تمر الأيام !.

قال المعتزلى ، أهى كثيرة يا أمير المؤمنين؟ إنه لو أمضى ثمانية وعشرين عاماً لكان ذلك دون ما يستحق ...!

إن أحداً لن ينسى له سوء أدبه يوم جاء كتاب أمير المؤمنين المأمون الى والى بغداد إسحاق بن إبراهيم . (فنظر المعتصم كأنه يستوضح المعتزلى ما يقول) فانطلق المعتزلى يقول : نعم ، كان أمير المؤمنين فى جيشه خارج طرسوس يغزو فى سبيل الله ، فى حين كان هذا الرجل وأمثاله من شيوخ البدعة ينشرون ضلالهم فى الناس ، فلم يشغل أمير المؤمنين ما هو فيه من الجهاد عما يعمل هؤلاء القاعدون المفسدون ، فأرسل بكتبه الى والى بغداد إسحاق بن إبراهيم كتاباً فى إثر كتاب يطلب اليه أن يدعو رؤوس التشبيه

والتلبيس ويعرض عليهم أن يجيبوه الى العقيدة الصالحة ، فكلهم اجاب أمير المؤمنين وأقروا على ملأ من الناس بأن القرآن مخلوق إلا هذا العنيد . فان شؤمه لم يرض له بالكفر حتى أضاف اليه سوء الأدب مع إمامه . فلما علم بذلك أمير المؤمنين أمر بأن يوجه اليه بطرسوس . فلما كان على مرحلة من العسكر توفى أمير المؤمنين قبل أن يجتمع به ، ولو اجتمع به لقتله ، فأعيد هذا الضال الى بغداد حيث أبقاه الوالى فى سجنها الى الآن ... فلو أنه مكث فى سجنه ثمانية وعشرين عاماً لا ثمانية وعشرين شهراً لكانت قليلة فى سوء أدبه مع إمامه ، فكيف بسوء أدبه مع الله ؟ .

فقال معتزلى آخر : نعم يا أمير المؤمنين ، وبلغ من سوء أدبه أن وصف خليفة الله المأمون بالفاجر ، فانه حين أحضر الى طرسوس ولم يبق بينه وبين جيش الإمام إلا مرحلة ، جاء أحد الخدم فقال : «إن أمير المؤمنين سلَّ سيفاً لم يسله قبل ذلك . وإنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ ، لئن لم تجبه الى خلق القرآن ليقتلنك بهذا السيف . فما ان سمع هذا حتى جثا على ركبتيه ورمق بطرفه الى السماء وقال : «سيدى : غرَّ هذا الفاجرَ حلمك حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم إن كان هذا القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مئونته !» .

قال المعتصم : لقد بلغنى ذلك وعلمت أن الناس يتحدثون بها فى الأسواق ويقولون : إن أحمد بن حنبل دعا فى أول الليل ، فما جاء الثلث الأخير حتى أتاه من بشره بأن أمير المؤمنين قد مات ، ويعتبرون ذلك من كرامة أحمد بن حنبل على الله .

فقال المعتزلى : وهذا يا أمير المؤمنين من الشواهد الناطقة بسذاجة العوام وعدم تمحيصهم ، وسرعة تلقيهم الجهل والخرافة بالقبول والتأييد .. إنهم يعتبرون أن المأمون لم يمت إلا لأن الله أجاب فيه دعوة أحمد ... ويقولون : دعا عليه فى أول الليل فلم يأت آخره حتى جاء نبأ وفاته . مع أننا كنا معه

وهو يسلم روحه الطاهرة لله قبيل العصر أو بعده بقليل أى أن أمير المؤمنين المأمون رضى الله عنه مات قبل أن يدعو أحمد دعوته الرائجة الشائعة . ولكن جهل العوام سوَّل لهم أن يتخذوا من ذلك كرامة تنبى عن مكانته عند الله سبحانه ، وحاشا لله أن يكون لمثل هذا الضال عنده منزلة غير منزلة أهل الضلالة والبدعة والكفر .

قال المعتصم : إنهم يقولون إن الله ألهمه الدعاء بعد موت المأمون ، فدعا به ، فأتاه الخبر بما دعا ليكون ذلك تأييداً له وتثبتاً ، فالكرامة فى أن الله سبحانه ألهمه الدعاء لا فى أنه أمات المأمون استجابة له . فقال المعتزلى : إن عقول العوام يا أمير المؤمنين لا تطيق مثل هذا ولا تعيه . على أنه كلام يدسُّه رؤوس البدعة ويعملون على ترويجه فى سواد الناس سعياً الى الفتنة .

قال المعتصم : كأن هناك إذن من يقوم على رأس الناس ويجمعهم على الفتنة وقد قلتم لى : إن ليس هنالك من يجمعهم غير هذا الرجل الذى لم يتصل بهم منذ ثمانية وعشرين شهراً !

فقال المعتزلى : يا أمير المؤمنين ، إنه لا يروج مثل هذا الكلام إلا جماعة لا خطر لهم ... إنهم فريق ممن دعاهم أمير المؤمنين المأمون الى القول بخلق القرآن فأجابوا ظاهراً وظلوا على كفرهم وبدعتهم باطناً .. وقد سقطت منزلتهم عند جمهور الناس لما أجابوا ولم يعد لهم عندهم قدر فلا يستطيعون أن يتصلوا بهم ولا أن يظهروا لهم .

فقال معتزلى آخر : رعى الله أمير المؤمنين ! إن ملكه أثبت من أن تؤثر فيه هيجة الغوغاء ، ولقد علمنا والله أن هذا الرجل سيق من بغداد الى طرسوس مثقلا بأغلال الحديد ، محمولا على جمل مهين فى حال زرية على أعين الناس ، فما اجترأ أحد على اختطافه أو حل وثاقه أو الغضب له . ولقد قطع به حراسه الطريق من بغداد الى طرسوس ، فلم يكن إلا أفراد من نوازع الناس وأفناء القبائل ، ينظرون اليه ولا يتكلمون ، ومن تكلم لا يزيد على ان

يقول له : «الثبات يا أحمد ! الجنة تنتظرك يا أحمد !» وقد قال له أعرابى : «يا هذا ما عليك أن تقتل هنا وتدخل الجنة ها هنا !» . ولقد حدثنى بعض حراسه أنهم نزلوا به فى بعض منازل الطريق فجاء رجل يقول : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقيل له : ها هو ذا ! فقال له : «يا هذا ، إن الله قد رضيك له وافداً ، فانظر لا يكون وفودك مشئوماً على المسلمين ! واعلم أن الناس إنما ينتظرونك أن تقول فيقولون ! واعلم أنما هو الموت والجنة !» فعوام الناس يا أمير المؤمنين لا يوصون هذا الرجل أكثر من أن يمدد رقبته للسيف ليدخل الجنة ، ومن كان هذا شأنهم فان القوة والشغب على السلطان لم يخطر لهم ببال .

واطمأن المعتصم الى هذا الكلام ، فاستمر المعتزلة فى إيغار صدره على أحمد بن حنبل ، فقال أحدهم :

واذا كانت جماهير الغوغاء والرعاع بهذا الضعف فمن الخير أن يعجل أمير المؤمنين بامتحان هذا الرجل ، فان أجاب بخلق القرآن أجاب الناس معه وكان ذلك أرسخ لملك أمير المؤمنين ، وإن أصر على ضلاله أنفذ فيه ما كان أمير المؤمنين المأمون يريد إنفاذه .

وقال معتزلى آخر : ولقد كان أمير المؤمنين لا يريد ان ينفذ فيه غير القتل . دون أن يلقى بالا لسخف العامة ولغطهم ، وأنت يا أمير المؤمنين قد حباك الله بما حبا به المأمون من شدة البأس وجرأة النفس وشجاعة القلب والتمرس بفنون الحرب وألوان الفروسية ، حتى سارت بذكرك الأنباء ، فما من فارس إلا ويرى عزّة فى الإقرار لك بالفروسية ، وما من بطل إلا ويراك إمامه المتقدم عليه ... فاذا كان أمير المؤمنين المأمون قد أسقط هؤلاء العوام من حسابه ، فمولانا المعتصم بذلك أجدر ، وعليه أقدر . واذا كان هؤلاء العوام لم يستطيعوا أن يمدوا لهذا الرجل يداً بمعونة فى زمن المأمون ، فهم عن ذلك فى عهد مولانا المعتصم أعجز ، وله أهيب ! .

وقال آخر . وما حسن يا أمير المؤمنين ان تملى لهذا الرجل ، فانه لا يزداد

مع الايام إلا غياً وسوء أدب ...! لقد غره حلم أخيك المأمون حتى أجترأ عليه وقال عنه إنه فاجر ، وها هو ذا بعد أن مضى فى سجنك وفى قبضتك ثمانية وعشرين شهراً يحكم على رسلك الذين ترسلهم اليه فى السجن بأنهم كفرة ، ويوشك – لو أمليت له – أن يرفع عقيرته بكفر أمير المؤمنين .

فتجهم وجه المعتصم ، ونظر الى الرجل كأنه يستزيده بيان ما يقول ، فقال المعتزلى : لقد ذهب الى مناظرته يا أمير المؤمنين أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجاج لعله يرجع عن بدعته وكفره ، وتلطف إسحاق بن ابراهيم فأخرجه من السجن وجعل المناظرة فى داره بحضور رسول من قبله ، فلم يزده التلطف إلا إصراراً ، ولم تزده عناية أمير المؤمنين به إلا إمعانا فى سوء أدبه ، فلم يكن من إسحاق بن ابراهيم إلا أن رده الى السجن مقيدا بقيدين بعد أن كان مقيدا بقيد واحد .

وعرضت عليه الكرامة فى اليوم التالى ، وأخرج من سجنه فى قيديه الثقيلين الى دار إسحاق حيث ناظره رسولا أمير المؤمنين فيما ناظراه به فى اليوم السابق ، ولكنه أصر على أن القرآن غير مخلوق . فأعاده إسحاق الى السجن بقيد ثالث .

ثم اتيحت له الفرصة فى اليوم الثالث ليرى مبلغ حلم أمير المؤمنين ، فما كان لهذا الحلم من أثر إلا أنه قال لأحد الرسولين «يا كافر ، لقد كفرت !» فاذا تركناه يا أمير المؤمنين على ما هو عليه فما يمنعه غدا من أن يقول هذا لمن هو أكبر من ذلك .

هذا الى ان أنباء هذه المناظرات سرعان ما تتسرب الى الخارج مبالغاً فيها ، فيعجب بها العامة وينسجون حول المبالغات مبالغات ، فيشتد الخطب وتعظم البلبلة .

قال المعتصم : وكيف ساغ لهذا الضال المبتدع أن يكفّر رسلى ؟

قال المعتزلى : هذا دأبه فى سوء الأدب .

قال المعتصم : لقد أمرت باحضار هذا الرجل من بغداد . فأين هو ؟ أدخلوه !.

فدخل أحمد بن حنبل .. شيخ أسمر اللون ، مديد القامة ، قد قوسه مر السنين وإلحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيراً على القدم .... يجلله مشيب وقور ، ويسطع من جهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به .

ونظر المعتصم يتفرس فى وجه القادم عليه ، فاذا طلعة الشيخ الجليل تروعه بما لم يجد له مثيلا فى حياته ... لقد أحس كأن قلبه يتحول فى صدره من مكان الى مكان . إن ابن أبى دؤاد على طول صحبته للخليفة ، وعلى غزارة علمه وبراعة منطقه لم يؤثر فى نفسه قط بمثل ما أثرت طلعة ذلك الشيخ الجليل الورع !!. وارتعشت نبرات صوت الإمام المريض الهزيل وهو يحيى أمير المؤمنين : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وأحس المعتصم كأن نبرة الصوت الجليل المرتعش تملأ قلبه هيبة ، وتغسل من نفسه الموجدة ، فلم يتمالك إلاّ ان قال للامام : أدن .

فاستمر الإمام يدنو وهو يتعثر فى أقياده ، وكان قد ربطها فى تكة سرواله وأمسك التكة بيده يرفع بها ثقل الأقياد عن قدميه ، فلم يكن ذلك المنظر المهين الأليم مما يتلاءم مع الجلال البادى على الشيخ المهيب ، فرق له المعتصم وزاد تأثره ، وقال : أدن .

وما زال المعتصم يستدنيه حتى قال له :

– اجلس .

فجلس أحمد والقوم صامتون مأخوذون . فالتفت المعتصم الى المعتزلة وقال : أليس قد زعمتم لى أنه شاب حدث السن ، وهذا شيخ مكتهل ؟!

فسكت المعتزلة ولم يجيبوا بشىء .

فيسترد أحمد بن حنبل قوته . ويأنس بعض الشىء الى إنصاف المعتصم فيقول : أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى الكلام ؟

المعتصم : تكلم .

أحمد : الإم دعا ابن عمك رسول الله ﷺ ؟

المعتصم : دعا الى شهادة أن لا إله إلا الله .

أحمد : فأنا يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله .

ونزلت كلمات أحمد فى صدق لهجته وعمق يقينه على قلب المعتصم كأن لم يسمع أحدا ينطق بالشهادة بين يديه إلا اليوم ... واستطرد أحمد رضى الله عنه يقول :

– إن هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعوننى أن أقول : إن القرآن مخلوق ، وهو شىء لا أجده فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ﷺ . يا أمير المؤمنين : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة ، قال حدثنى أبو حمزة ، قال ، سمعت ابن عباس يقول ، إن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله ﷺ أمرهم بالايمان بالله ، فقال أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، فهذا ما يرويه جدك ابن عباس عن ابن عمك رسول الله ﷺ ، وهو يعلم الناس الايمان ، وليس فيه شىء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

وتحدر الاسلام الصافى الذى لا يشوبه كدر ولا تعقيد الى قلب المعتصم الساذج من فم هذا الإمام الورع الصادق فلم يتمالك المعتصم أن قال :

- إنى لم آمر فيك بشىء ، ولولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى لما تعرضت لك . ثم أطرق قليلا وكأنه قد ضجر من تلك الفلسفة التى يراد إدخالها على عقائد الناس وهو نفسه ليس منها فى قليل ولا كثير ، والتفت الى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :

ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟

فقال أحمد بن حنبل فى نفسه : الله أكبر !! إن فى هذا لفرجا للمسلمين !

وكأن المعتصم رأى أنه لم ينصف المعتزلة ، وأنه لم ينفذ وصية أخيه المأمون اليه فى مناصرة المعتزلة ، وقمع ما عليه أحمد بن حنبل وأضرابه ، فاستدرك قائلا لهم :

- ناظروه وكلموه .

فأبطأ المعتزلة وكأنهم أخذوا بما فاجأهم من أمر الخليفة ، فقال المعتصم :

- ناظره يا عبد الرحمن ، كلمه !
- عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟
- أحمد بن حنبل : لا يجيب .
- المعتصم : أجب يا أحمد .
- أحمد بن حنبل يسأل عبد الرحمن : ما تقول فى علم الله .
- عبد الرحمن : لا يجيب .

- أحمد بن حنبل : إن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال بذلك فقد كفر .

- عبد الرحمن : لا يجيب .

- المعتزلة : يا أمير المؤمنين لقد كفرنا وكفرك ، ولقد كفر بهذا الكلام رسولك بالأمس حين قال له : إن علم الله مخلوق .

- فلا يلتفت المعتصم الى تحريشهم .

- فيرتبك المعتزلة قليلا ، ثم ينبرى عبد الرحمن فيقول :

- إن الله كان فى الأزل ولم يكن معه القرآن .

- أحمد بن حنبل : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فاذا قال قائل كان الله ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له .

- أحمد بن أبى دؤاد : هو ضال مبتدع يا أمير المؤمنين وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم !

- المعتصم : ما تقولون فيه ؟

- الفقهاء والقضاة : هو ضال مضل مبتدع ...

فيتلطف المعتصم الى الإمام ويقول له :

- اجبنى يا أحمد الى هذا حتى أجعلك من خاصتى وممن يطأ بساطى ...

- أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، يأتونى بآية من كتاب الله أو بحديث عن رسول ﷺ حتى أجيبهم اليها .

- أحمد بن أبى دؤاد : فأنت لاتقول إلا ما فى كتاب الله وسنة رسوله ؟

- أحمد بن حنبل : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟

- رجل من المعتزلة : إن الله يقول : «خالق كل شىء» * والقرآن شىء ، فهو - اذا - مخلوق .

- أحمد بن حنبل : إن هذه الآية عامة أريد بها التخصص لا العموم كقوله

تعالى عن الريح التى أهلك بها قوم هود : «تدمر كل شىء بأمر ربها» فهل دمرت كل شىء حقاً أو إنها لم تدمر إلا ما أراد الله !

- المعتزلى : لا يجيب .

- معتزلى آخر يقول : إن الله يقول : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون» فهل يكون محدثا إلا المخلوق ؟

- أحمد بن حنبل : إن الذكر الذى هو فى القرآن جاء فى قوله سبحانه «والقرآن ذى الذكر» فهو هنا معرف بالألف واللام وفى الآية الاولى بدون ألف ولام فهذه غير تلك .

- أحد المعتزلة : إن عمران بن حصين يروى عن رسول الله ﷺ قوله : «إن الله خلق الذكر» . وفى ذلك تقرير من النبى صلى الله ﷺ بأن القرآن مخلوق .

- أحمد بن حنبل : أخطأت ، فالرواية التى رويناها عن عمران وغيره من ثقات أهل الحديث هى : «إن الله كتب الذكر» .

- معتزلى آخر : أليس رسول الله ﷺ يقول : «تقرب الى الله بما استطعت ، فانك لن تتقرب اليه بشيء هو أحب اليه من كلامه» .

- أحمد بن حنبل : بلى ، قد روى ذلك عن رسول الله ﷺ .

- المعتزلى : إن فيه دليلا على أن القرآن مخلوق !

- أحمد بن حنبل : لست أجد فيه هذا الدليل .

- المعتزلى : اذا قرأت القرآن للتقرب به الى الله ، الست تتلو كلمات مؤلفة من حروف وأصوات ؟ وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق ،

فهل تجد لك مفراً بعد اذ أمرنا النبى ﷺ أن نتقرب الى الله بتلك الألفاظ إلا أن تسلم بأن القرآن مخلوق!

– أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه اذا كتبناه أو تلفظنا به فهى مخلوقة ، ورسول الله ﷺ يقول : «زينوا القرآن بأصواتكم» . فالقرآن اذاً – غير أصواتنا المخلوقة التى نزينه بها ،.. الكلام كلام البارئ والصوت صوت القارئ .

– معتزلى آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبى ﷺ : «ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى» وهذا صريح فى أن آية الكرسى مخلوقة ، وهى من القرآن .

– أحمد بن حنبل : فهل تجد فى حديث رسول الله ﷺ أن الخلق وقع على آية الكرسى ؟ إن الحديث صريح فى أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والارض والسماء ولم يقع على القرآن .

– أحمد بن أبى داؤد : إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب الى الله جوارح تكلم بها كالمخلوقين ، وتشبيه الله بالمخلوقات كفر .

– أحمد بن حنبل : هو أحد صمد ، لم يلد ولم يلد ولم يولد ، ولا شبيه ، له وهو كما وصف نفسه... حدثنى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه ان النبى ﷺ قال : «إن الله كلم موسى بمائة ألف كلمة ، وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة ، وثلاث عشرة كلمة ، فكان الكلام من الله والاستماع من موسى . فقال موسى أى رب أنت الذى تكلمنى أم غيرك ؟ قال الله تعالى : يا موسى أنا أكلمك لا رسول بينى وبينك» . فهذا ما يخبر به رسول الله عن ربه ، وأنا ما أقول إلا ما يقول رسول الله ﷺ .

– أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله .

– أحمد بن حنبل : إن يك هذا كذباً منى على رسول الله فقد قال الله تعالى «وكلم الله موسى تكليما» ، وقال «ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» ، فهو قول منه سبحانه وليس خلقاً .

وهكذا ظلوا يسألونه وهو يجيب ويعلو صوته عليهم ، حتى اقترب الزوال دون أن يفحموه أو يلزموه الحجة ، فقال لهم المعتصم : قوموا وخلونى مع أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ...

وكان المعتصم قد أعجب بأحمد بن حنبل ، فلما خلا به قال : أما تعرف صالحا الرشيدى ؟ كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع من الدار جالساً مرة ، فتكلم وذكر القرآن فخالفنى ، فأمرت به فسحب ووطىء ، ولم يشفع له أنه معلمى ... ولكن لا أفعل بك ما فعلته به ... إننى لم أكن أعرفك اذ لم تكن تأتينا مع من يأتى ...

فقال عبد الرحمن بن إسحاق : يا أمير المؤمنين ، إنى أعرفه منذ ثلاثين سنة ، إنه يرى طاعتك ، والحج والجهاد معك وهو ملازم منزله ...

فقال المعتصم : والله إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، وإنى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ... ولئن اجابنى الى شىء مما ادعوه اليه لأطلقن عنه القيود بيدى ، ولأركبن اليه بجندى ولأقدمنه حتى أطأ عقبه ...

– أحمد بن حنبل يسمع كل هذا وهو صامت .

فيلتفت اليه المعتصم ويقول : ويحك يا أحمد . ما تقول فيما أعرض عليك ؟

– فقال أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ !!

فلما طال المجلس ضجر المعتصم وقام ، وأعيد الإمام الى معتقله ، وذهب اليه رجلان من أتباع ابن أبى داوٌد لمناظرته لعله يجيب الى خلق

القرآن .... وجاءت مائدة ، فأكل الرجلان ، وأما أحمد فجعل يتعلل حتى رفعت ...

وذهب أحمد بن أبى داؤد الى الإمام فى معتقله ، وقال له : والله لقد كتب اسمك فى السبعة الذين قتلوا ولكنى محوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك ... واعلم أنه ليس السيف ، إنه السوط ، والضرب بعد الضرب ... فانظر ما تقول ، وإنى لا أرى لك إلا أن تجيب أمير المؤمنين .

فلا يزيد الإمام على أن يقول : إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ .

وخرج أحمد بن أبى داؤد ، ولم يلبث ان جاء رسول ينادى أحمد بن عمار ، صاحب الدار التى اتخذت معتقلا للامام ، فخرج معه وعاد يقول : إن أمير المؤمنين يقول لك : أجبنى حتى أجىء اليك بنفسى فأطلق عنك بيدى ... فلا يزيد الإمام على قوله : إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ...

ومازالت الرسل تأتى أحمد بن عمار ، فيذهب لمقابلة الخليفة ليعود الى الإمام حاملا رجاءه حتى انقضى النهار وشطر من الليل .

فلما كان اليوم الثانى ، أدخل على المعتصم وجرت المناظرة بحضرته ، وكانوا يهربون من منازلة ابن حنبل فى ميدان الكتاب والسنة الى ميدان الفلسفة ، فيقول لهم : لا أدرى ما تقولون ، فأتونى بشىء من كلام الله أو سنة رسول الله ﷺ ، أو خبر أو أثر ...! فيقولون : يا أمير المؤمنين ، اذا توجهت له الحجة علينا وثب ، واذا كلمناه بشىء يقول : لا أدرى ما هذا ...

فيقول المعتصم : يا أحمد إنى عليك شفيق ...

ويقول أحمد بن أبى داؤد : يا أمير المؤمنين والله لئن أجابك لهو أحب الى من مائة ألف دينار . ومائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار فيعد ما شاء الله من ذلك ....

ولما كان الزوال أمرهم المعتصم بالانصراف ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ، ودار الكلام بينهم ، المعتصم يتلطف ويلين ، وعبد الرحمن يذكر مناقب أحمد وفضله ، وأحمد يقول : بيني وبينهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا أجيبهم إلا إلى شيء منها ، وطال المجلس فقال المعتصم :

- أندعو أحمد بن أبى داوُد ؟

فقال أحمد بن حنبل : ذلك اليك يا أمير المؤمنين .

فحضر ابن أبى داوُد واشترك فى المناظرة ، فلما امتد المجلس على غير فائدة لهم قام المعتصم ، وأعيد الإمام الى معتقله ، وما لبث ان دخل عليه الرجلان اللذان دخلا عليه بالأمس لمناظرته ، وجعلا يكلمانه حتى حان وقت الإفطار فجيء بطعام على نحو مما أتى به فى الليلة السابقة ، فأفطر الرجلان وجعل الإمام يتعلل ..

فلما رفع الطعام جاء رسول الخليفة يستدعى أحمد بن عمار صاحب دار المعتقل ، فذهب ، وعاد فقال للامام : يقول لك أمير المؤمنين أجبنى حتى أحضر اليك بنفسى ... الخ . فلا يزيد على أن يقول لهم : كتاب الله وسنة رسوله .

وكانت بغداد خلال هذين اليومين شعلة نار متقدة تملؤها الإشاعات والهرج والمرج ، وامتلأت سامرا - مقر قصر الخلافة - بوفود عامة أهل بغداد وخاصتهم ، فصارت بهم كالبحر الزاخر ، وليس منهم رجل إلا وعطفه مع أحمد بن حنبل ، وسخطه على الخليفة وعلى أحمد بن أبى داوُد وسائر المعتزلة ...

وكانت أنباء ذلك كله تبلغ الخليفة فيشعر كأن ريحاً عاتية توشك أن تهب عليه فتقتلع عرشه وتهوى به فى مكان سحيق ، فيأخذه الخوف ويلجأ الى ملاينة الإمام لعله يجيب فتنتهى المحنة وتهدأ ثائرة الناس ، ولكن الإمام

لا يعنيه ملاينة الخليفة ، ولا مؤازرة الجماهير ، فالامر لديه أكبر من ذلك ، هو احتفاظه لله بما استرعى العلماء من أمانة ، فان حفظ وصبر كان قدومه على الله قدوما كريما وله اجر ما امتحن به ، واذا فرط وضيع كان قدومه على الله قدوما مهينا ، وحمل بين يديه تبعة تلك الجماهير التى ستقلده فيما يقول من خلق القرآن .

وجعلت رسل الخليفة فى تلك الليلة العاصفة تأتى لاستدعاء أحمد بن عمار ، وجعل احمد بن عمار يمضى ويأتى بكلام من أمير المؤمنين ، دون أن يثمر ذلك شيئاً ، فجاء أحمد بن ابى دأود ، فقال يا ابن حنبل ، إنه قد حلف أن يضربك ضربا ، وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس . فقال أحمد ابن حنبل : فماذا أصنع ؟ قال : تجيب الخليفة الى ما يدعوك اليه ! فقال : لا ... إلا بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ...

وباتت بغداد وسامرا ساهرتين تتحدثان بمحنة الإمام الجليل .. أما الإمام فقد غفا غفوة قام على اثرها نشيطاً الى وضوئه وتهجده وقراءته ، فلما صلى الفجر وأسفر النور بصبح اليوم الثالث ، أحست بصيرته شيئاً لا تراه الأبصار ... أحست مقادير المحنة كأنها شاخصة فى الفضاء تنتظر أن تنفذ فيه ، فقال : «لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء» .

قال أحمد بن حنبل : وكنت قد اخرجت تكتى من سراويلى فشددت بها قيود الحديد فى قدمى أحملها بها اذا توجهت الى الخليفة . فلما كان صبح يوم المحنة قلت : لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء ، وكنت بلا سراويل ، فخشيت إن حدث شىء أن أتعرى ، فأعدت التكة الى سراويلى وشددتها على ، وطلبت من أحد الموكلين بى خيطاً أشد به الأقياد ...!

وعلا النهار . وأصيب المعتصم بشعور مضطرب ، فهو يريد أن يبطش بابن حنبل ، ولكن هيجة الجماهير تخيفه فتنقبض يده عما يريد .... ولكنه الفارس المعلم ، الذى لم يعتد أن يرى نفسه جباناً فى موقف من المواقف ، فكيف يستر

ضعفه هذا اليوم عن انظار من حوله ؟! لقد هداه شعوره المضطرب الى أن يملأ ردهات القصر وساحاته ومداخله ومخارجه بصنوف الجند حاملين ألوان الأسلحة ، لابسين لأمة الحرب الكاملة ، ثم انفذ امره في رجلين ممن لا يقولون بخلق القرآن فقتلهما ، وخيل اليه انه قد سيطر على الموقف وظفر بإعجاب من حوله ، وحسب ان ذلك خليق ان يلقى في روع ابن حنبل ان الامر جد لا هزل ، فينثني عن عناده ويجيب الى مايدعوه اليه !.

قال الإمام أحمد : فلما شددت قيودى بالخيط الذى جاءوا به طلبت الى مجلس الخليفة ، فجعلوا يمرون بى من ساحة الى ساحة ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح ، وقد حشيت الدار بالجند ، ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء حتى اذا صرت الى الخليفة قال : ناظروه .

وجرت المناظرة على نحو ما جرت عليه فى اليومين السابقين ، حتى اذا جاء وقت الزوال خلا بى وبعبد الرحمن ، فقال لى : ويحك ياأحمد ، انا والله عليك شفوق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هارون ابنى ، فأجبنى ... فقلت : يا امير المؤمنين ، اعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، فلما طال المجلس ضجر وقام .

وكان يريد أن يصرف المحنة عن أحمد لما يجد من الخوف على عرشه ، ولكن ابن ابى داوٗد قال له : «يا أمير المؤمنين ، إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله» .... وقال إسحاق بن ابراهيم نائب بغداد : «يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن يخلى سبيله فيقال : إنه غلب خليفتين» فعند ذلك حمى الخليفة واشتد غضبه واقبل على أحمد بن حنبل وقال : لعنك الله ، طمعت فيك فلم تجبنى ... خذوه اخلعوه ، اسجنوه .

قال الإمام أحمد : فأخذت وسحبت وخلعت وجىء بالعقابين ، أى عدة العذاب التى يشد اليها المبتلى ، وكان معى شعرتان من شعر النبى ﷺ

فصررتهما فى كم قميصى ، فقال إسحاق بن إبراهيم : ما هذا المصرور فى كمك ، فقلت شعرتان من شعر النبى ﷺ فأراد بعض القوم أن يحرق القميص فنهاهم عنه... فلما شددت الى العقابين ، وجيء بالسياط نظر اليها الخليفة فلم تعجبه فأمر بأشد منها واقوى ، فجيء له بما أراد ، واحضر الجلادون الغلاظ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، الله الله ، بما تستحل دمي وأنا اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولم آت شيئاً مما يهدر الدم ..؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك!

قال الإمام أحمد : فكأنه أمسك ومال الى صرف المحنة ، ولكنهم لم يزالوا به يقولون له : يا أمير المؤمنين ، إنه ضال مضل كافر ، وإن دمه فى رقابنا حتى أقنعوه بانفاذ المحنة ، فجيء له بكرسي وأحمد بن أبى داؤد واقف على رأسه ، فتقدم الضارب الاول ومعه سوطه ، فقال المعتصم : شد قطع الله يدك! فشد الرجل بسوطين ثم تنحى ، وتقدم جلاد آخر ، وآخر ، كل يقول له المعتصم : شد وأوجع قطع الله يدك ، فيشد كل بسوطين ويتنحى ، وتوالت السياط كأنها جمر جهنم . وأحس أحمد بتكة سراويله تحور خيوطها تحت الضربات القاطعة فلم يبق فيها إلا خيط أو خيطان ، فطمح ببصره الى السماء وقال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم اني قائم لك بحق فلا تهتك لى عورة !! وثبت الخيط الرقيق لما لم تثبت له خيوط التكة كلها ، وستر الله سوأة الامام أن تنكشف....

قال الإمام : واستمر الجلادون يشدون بسياطهم حتى أغمى على.. فأمسكوا حتى أفقت وسكن عنى الضرب . فقام الىّ المعتصم وقال : ويحك يا أحمد أجبنى حتى أطلق عنك بنفسى ، وهم محيطون بى ، فيقول لى أحدهم : ويحك ، إمامك قائم على رأسك فأجبه ، وينخسنى آخر بقائم سيفه ويقول تريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟ فأقول : لا أجيب إلا لشيء من كتاب الله أو سنة رسول ﷺ .... فيعود المعتصم الى كرسيه ويقول للجلاد . شد وأوجع قطع الله يدك ،

وأخذ الجلادون يتبع كلٌ منهم سابقه ، كل يضرب سوطين ويتنحى لمن بعده ، حتى يشتد بى الضرب ، ويعظم الألم ، فيذهب عقلى ويغمى على ....

حتى اذا أفقت وعاد الىّ عقلى ، قام الىَّ بنفسه وقال مثل مقالته : فلا أجيبه الى ما يدعونى اليه ، فيقول عبد الرحمن بن إسحاق لى : من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ما صنعت أنت بنفسك !! هذا يحيى بن معين وهذا أبو خيثمة ، وهذا فلان وهذا فلان ، وجعل يعدد أسماء من أجاب . فلا أجيبه إلا بنحو مما كنت أقول لهم .... فقال المعتصم للجلاد : شد وأوجع ، فأقبل علىَّ الجلادون كل يضرب بسوطيه ويتنحى .

ثم جاء الىَّ الثالثة فدعانى فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلى فلم أحس به ، فأرعبه ذلك من أمرى .. وكان النبأ قد تسرب الى الجماهير الزاخرة ، فضج الناس وهاجوا ، وعظم عليهم الخطب ، فخاف المعتصم وأمر باطلاقه لفوره .

قال ميمون بن أصبغ : «أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان» . وقال المعتصم بعد أن أطلقه : «لو لم افعل ذلك لوقع شرلا أقدر على دفعه» .

قال الإمام أحمد : فلما أفقت لم أشعر إلا وأنا فى حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلى وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين .

وحمل من دار الخلافة الى دار إسحاق بن ابراهيم نائب بغداد ، وهو صائم ، فأتوه بسويق ليفطر من الضعف فأبى ، وأتم صومه . ولما حضرت صلاة الظهر صلى معهم ، فقال له ابن سماعة القاضى : «وصليت فى دمك ؟» فقال له أحمد : «قد صلى عمر وجرحه يثعب دماء» . فسكت .

وعاد أحمد الى منزله لأول مرة بعد أن غادره منذ اكثر من ثمانية وعشرين

شهراً ، وجاء الجراح من قبل الخليفة يعالج له جراحه وكان المعتصم يخشى أن يصاب أحمد بأذى من تلك الجراح ، فكان يسأل عنه نائب بغداد كل يوم ، وكان النائب يرسل من يسأل عنه كل يوم ، فلما شفى فرح المعتصم وسكن خوفه على ملكه .

وسما أحمد عن الحقد والضغينة ، فلم يذكر أحداً ممن آذوه بسوء ، وجعل كلا منهم فى حل إلا أهل البدعة ، فقال له ابنه صالح فى ذلك ، فقال : يابنى وليعفوا وليصفحوا ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك؟ وقد قال تعالى فمن عفا واصلح فأجره على الله فاذا كان يوم القيامة وجاءت الأمم بين يدى رب العالمين ، نودوا : ليقم من كان أجره على الله ! فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا ، وإنى لأرجو أن أكون واحداً منهم !!

فى هذا الأفق الفسيح العالى كان أحمد رضى الله عنه يسبح بروحه وذهنه ، فهل كان خصومه بعد أن شفوا صدورهم بعذابه وآلامه وسجنه يذهبون هذا المذهب؟.

إنهم ما حسدوا أحمد على شيء ، حسدهم على هذه المحنة ، لا لأنه صبر على الضرب والسجن واستوجب مثوبة الله ، بل لأن ذكره طار كل مطار فى الآفاق ، فالناس فى أمصار الاسلام وأقطاره النائية معجبون بثباته ، وورعه ، وشجاعته ، وحفاظه على دين الله ، يتلقفون أخبار محنته فى شغف وعطف وتأثر ، ويسمعون قصص تلك البطولة يرويها كل طارئ يطرأ عليهم من دار الخلافة فى همس واستخفاء ، ولا يلبثون أن ينثنوا بها الى مجالسهم وسمرهم فتكون زادهم من أحاديث السياسة والدين والعلم والموعظة . حتى فشا ذكر احمد وتعصب الناس لرأيه فى محنة خلق القرآن ، وحتى اضطر ولاة الأقاليم وأمراء الأمصار الى اضطهاد العلماء والزهاد ، وسجنهم وضربهم اذا لم يقروا بأن القرآن مخلوق .... فاشتد الكرب بالناس ، واشتد تعصبهم لرأى أحمد ، واضطر كثير من العلماء والزهاد الى الفرار والاستخفاء من وجه الظلم والمحنة ....

أما بغداد – عاصمة الملك ، ومقر البطل الورع – فلم يكن فيها قلب ، فيما عدا قلوب أهل البدعة ، إلا وسكنه احمد ... ولم يكن فيها نفس إلا والامير عليها رأى احمد ، ولم يكن فيها لسان ، أو دار او مجلس ، أو ندوة إلا وذكر احمد والثناءُ عليه والإعجاب به ، هو القربة التى يتقربون بها الى الله جل شأنه ...

نعم ، كان ذلك شأنه ببغداد ، لدى خاصة الناس وعامتهم على السواء . فهذا مجلس من المجالس تذكر فيه مناقب أحمد ، فيقول يحيى بن معين : «لو جلسنا مجالسنا كلها نثنى على أحمد ما ذكرنا فضائله بكمالها» ... وهذا مجلس غيره يقول فيه إسحاق بن راهويه : «لولا أحمد بن حنبل وبذله نفسه لما بذلها له ، لذهب الاسلام» . وهذا مجلس ثالث يقولون فيه لبشر بن الحارث وهو من هو : هلا تكلمت أيام ضرب أحمد بن حنبل ! فيقول : «أتأمرونى أن اقوم مقام الأنبياء؟ إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبة حمراء!» ...

أما العامة من أهل بغداد ، فلا سبيل الى تصوير سيطرة أحمد على قلوبهم ومشاعرهم ، ويكفى أن نعلم أنه بعد مرور مائة عام على المحنة كان الحنابلة هم المسيطرون على عامة شئون بغداد «يكبسون دور القواد والعامة ، فاذا وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإذا وجدوا مغنية ضربوها ، وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، وفى مشى الرجال مع الغلمان الصغار» كما يقول أبو الفداء فى تاريخه .

.... ذلك ذكره بين أهل الاسلام ، أما ذكره فى سواهم والثقة به ، فحسبك منه ما كان يرويه نوح بن حبيب ، قال : كان عندنا – يعنى فى بلدهم – امراتان مجوسيتان ، فاختصمتا فى مواريث لهما الى رجل من المسلمين ليقضى بينهما ، فقضى لواحدة منهما على الأخرى ، فقالت له الأخرى : «ان كنت قضيت على بقضاء أحمد بن حنبل فقد رضيت ، وإلا فانى لا أرضى» قال نوح : فحدثت به أهل طرسوس والشامات .

لقد أراد خصومه أن يخفتوا صوته ، ويطفئوا نوره ، فأبى الله إلا أن ينطلق هذا النور في الآفاق ، وأن يمتد موج هذا الصوت القوى الى كل أذن وكل قلب .. وما سعى أحمد الى شيء من ذلك ، وما كان له فيه من أرب ، فنفسه مشغولة بتحصيل حظها من الله متجردة لتنسيق خواطرها ومشاعرها مع مرضاته سبحانه ، أما ذلك الذكر الذى طار له فى الآفاق ، وذلك الجاه الذى انعقد له فى الناس ، فلم يكن له فى نفسه من اثر ، فان الالتفات اليه ، والتجاوب معه موجب للسقوط من عين الله ، وما كان أحمد ليشترى الجاه عند الناس بالجاه عند الله ، ويجعل سلعته فى ذلك دين الله جل جلاله ... إنها نفس تحلق فى ملكوت رفيع لا يصل اليها فيه للناس همس أو ضجيج ... ومع ذلك ، هل سلم من دسائس خصومه وأذاهم ؟!

لقد أزعجهم وأكل قلوبهم أن تكشفت المحنة عن مولد عملاق لم يكن فى حسبانهم أن يولد .... فاجتمعوا بعد خروجه من سجنه وإبلاله من مرض محنته ليروا رأيهم فيه ...!

ولم يفزعوا الى المعتصم فيما يريدون ، فانهم يعلمون عزوفه عن المشاركة فى محنة جديدة ، ويعلمون أنه ما حمد الله على شيء قدر ما حمده على شفاء أحمد ، لما يرى فى ذلك من استتباب ملكه ، وسكون رعيته من الفزع والثورة ... ولم يكن فى مقدورهم أن ينالوا منه أو يفعلوا معه أكثر من التضييق عليه ، والحجر على حريته ، واعتقاله فى داره ، لا يغشى سوقا ، ولا يلم بمجلس ، ولا يذهب لزيارة أحد من الناس ... بل لا يخرج لصلاة جمعة ولا لصلاة جماعة ، كل صلاته يؤديها في بيته .

لقد صورت لهم حلومهم المذعورة ، وقلوبهم الطائشة الفزعة ان هنالك خطراً يتهدد جاههم ونفوذهم فى الدولة إن اتصل هذا الإنسان الروحانى بالجمهور واتصل الجمهور به ، فأداهم التآمر عليه الى اعتقاله فى داره على الصورة التى ذكرنا ، أو «تحديد محل إقامته» على ما جرى به التعبير فى استعمالنا الحديث .

ووكل المتآمرون تنفيذ قرارهم الى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد العنيد[1] ، والمساهم فى محنة الامام بأوفى نصيب . فأرسل الى الامام يأمره بالتزام داره لا يبرحها لا لصلاة جمعة ، ولا لصلاة جماعة ، ولا لما هو أجل من ذلك أو أقل .

وكان الإمام رضى الله عنه يزهد فى غشيان المجالس ولا يجد فى طبعه نشاطا الى الالمام بمجتمعات الناس ، فلم يزعجه قرار الاعتقال من هذه الوجهة ، لكنه آلم اشد الألم ، واغتم غاية الغم لحرمانه من المسجد ، وتحصيل ثواب الجمعة والجماعة ، والجلوس لدعوة الناس فيه الى الله سبحانه !

وهكذا خرج أحمد من سجن الخليفة ، ليعانى محنة سجن آخر فى بيته ....

وامتدت المحنة بقية أيام المعتصم ، وتلتها أيام الواثق ، وكان الواثق شديد الوطأة على من لا يقول بخلق القرآن ، حتى قيل انه طلب أن لا يساكنه أحمد بن حنبل فى أرضه ... ومضت الأيام ثقيلة رهيبة ، ونجم المعتزلة فى صعود ، ومحنة الإمام تستحكم وتشتد ، حتى انتهت أيام الواثق ... وحار رجال الدولة فيمن يولون بعده فقام أحمد بن ابى داؤد فسخر سلطان الدولة لمجد المعتزلة ، والبس المتوكل حلة الخلافة ، وعممه ، وقبله بين عينيه ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ... ومضت الأيام وتعاقبت السنون ، والإمام محتجز فى داره لا يبرحها سبعة عشر عاما ..

وكان المتوكل لا يرتاح للقول بخلق القرآن ، لكنه كان يكره علياً بن أبى طالب كرم الله وجهه - ويسرف فى مطاردة العلويين - فنشط المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام ، ويتهمونه بالجنوح لشيعة على ، وتطورت المحنة لتأخذ لونا جديدا آخر ، وتشتد الرقابة على الإمام ، ويرسل اليه نائب بغداد عبد الله بن إسحاق : الزم بيتك ولا تخرج وإلا نزل بك ما نزل بك فى أيام والدى إسحاق بن ابراهيم ...

---

(١) كلمة نائب تعادل فى عرفنا الحالى كلمة محافظ.

وامتدت اعناق أهل الفتنة، فاتهموا الإمام لدى الخليفة أنه يأوى فى بيته أحد العلويين ذوو القدر الخطير ... ويثور الخليفة فيرسل لفوره الى بغداد ليفاجأة بيت أحمد والقبض على العلوى المزعوم!

وفى ليلة من الليالى، بعد أن نام الناس، وهدأت الحركات، وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة، سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره، فقام الى الباب ففتحه، فاذا به أمام رجلين وامرأتين.

اما الرجلان: فهما مظفر حاجب عبدالله بن إسحاق نائب بغداد، والآخر ابن الكلبى صاحب البريد.

وأما المرأتان فمهمتهما هى مهمة البوليس النسوى فى أيامنا هذه..

قال مظفر: يقول لك الأمير، إن أمير المؤمنين كتب اليه ان عندك طلبته.

وقال ابن الكلبى: نعم إنك تأوى فى بيتك علويا من أعداء امير المؤمنين، وقد جئنا لأخذه.

فقال الإمام: إنى لا أعرف هذا، ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين فى العسر واليسر، والمنشط والمكره والأثرة....

وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: «إنى أستأنف عن تأخرى عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين....».

قال ابن الكلبى: قد أمرنى أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته... أفتحلف؟

قال أحمد: إن استحلفتنى حلفت.

فأحلفه ابن الكلبى بالله فحلف..

وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا... وحضر ابنه صالح أبو الفضل... فقال ابن الكلبى:

أريد أن أفتش منزلك... ونظر الى أبى الفضل وقال: ومنزل ابنك.

وقام مظفر وابن الكلبى ففتشا البيت... وفتشت المرأتان النساء، فلم يعثروا على شىء. وفتشا بيت أبى الفضل، فلم يجدوا شيئاً.

وفتشت المرأتان أماكن الحريم... وجاءوا بشمعة فأدلوها فى البئر، وانصرفوا بعد ان لم يجدوا شيئاً.

وتولى ابن الكلبى وصف حال الإمام من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ، ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة فى المنشط والمكره... ومن براءته مما عزاه اليه خصومه...

وأذن الله بانكشاف الغمة، فجاءه بعد يومين كتاب من على بن الجهم(١) «إن أمير المؤمنين، قد صح عنده براءتك مما قذفت به، وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم، فالحمد لله الذى لم يشمتهم بك».

واقبلت الخلافة على الإمام تخطب وُدَّه، وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه.... وأخذت الأيام تدير مولية بمجد المعتزلة... فمرض ابن أبى داؤد بالفالج... وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون الى الإمام بذكر ما نزل بابن أبى داؤد، ويومئون الى ان كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص... فلم يلتفت اليهم أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا...

(١) هو الشاعر الفحل من شعراء الدولة العباسية، وكان فيما مضى يختلف الى مجالس الامام احمد وصحح عقيدته فيما يسمعه منه. فلما انقضت مدة الواثق الذى كان شديدا على أهل السنة ومناصرا للمعتزلة ارتفع صوت على بن الجهم بالثناء على المتوكل ومجافاته المعتزلة، وازدادت صلته به وثقة الخليفة به الى حين. وفى مدة اتصاله بالمتوكل وقعت الوشاية على الامام احمد بايوائه العلوى، فلما ظهر كذب أصحابها تمكن على بن الجهم من اقناع المتوكل بالتفريج عن =

ومضت الأيام فى إدبارها على المعتزلة ، فغضب الخليفة على ابن أبى داؤد ، وقبض على أبنائه ، وصادر أملاكه وأمواله وجواهره ، وأخذ ابن أبى داؤد الى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه ... فكان يأتيه من يحمل اليه تلك الأنباء ، فيكرم نفسه ان تنزل الى مستوى الشماتة الرخيص ، بل كان الخليفة نفسه يرسل اليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير اموال ابن أبى داؤد فكان يسكت ولا يجيب بشىء .

وهو موقف جدير ان يلقى على الناس دروساً فى عظمة النفس ، وشدة الإقبال على جلائل الأمور ، والانصراف عن سفسافها وتافهها ... رحمن الله الإمام ، لقد كان إماماً فى كل مكرمة! .

وبعد ، فهل سعدت حال الإمام باقبال الخلافة على وده ، وطلب المؤانسة بقربه ؟

قد يقول كثير من الناس نعم ... ولكن احمد يقول : لا ، إنها محنة الدنيا ابتلى بها بعد محنة الدين !! فكيف كان ذلك ؟.

ظهر إفك المعتزلة وكذبهم على احمد ، فأرسل اليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه :

«قد صح نقاء ساحتك ، وقد احببت أن آنس بقربك ، واتبرك بدعائك ، وقد وجهت اليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك» .

وهكذا انتهت محنة الحبس والاضطهاد عن احمد ، وبدأت الأيام تقبل عليه بلون آخر ، ووجه جديد .

= الامام احمد ، وكان ابن الجهم هو الذى كتب الى الامام بهذه البشرى . (انظر مقدمة الاديب الكبير الاستاذ خليل مردم بك لديوان على بن الجهم ، ووصف الديوان والكلام على ناظمه فى مجلة الازهر عدد رمضان ١٣٧٢) .

بدأ الجاه الواسع ، والكرامة الجزلة ، والمال الكثير يخطب وده ... وأقبل الخليفة يمد اليه يده بكل ذلك .

وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه ، وحل بالدار نشاط وأنس ، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة ، وكان ذلك حرياً أن يمس حياة الأمام بشيء من النضارة والسعة عقب ما قاسى في السنين الطوال العجاف من قسوة وضيق ومناواة .. ولكن هيهات!؟

فقد تألق أحمد على المحنة ، وصفا وأشرق ، وسما عن دنيا الناس ، ولم ير في إقبال هؤلاء عليه إلا إقبال محنة من لون آخر لا يعصم من شرها إلا الله .

قال ابنه صالح : «لما جاء كتاب المتوكل بالمال ، ناداني أبي في جوف الليل ، فقمت اليه فاذا به يبكي ، فلما رآني قال : ما نمت ليلتي هذه !... سلمت من هؤلاء ، حتى اذا كان في آخر عمري بليت بهم ..!؟»

فلما كان الصباح جاء الحسين البزار والمشايخ ، فقال : يا صالح ، جئني بالميزان وبالدراهم ... ثم اخذ يزن المال ، ويقول وجهوا هذا الى أبناء المهاجرين ... وهذا الى ابناء الأنصار ... وهذا لفلان ليفرق في ناحيته ... وهذا لفلان ... وهكذا حتى فرقها كلها ... فلما أحس أنه فرق معها كربته ، تنفس الصعداء ، ونفض الكيس ، ثم تصدق به .

قال صالح : ونحن في حالة الله بها عليم ، فجاء ابن له صغير ، فقال : يا ابت ، اعطني درهما ! فنظر اليَّ ، فأخرجت قطعة من جيبي أعطيته إياها .

وبلغ الخبر المتوكل ، فقال علي بن الجهم – وكأنه يريد أن يزيل شيئاً علق بنفس الخليفة – يا أمير المؤمنين ، ما يصنع أحمد بالمال ، وقوته رغيف ، إلا أن يتصدق به ؟ وقد عرف الناس أنه قبل منك الصلة ولم يردها ..!

قال الخليفة : صدقت ...

وكان لابد لأحمد من تلبية أمر الخليفة ، لا خضوعاً لقوة السلطان ، بل وفاء لحق السمع والطاعة الذى فرضه الاسلام لولى الامر فى غير معصية ... فخرج من بغداد الى سامرا ، ومعه يعقوب المعروف بقوصرة ، وهو الرسول الذى حضر اليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب ، وخرج معه بعض بنيه .

وكان يعقوب شديد السرور والزهو بنجاح مهمته ، فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه ... وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك ، فلما صار على مقربة من سامرا ، أراد أن يعجل البشرى بقدوم الإمام ... وحدثته نفسه أن يجعل تلك البشرى مضاعفة الأثر ، حافلة بأسباب المسرة ، فما أحسن أن يكتب أحمد بنفسه كتابا للخليفة – وهو فى طريقه اليه – بما شاء من الثناء والتقدير ، ومعانى الولاء لسلطانه !.

وراقت الفكرة ليعقوب ، فطار لها لبه ، أليس يرى الخليفة فيها أكثر مما كان يطمع من أحمد ؟.. وأقبل يعقوب على الإمام .

يا لله !.. إن الإمام فى واد غير وادى الناس ، وكربه يزداد ساعة بعد ساعة كلما اقترب من دار الملك :

ولقد غطى رأسه بغطاء غليظ ، ونكسه ولا يرفعه فى أحد .. وألقى يعقوب كلماته التى يريد ، واقتحم بها عليه عزلته وكربته ، فاذا الإمام يضيق بتفاهة ما يفكر فيه الناس ، فلم يلتفت الى الكلام ، ولم ير صاحبه جديراً بأن يرد عليه بشىء!.. فغضب يعقوب وأخذته العزة بالاثم .. وأقبل على صالح يقول له : «ما رأيت أعجب مما نحن فيه !.. أسأله أن يطلق لى كلمة أخبر بها أمير المؤمنين فلا يفعل؟!» .

★ ★ ★

نزل الامام «بسرَّ من رأى» ضيفاً على امير المؤمنين ، .. ولم يكن للخليفة من هم - بعد أن عرف كل شيء عن احمد - إلا ان يرضيه ، وأن لا يحمله على شيء يكرهه ... وحسبه أن يعلم عامة الناس أن أحمد بن حنبل فى ضيافته ، فهذه الضيافة وحدها لها من التفسير والتأويل عند الجمهور ما يتوطد له الملك ، ويستقر عليه أمر السلطان .

عرف الخليفة ان أحمد لا يقبل ماله ، فلم يكن له بد من النزول على رغبته ، واحترام إرادته ، ولكن لابد من أن يصله فى قرابته ، فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم ... وتسلم صالح ابنه - بأمر الخليفة - عشرة آلاف على الفور مكان التى فرقها أبوه ببغداد ، على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم .

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة على أحمد ، وشدة إقباله عليه ، وإكباره له ، فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم ، كل يخطب وده ، ويبتغى عنده المنزلة ، ويحاول أن يسرَّه بما يستطيع .

فهذا وصيف - عاهل رجال القصر - يرسل ابن هرثمة حاملا اليه التحية ويقول : «الحمد لله الذى لم يشمت بك الأعداء ، أهل البدع ... قد علمت من حال ابن أبى داؤد ، فينبغى أن تتكلم فيه ما يجب لله» .

والقوم لا يدركون أن احمد قد وهب لله ما لقى بسبب ابن أبى داؤد من السجن والتعذيب والاعتقال ، وضروب المحن ، وسما بذلك عن التأثر والضغينة ، فليس فى قلبه من موجدة لخصمه القديم العتيد ... وليس لتلك الوسائل التى يتقربون بها اليه ، ويثيرون بها إحن الماضى أقل نصيب من عنايته أو احترامه .

ويجيء من رجال القصر من يسأله رأيه فى ابن أبى داؤد ، وفيما اقتنى من الاموال والضياع والجواهر فلا يجيب ..!

ويجيء يعقوب وسواه ليحدثوه بما يجرى لابن أبى داؤد من المحن ...

فمرة قد أشهد عليه ببيع ضياعه ... وثانية قد أخذ الى بغداد مقبوضاً عليه ... وأخرى ..

كل ذلك والإمام فى أفقه العالى ، لا يزيده سماع الرياء والسفساف إلا زهدا وانقباضاً ، وضيقا بما يحيط به من أجواء النفاق والملق وأسباب الفتن والبلاء .

أمر الخليفة أن تفرش الدار التى هيئت له بالفرش الوثيرة .

وان ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة .

وأمر أن تقطع له ملابس فاخرة : طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذى اختارته الدولة العباسية شعاراً لها .

ويحضر يحيى بن خاقان فيقول : إن الخليفة أمرنى أن أصير لك مرتبة فى أعلى ، ويصير ولده المعتز فى حجرك ، تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ .

إنها الدنيا تقبل بالجاه الجزيل ، والمقام المرموق ، وتتبرج له بكل ما تستطيع من زينة ، علها تظفر منه ولو بلفتة ، أو لحظة من جانب الحدق !.

وجاء يحيى فى اليوم التالى يدعوه أن يركب الى دار المعتزل ، ويقول فى لهجة مهذبة ، تركب يا أبا عبد الله ؟.

فيقول الإمام : ذاك اليكم .

وكان يوماً مشهوداً فى القصر ، ألبسوه هناك الطيلسان ، وما أمر له به الخليفة من الوان الثياب والشارات ... ويقول بعض الخدم! إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستر القصر ، يرقب فى خفاء ما يكون من أحمد ، فلما رآه يدخل ، أخذته رجفة ، وغشيته هزة من الفرح ، ولمع السرور فى عينيه وقال : «يا أمّه ، قد أنارت الدار بدخول أحمد!» .

اذا جاز أن يعتذر الدهر لإنسان عن إساءة أسلفها اليه، فهل يعتذر بمثل ما يعرض اليوم على أحمد بن حنبل من الكرامة المقبلة بلا قيد ولا شرط؟.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبى من القصر الى الدار التى أعدت له، نزع عنه الثياب التى أنعم بها عليه، وجعل يبكى ويقول: «سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة، حتى اذا كان فى آخر عمرى بليت بهم؟.. ما أحسبنى سلمت من دخولى على هذا الغلام، فكيف بالخليفة الذى يجب على نصحه من وقت أن تقع عينى الى أن أخرج من عنده؟».

ثم التفت الى الملابس وقال لابنه: «توجه بهذه الثياب الى بغداد، فبعها وتصدق بثمنها، وحذار أن يشترى أحد منكم شيئا منها!».

أما الفرش الوثيرة الطرية، فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضرَّبة خشنة له... ونظر الى حجرة فى جانب الدار، فأمر أن يحول الى ركن منها، وأن لا يسرج له فيها سراج قط.

وأما المائدة فقد عافها، فلم يدخل بطنه شيء منها... وكانت شهية حافلة، حتى إن صاحب الدار التى كانوا ينزلون بها - لما رأى إعراض أحمد عنها - ساوم صالحاً بثلاثة آلاف يدفعها له مكانها كل شهر فأبى... وناهيك بمائدة تتكلف كل شهر ثلاثة آلاف أو أكثر فى تلك العصور الخاليات!!.

بلغ الضجر بالإمام كل مبلغ، وبرم بكل شيء، وزهد فى كل شيء... ولم يعد أبغض اليه من أن يلقى رجال الخليفة، حتى كان يدعهم مع بنيه فى الدهليز ويقبل على صلاته وقراءته ما شاء الله. وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم!

اشتكت عينه مرة، فلما برئت ضاق ببرئها، وقال لولده صالح: «ألا تعجب؟! كانت عينى تشتكى فتمكث حيناً حتى تبرأ، ثم هى فى هذه المرة تبرأ فى سرعة!».

أقبل الإمام على الصلاة لا يفتر ... وعلى القرآن يختمه كل جمعة .. وعلى الصيام يواصله فى الصيف القائظ، فلا يفطر إلا كل ثلاثة أيام ... أو كل يومين، فاذا أفطر، افطر على تمر وسويق أو على رغيف! وكانت المائدة توضع فى الدهليز حتى لا يراها!... فساءت صحته وذهبت قوته وضعف بدنه.

وكان يأخذه العطش، ويجهده الحر، فتبل له خرقة بالماء، فيضعها على صدره الذى يعلو ويهبط بما يتردد فيه.

وكان الطبيب ابن ماسويه يعوده كل يوم من قبل الخليفة لينظر ما به من علة، فيقول له: «يا أبا عبد الله، أنا أميل إليك وإلى أصحابك ... ووالله ما بك من علة إلا الضعف، وقلة الطعام والبرّ».

ولكن أحمد يمضى فى صيامه وقلة الطعام والبر، لا يلوى على كلام ابن ماسويه.

ويدرى ان الخليفة أمر أن يشترى له دار بسرَّ من رأى ليقيم فيها حياته محدثا بحديث رسول الله ﷺ، فتعظم به المحنة، وتزداد الأزمة انقباضاً وحدّة، ويدعو صالحاً ابنه ويقول له: «لئن أقررت لهم بشراء الدار لتكونن قطيعة بينى وبينكم!.. إنما يريدون أن أحدث فيكون هذا البلد حبسى!.. وما حبسى إلا جوار هؤلاء!.. والله لقد تمنيت الموت فى الامر الذى كان أيام المعتصم، وإنى لأتمنى الموت فى هذا !! إن هذا فتنة الدنيا، وكان ذاك فتنة الدين».

قال صالح: جعل يضم أصابع يده، ويقول: «لو كانت نفسى فى يدى لأرسلتها !» ثم يفتح أصابعه !.

وكانت رسل الخليفة لا تنقطع عن أحمد يرسلهم اليه كل يوم، براً به وتلطفاً اليه ... فهذا محمد بن معاوية يقول له: أمير المؤمنين يكثر ذكرك

ويقول : تقيم ها هنا تحدّث ... فيجزع أحمد لأمر لا يد بمخالفته ، ولا طاقة له بقبوله ، فيلوذ الى الاحتجاج بالمرض : «انا ضعيف» ... ويضع إصبعه على بعض أسنانه ويقول : «إن بعض أسناني يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدى» .

ويأتيه رسول آخر يعرض عليه أن يزور الخليفة ، ويومىء الى ذلك بطرف خفى بقوله : «أمير المؤمنين مشتاق اليك» ... فيسكت ..!

وتتوالى الرسل تقول له : «يا أبا عبدالله لابد له من أن يراك» فيسكت ولا يجيب ... فاذا انصرفوا قال لابنه صالح : «ألا تعجب من قولهم ، لابد له من أن يراك؟» .

ولكن الخليفة يلح فى المقابلة! ويتلطف فلا يعرض على أحمد ميعاداً بعينه ، بل يترك له تحديد الوقت الذى يلائمه ، فيجىء يعقوب ويقول :

يا أبا عبدالله ، أمير المؤمنين مشتاق اليك ، ويقول لك : «انظر اليوم الذى تصير اليه فيه ، أى يوم هو حتى أعرفه؟» .

ويرى أحمد نفسه أمام أمر من الخليفة لابد له من إجابته اداء لحق السمع والطاعة ، ويتأدب بازاء أدب الخليفة فلا يقبل أن يحدد موعد المقابلة ويتركه لمن يهمهم الامور ، فيقول للرسول : «ذلك اليكم» .

. فيقول الرسول : يوم الاربعاء خال .

لم يكن فى تلك الفترة شىء أبغض الى نفس أحمد من هذا اللقاء! إنه الملك يحنى هامته له ، وقد أقبل عليه يخطب وُدَّه ، حاسراً التاج عن مفرقه ، متجرداً من كل شارات الجلالة إجلالا لمكانه ... فماذا يبتغى أحمد ، وهى منزلة لا يحلم بها حالم من طلاب الدنيا؟.

إن أحمد لا يبتغى شيئا من ذلك ، ولا ينشد إلا المعافاة منه .. إنه لا ينظر الى ما هو فيه إلا على أنه محنة ، ولا ينظر الى المتوكل ، إلا على أنه معتصم

ولكن من طراز آخر . وما المال والجاه والقرب ، إلا سياط هذا المعتصم الجديد ... سياط لا تلهب الأعصاب ولا تحرق البدن ، ولكن تلهب حساً قدسياً في وجدانه . يجد لسع المفزع دون أن يدرى له كيفاً أو يستطيع عنه إبانة !.

لقد عانى أحمد من بلاء هذه المحنة ، أو من بلاء هذه العافية الى الآن فوق ما يطيق ... وجاء هذا اللقاء ، لقاء يوم الاربعاء الموعود بما لم يجىء مثله من قبل ، لا يتمنى على الله إلا ان يعافيه من أزمته ... فهل يجيبه سبحانه الى ما يتمنى ، وهو جل شأنه الذى يقول فى الصابرين من عباده : لهم ما يشاءون عند ربهم ؟

يا لله ! ما أجمل كرامة أولياء الله عليه!.. وما ألطف معافاته لهم مما يكرهون!.. وما أجمل ما يصنع لهم فى الخفاء لكشف كروبهم وهم لا يحتسبون! .

ماذا كان يوم الاربعاء على قلب أحمد؟!

وماذا كانت شمس ذلك اليوم فى مرأى بصره وهو تطلع؟

وأى كرب الذى كان يجثم على صدره وهو ينتظر قدوم رسول الخليفة ليصحبه الى المقابلة؟!.

وماذا كان من حاله حين هبط عليه الرسول المرتقب فجأة ، لا ليصحبه الى الموعد ، بل ليقول له : «البشرى يا أبا عبد الله !» امير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول : «قد أعفيتك من الركوب الىّ .. والى ابنى المعتز .. والى ولاة العهود .. وأعفيتك من لبس السواد .. فان شئت فالبس القطن .. وإن شئت فالبس الصوف» !.

لقد هبط الفرج المفاجىء عليه هبوط النور فى العين المظلمة .. واهتزت السريرة المكظومة المحترقة تتنفس الصعداء وتنشق تلك البرودة العذبة التى

أقبلت عليها بنفحات قدس الله . وانطلق اللسان الشاكر الذاكر يسجل لله نعمته : الحمد لله .. الحمد لله .

كانت الدار التى نزل بها أحمد فى «سامرًا» تستقبل كل يوم عديدا من رجال الدولة وغيرهم . يغدون عليها لزيارته والاطمئنان على حاله ... وكان ولداه عبد الله وصالح يقومان عنه باستقبالهم وتحيتهم . أما هو فكان لا يخرج اليهم من حجرته وصلاته إلا قليلا . فانحدر صالح الى بغداد يوماً لبعض شأنه ، فأمر عبدالله أن يلحق به ، وقال له : الزما بغداد ، ولا يخرج أحد منكما الى ، فانما أنتما آفتى!.. والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أخرجت منكما واحداً معى ... لولا مكانكما منى فلمن كانت توضع هذه الفرش؟ ولمن كانت توضع هذه المائدة؟» .

خلت الدار على أحمد بعد سفر ولديه ، شملها سكون ووحشة ، وطويت الفرش على ما صدق ظنه . وانقطع مجىء المائدة ، وقل الوارد من الزوار ، وأمعن الشيخ فى خلوته ، وصيامه وعبادته ، وأمعن فى الضعف والهزال . وساءت صحته .. ولم يعد للقوم مأرب من مقامه بينهم على هذه الحال .. وهو ما كان يريد .

سأل عنه الخليفة يوماً فقيل له : إنه عليل ... فقال : «قد كنت أحب أن يكون فى قربى ... وقد أذنت له» .

وجاءه البشير بذلك فى جوف الليل : قد أذن لك الخليفة ... وهذه ألف دينار لنفقتك ، ونحن بسبيل تهيئة حراقة لك تنحدر بها فى دجلة الى بغداد .

وانقضت بذلك محنة أحمد بسرَّ من رأى ، وانكشف عنه ما كان يجد من الكرب والفتنة ، وقال للرسول : أما المال ، فلا حاجة لى به ، «وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره» وأما الحراقة فيغنى عنها دابة من دواب البريد ، وهى أرفق بى وأيسر .

كانت محنة الجور من السلطان ارفق بأحمد من محنة إقباله عليه بالجاه والعطاء والمال!.

كان يريد أن يسلم له دينه ويقينه، أو يسلم له قلبه ووجدانه: ولا آفة للايمان إلا حب الدنيا، ولا آفة للقلب إلا الركون الى زينتها ... فاذا فسد الايمان، وهلك القلب، فأى شيء يكون المرء عند الله جل ثناؤه؟.

وقد يعظ الناس بعضهم بعضاً بمثل هذا الكلام، فيكون وعظهم من قبيل التقرير لأمور نظرية، ويكون تقبلهم له من قبيل الارتياح الى الكلام الحسن الذى لايكلفهم قليلا ولا كثيرا من مشقة الصبر أو خشونة المجاهدة.. أما أحمد رضى الله عنه فقد أبصر تلك الحقائق رأى اليقين والبصيرة، فشمر لها على حذر، وتجرد لها على خشية من الله، ورغبة صادقة فى السلامة والأمن.

لقد نشأ له فى خفايا نفسه عينان لا كالعيون، تبصران له ما فى عالم المعانى من الحقائق والقيم... فكان يمسى ويصبح، ويغدو ويروح ومعالم هذا الأفق الخفى ساطعة فى نفسه، شاخصة لوجدانه، فهى بالنسبة له أمر واقع، وشيء حاضر قائم، لا سبيل الى تجاهله أو الانصراف عن خطورة شأنه.

إن الدنيا المقبلة عليه بجاهها ومالها وكل زينتها، لا يراها هو كما يراها سائر الناس.. إن حلاوتها فى القلب هى سُمُه الزعاف القاتل وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم فى رأى الناس، إن هى إلا الإعصار المحرق الذى يأتى على ما نشأ فى رياض النفوس.

كان أحمد يرى كل ذلك رأى العين والبصيرة... فهل يرفع الكأس الى شفتيه وهو يعلم أنه السم الزعاف؟... وهل يستقبل الإعصار فى طمأنينة وهو يرى ألسنة الحريق واللهب تمتد اليه لتطويه فى ثناياها؟

ذلك هو وجدان أحمد، وتلك هى حقيقته التى كان يعيش فيها بين الناس.. يرى مالا يرون، ويدرك مالا يدركون!!.

وكان شديد الحرص، أن يجنب أبناءه ما يجنب نفسه من آفة الدنيا، وأن يحميهم مما حمى نفسه منه، وفيه خيرهم الحق، ونجاتهم من كل شر، ولكن هل يبلغ صوته آذانهم، وهل يعون عنه سمو الهدف الذى يريد؟

لقد عاد الى بغداد، واستقر بين بنيه وأهله، فاقبل على ابنه صالح يقول له: «يابنى، أحب أن ندع هذا الرزق الذى نأخذ من الخليفة، فقد علمت انكم إنما تأخذونه بسببى».

قال صالح: فسَكَتُّ.

قال أحمد: مالك لا ترد؟

قال صالح: اكره أن أعطيك شيئا بلسانى، واخالف الى غيره. وقد كنت اشكو اليك فاقتى وكثرة عيالى، وكنت تدعو لى، فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك.

قال: ولا تفعل ما أقول لك؟

قال صالح: لا.

فغضب أحمد وطرده من مجلسه، واقام جداراً يسد ما بينه وبين بيته.

قال صالح: وكان اذا بلغه أنا قبضنا شيئا اغتم وطوى ليلته فلم يفطر... وظللت أشهراً لا أدخل عليه.

فوجهت اليه: يا أبت، قد طال هذا الامر علىَّ، وقد اشتقت اليك.

فسكت... قال: فدخلت اليه واكببت عليه، وقلت له: يا أبت تدخل على نفسك هذا الغم؟ فقال: يا بنى، يأتينى مالا أملكه!

وتكلم عبدالله بن محمد المعروف ببوران، وقال: يا أبا عبدالله صالح يرضيك الله.

فقال : يا أبا محمد ، والله لقد كان أعز الخلق على .. وأى شيء أردت له؟ ما أردت له إلا ما أردت لنفسى!

فقال صالح : يا أبت ، ومَن مِن خلق الله الذين رايتهم أو لقيتهم ، يقوى على ما قويت أنت عليه ؟

فغضب أحمد وقال : وتحتج على!؟

وانقطع الراتب شهوراً عشرة ، عن كل شهر اربعة آلاف ، وارتاح أحمد بعض الشيء . ولكن الخليفة يعلم ، يبلغه ذلك ، فيأمر بالأربعين ألفاً أن تحمل للفور الى ولد أحمد . فلما جاءت أرسل اليه صالح ينبئه ، فسكت قليلا .. وجعل يضرب ذقنه بيده ساعة .. ثم رفع رأسه ، وقال : «ما حيلتى اذا أردت أمراً ، وأراد الله أمراً؟»

وقدم المتوكل فنزل بظاهر بغداد فى طريقه الى المدائن ، فهل خف أحمد الى لقائه وتحيته مع من خف من الاعيان والكبار والشيوخ؟

لقد عرفنا مذهبه ، فهو يريد أن لايرى أحداً من أرباب الجاه والسلطان ، وأن لا يراه أحد منهم .!

لم يخف الى لقاء الخليفة ، بل لم يحدث نفسه به .. بل ذهب الى ما هو أكثر من ذلك . قال لابنه صالح : «يا بنى ، لا تذهب اليوم حتى لا يراك أحد منهم فيذكرنى بك» .

ولكن الخليفة ينظر فى وجوه الاعيان ، فيرى كل وجه لا يريده .. ولا يرى الوجه الذى يحب أن يراه!

وكان صالح جالساً بظاهر الدار على باب الزقاق ، فى اليوم التالى ، وكان يوم مطر .. قال : واذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر عليه فى موكب عظيم ،

فلما رآنى قال: سبحان الله! لم تصل الينا حتى تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك، حتى وجه بى اليه.

ونزل خارج الزقاق، وجهد عليه صالح أن يدخل علي الدابة، فلم يفعل، وجعل يخوض المطر.. ودخل على أحمد وهو قاعد على زاوية من البيت عليه كساء مربع.. فسلم عليه، وقبل جبهته، وسأله عن حاله، وقال: أمير المؤمنين يقرئك السلام، ويقول: كيف أنت فى نفسك، وكيف حالك؟ ويسألك أن تدعو له.

قال أحمد: ما يأتى على يوم إلا وأنا أدعو الله له.

قال يحيى: وقد وجه معى ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة.

قال أحمد: يا أبا زكريا، أنا فى البيت منقطع من الناس، وقد أعفانى من كل شيء أكرهه!

قال يحيى: يا أبا عبدالله، الخلفاء لا يحتملون هذا!.

قال أحمد: يا أبا زكريا، تلطف فى ذلك.. ودعا له.

★ ★ ★

تلك هى عزة الدين، وذلك هو الملك الحق!

أشرف أحمد على النهاية، وأشرف معها على الغاية، وأخذت أيامه الأخيرة تدنو به رويداً رويداً الى باب الخلود.

أطال الصوم.. وأدام الصلاة، لا يصلى إلا قائماً، يمسكه ولده اذا قام، ويسنده اذا ركع أو سجد.. واجتمعت أوجاع الخصر.

قال ابنه صالح: أما عقله فلم يزل ثابتاً صافياً.

وذاع فى بغداد أن صدّيق العصر يوشك أن ينتقل الى جوار الله.

وفزع الناس، يهوديهم، ومجوسيهم، ومسلمهم، ونصرانيهم. فقد كان احمد ملكاً للانسانية بأسرها، ورحمة لكافة من اظله لواء الاسلام او ذمته.

وأرهفت الأسماع ووجفت القلوب، حتى اذا مضت ساعتان من يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الاول من سنة إحدى وأربعين ومائتين نعاه الناعي!.

ووقف دولاب الحياة في بغداد بأسرها عن كل حركة، وفرغت المدينة العظيمة ليوم إمامها الجليل. والكل ما بين حزين مكتئب، وباك منتحب. حتى أسدلوا عليه التراب في جدثه المنور.

ونظر رجال الملك من زاويتهم يقدرون منها موتِ أحمد، ونظر رجال الاجتماع، ونظر رجال الحقيقة.

أما رجال الملك، فقد بعث الخليفة الحازرين يحزرون له عدد من يصلي على أحمد من الناس صلاة الجنازة، فقد كان له فيهم ملك وسلطان من وراء ملك الخليفة وسلطانه. فعاد الحازرون يذكرون له مليوناً وثلاثمائة الف نسمة، عدا الذين لم يتمكنوا من الصلاة!!

أما رجال الاجتماع، فقد لخصوا أثره بقول الدركاني: وقع المأتم والنوح يوم مات أحمد بن حنبل في أربعة أصناف من الناس: المسلمين، واليهود، والنصارى، والمجوس!

أما أهل الحقيقة، فيقفون طويلا على ما كان منه في لحظاته الاخيرة، وقد جاءت سكرة الموت بالحق، وكشف عنه غطاؤه، فيرى بعيني بصره وبصيرته ما كان مستوراً عنه من الحقائق.. ويرى أبليس وقد وقف في ركن من الحجرة يعض على أنامله من الغيظ.. ويسمعه يقول:

لقد أجهدتني يا أحمد أكثر من ستين عاماً، وها أنت ذا تفلت مني اليوم، وتفوتني دون أن أنال منالا!

فيقول له أحمد : لا ... إني لم أفتك بعد ، ولم أفلت منك ، فما يزال فى الصدر أنفاس تتردد ، وما يزال فى البدن خفقة من حياة ، وما يزال لكيدك فيها متسع !

قال ابنه عبدالله فقلت : يا أبت ما هذا الذى قد لهجت به؟ فقال لى : يابنى ، ما تدرى؟

فقلت : لا!

فقال : ابليس لعنه الله ، قام بحذائي عاضاً على أنامله ، يقول : يا أحمد فتنى!

فقلت له : لا بعد ، حتى أموت .

وتعاقبت الانفاس التى تتردد فى صدره ، تخرج واحداً فى إثر الآخر حتى لفظ آخرها . وانطفأت خفقة الحياة ، الحياة التى كانت باقية فى بدنه .

وأطبق فمه !

واغمض عينيه الى الأبد .

(تم)

فهرست

صفحة